كل ذى عاهة جبار

عظماء ومشاهير معاقون غيروا مجرى التاريخ

أحمد الشنوانى

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

كل ذى عاهة جبار

عظماء ومشاهير معاقون

غيروا مجرى التاريخ

اسم الكتاب: عظماء ومشاهير معاقون غيرو مجرى التاريخ
اسم المؤلف: أحمـد الشنوانى
رقم الايداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٣/٣٣٣٨
الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-5346-55-X
تصميم واخراج الغلاف: وائل سلامة
اسم المطبعة: دار القبس للطباعة ت: ٣٦٤٠٨٣٥ - ٥٢٤٢٣١٤

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

٢٠٠٤

الآراء الموجودة
بالكتاب لاتعبر
بالضرورة عن رأى الدار



دمشـــق - القاهـــرة
سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ١٣٢٤٤ فاكس: ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة١١ تلفاكس: ٣٩١٦١٢٢
Email:darkitab@starnet.com.eg

مقدمة المؤلف

من المشهور أن العقل السليم فى الجسم السليم ولكن استقراء حياة العباقرة يدل على أنهم أكثر الناس أو من أكثر الناس تألماً جسمانياً ونفسياً. وستجد فى هذا الكتاب الطريف أمثلة عدة على أمراض العباقرة وما كان يشوب حياتهم من أطوار شاذة وعلل مختلفة.

***

كان ديموستنيس خطيب اليونان البليغ ألثغ. وكان بوب الشاعر الانجليزى ومترجم الياذة هوميروس شعراً إلى الانجليزية أحدب. وكان يوليوس قيصر مصاباً بداء النقطة. وجونسون اللغوى والأديب الانجليزى الظريف وصاحب المعجم المعروف باسمه: أعشى، وذا مزاج خنازيرى. وشينتمس الفيلسوف الالمانى قزماً مشوهاً. وكارليل الفيلسوف ممعوداً. والفرد الكبير ملك انجلترا الحر الحكيم يشكو مرضاً عضالاً طول عمره. وبيرون الشاعر الانجليزى أحنف القدمين. وجبون أعظم مؤرخى الانجليز مريضاً بداء القيلة المائية. وكيتس الشاعر الانجليزى مسلولاً. ولام الكاتب الانجليزى عرضة لنوب جنون وتشارلس داروين صاحب مذهب النشوء والانتخاب الطبيعى مصاباً بمرض الأعصاب إلى آخر ما هناك. فهل بين النبوغ والعيوب الخلقية من علاقة؟

فهذا هوميروس أبو الشعر ضرير، وملتون واصف الفردوس المفقود، وأبو

العلاء المعرى حكيم المعرة ومحكم اللزوميات كلاهما ضرير. ومن سخرية القدر أن ينكب بيتهوفن الموسيقار بالصمم، ويموت بودلير المتصرف فى فنون القول أبكم، ويولد مايكل انجلو المثال أعسر. وليس يخلو من المهانة مرأى كاموينز شاعر الاسبان أعور، وايزوب صاحب الاساطير والعبر أحدب. وعزيز أن نتصور فولتير يقاتل الخرافة الدينية كالتنين الهائل وهو الاعجف البين الأعجف البين العجف مع طول القامة وتقوسها، وأن نتمثل اللورد بيرون، سليل العلية الرائع الطلعة، يحلق بخياله الجامح فى السماء، ويظلع على الأرض بقدمه العرجاء.!!

ومن هذه الأمراض ما هو ضعف طبيعى يشعر صاحبه بأنه دون غيره فى تنازع البقاء كالصرع (النقطة) والعمى والصمم والسل. ويقول علماء السيكولوجيا أن أصحاب العيوب الخلقية قد يستطيعون التغلب عليها من طريقين:

الأول: باجهاد الجسم فى العيوب والأمراض التى يمكن الاجهاد فيها. فقد خلق المستر روزفلت صغير الجسم ضعيف النمو فتغلب على هذا العيب بالعمل الشاق فأدى ذلك إلى تقوية جسمه وقدرته على احتمال اعظم المصاعب الطبيعية وارتقى إلى مركز عال من قيادة الناس. وخلق ديموستنيس الثغ فما زال يحاول اصلاح هذا العيب فيه حتى ظفر ببغيته وصار خطيباً مصقعاً!!

والثانى: طلب العزلة عن الناس حيث لا يمكن مغالبة العيب أو الداء كما فى المسلولين والمصروعين وجبابرة الاجسام والأقزام. وكان فنسى وهاين وجيتى وشرينر وغيرهم كثير من هؤلاء فطلبوا العزلة وانكبوا على الكتابة متخذيها سبيلاً إلى الاعراب عن تفوقهم ونبوغهم اذ تعذرت السبل الأخرى. وقد سميت هذه الطريقة «التعويض النيابى» أى الطريقة التى يعبر بها هؤلاء عن عبقريتهم تعويضاً ونيابة عن عجزهم الخلقى.

ولقد بلغ نوابغ السل فى العدد مالم يبلغه نوابغ مرض آخر. والسل هو ذلك الداء الذى يبلى الجسم ويشحذ القوى العقلية والأدبية ويسبغ على صاحبه قبيل النزع اعظم قوة طبيعية. فقد كان فرنسيس طومسون يمشى فى الشوارع وسيور حذائه مفكوكة وأفكاره محلقة إلى العلاء وهو اسير هذا الداء العياء. وظهرت عبقرية شلى وسنج وبروننج على اسماها والداء يبرح بهم اعظم تبريح وبينما تراه

من جهة يزيد سويداء صاحبه كما فعل بالشاعر بوتراه من جهة أخرى يجسم أمامه الآمال إلى حد يفوق المعتاد كما فعل بالكاتب امرسون. وهو الذى قاد دى كوينسى إلى عادة مضغ الأفيون لعله يتمكن بها من التغلب على سموم الداء. وكان من فرائسه نوابغ مثل: جين اوستن وجون لوك والسير ولتر سكوت وهفلوك أليس وكاترين منسفيلد وفولتير.

وعاش روبرت لويس ستيفنسون طول عمره مريضاً كأنه على شفير قبره. فمن زكام دائم إلى التهاب شعب إلى تدرن أصابة وهو ابن ٣٤ سنة فلزم سريره ومنع مرة من أن يتكلم حتى همساً مدة أسابيع. وكانت سنوه التى احتمل فيها معظم الآلام هى السنون التى جاد فيها باحسن كتاباته.

وكان الجنون نصيب أعظم النوابغ فى طليعتهم نيوتن ودانتى وروستى وشوبنهور وسويفت وكوبر وبو وكولردج وبودلير ولام. وكتب هذا الأخير إلى كولردج كتاباً وعمره ٢١ سنة يقول: (إن الأسابيع الستة من السنة الأخيرة قضاها عبدك الذليل جداً فى بيمارستان بمدينة هوك ستون وكان على غاية السرور. وقد أصبحت الآن عاقلاً بعض الشئ ولا أعض أحداً. ولكنى كنت مجنوناً لا محالة. ولطالما تاة منى عقلى فى كل بيداء)

أما السبب المباشر لجنونه هذا فمأساة سوداء جرت فى بيته. ذلك أن شقيقته مارى جنت فطعنت أمها طعنة أماتتها، فجن شارلى على أثر ذلك وأرسل إلى مستشفى المجاذيب. وبعد شفائه عاش مع أخته إلى آخر عمره وكان كلاهما شديدى السوداء. وقد كتبت تقول: (كلما شفيت قليلاً ورأيت كآبته وشدة سودائه عاد الىّ دائى. ياليت عينيك تنظران الينا مجتمعين والواحد منا ينظر إلى الآخر عابساً محملقاً ويقول له «كيف حالك؟» فيجيبه هذا «وأنت كيف حالك؟». ثم ننقلب باكيين قائلين عسى أن نكون أحسن غداً)

هكذا عاش (لام) منغصاً مبتعداً مما عسى أن يجيئه الغد به غير عارف متى يفقد عقله على تمامه. ومن هذا الظلام الدامس والسوداء الحالكة خرجت مقالاته التى لا مثيل لها (هو وأخته كتبا المقالات التى قصا فيها روايات شكسبير وهى تعلم فى المدارس)

وقد اخبرنا بوزويل راوية جونسون بان داء الخنازير اشتد على صاحبه حتى أضعف بصره وأفقده بصر إحدى عينيه وشوه وجهه، وداء الخنازير يجعل المصاب به سميناً وهكذا نرى جونسون سميناً ذا وجه مشوه وفاقد البصر فى إحدى عينيه. وكان وهو فى المدرسة يتنكب اللعب مع رفاقه لضعف بصره لكنه كان يفوقهم فى الحديث. كذلك قضى عمره متفوقاً فى عقله على أهل جيله أدناهم منه كثير البعد عنه.

ومن المؤرخين من يقول أن سوادءه التى لازمته طول عمره هى نوع من الجنون الموروث وكان أبوه مثله. وقبل وفاته أصيب بالاستسقاء والنقرص فورمت يداه ورجلاه وكان يلهث فى تنفسه كمن يصعد الجبل.

وأصيب بيتهوفن الموسيقى بالصمم وفى صممه ألف أسمى قطعة الموسيقية

واكتشف باستير اكتشافه العلمى العظيم المتعلق بالجدرى ولقاحه بعد نوبة سكتة أصابته.

يلوح مما تقدم أن بين النبوغ والعيوب علاقة عظيمة وانه لولا الشذوذ عن الصحة العادية والأجسام العادية لحرمنا كثيراً من النوابغ أهل العبقرية البارزة.!!

■■■■

غير أن الباحثين لم يدخروا صبراً ولم يألوا جهداً فى التنقيب فى بطون السجلات وثنايا التواريخ وفى دراسة مؤلفات العباقرة وتقصى رسائلهم واستفتاء شهود حياتهم وتأمل صورهم فى سائر سنى أعمارهم. وقد هداهم البحث المتشعب المضنى إلى مشاهدات نورد فيما يلى موجزها

أخذوا على العباقرة فساداً فى البنية والتركيب فمعظمهم ينشأ شديد التحول شديد النحول. ولقد كان قيصر نحيلاً وكان وهو يتغفل الجمهور ويقلب الجمهورية يتوجس خطراً من جانب كاسيوس لأن وجهه نحيل. كما انه يغلب عليه الشحوب حتى أصبح متعارفاً أن الشحوب لون العظماء. وهم يلفتون النظر بشكل أدمغتهم وفرط صغرها أو كبرها وعدم تناسقها، حتى كان كتاب الفكاهة الأغريق

يشيرون إلى بيركليس بقولهم: (ذو الرأس الشبيه بالبصلة). ولقد أصيب بعض العباقرة بفدع فى أدمغتهم من أثر سقطة أو صدمة كانت سر عبقريتهم. والأمثلة على ذلك جمة: منها أن فالنستين كان فى عداد المأفونين حتى هوى ذات يوم من النافذة. ومن حينها أخذت تظهر فيه قدرة فائقة وأصبح أبرع القواد فى حرب الثلاثين. كما لحظ الفاحصون فى عظمة جماجمهم دروز شتى، إلا إن أمخاخهم تمتاز جميعاً بكثرة التلافيف وعمقها.

ويظل العظماء فى الغالب أعزاباً. ومن تزوج منهم قل أن يرزق ولداً. قال بيكون: (أشرف المساعى وأجل الاعمال صدرت عن رجال لم يعقبوا نسلاً، فهم اذ يعيون بالخلف الصالح من أجسادهم يحرصون على تأدية صور أذهانهم. فالعناية بالأجيال القادمة من الأعقاب يناط معظمها بمن ليست لهم أعقاب) وقال لابريير : (هؤلاء القوم ليس لهم سلف ولا خلف. وهم أنفسهم بمثابة ذرية بعدهم كاملة) ولا متسع هنا لتعداد الأعزاب من العباقرة فنجتزئ منهم بهذا القليل من الفلاسفة: كانت -شوبنهور-ليبنتز-سيبينوزا-ديكارت-لوك-بنتام-هيوم. ومن العلماء: نيوتن-جاليليو-كوبر نيكوس-مالبرنش-دالتون. ومن الكتاب والأدباء والشعراء: فولتير -شاتوبريان-فلوبير-جيبون-ماكولى-كاموينز-ماتزينى-الفيرى. ومن الموسيقيين: بيتهوفن-هاندل مندلسون-ميربير. ومن الفنانين: مايكل انجلو-ليوناردو دافنشى. ومن الساسة: كافور-بت-فوكس.

ويؤثر عن مايكل انجلو قوله: «حسبى بفنى زوجة وأكثر من زوجة». ويقرر فلوبير أنه لا يمكن الجمع بين عروس الخيال والزوجة، وعلى المرء أن يختار بينهما. ويزعم آدم سميث أنه يدخر غزله لكتبه. ويروى عن القديس بولس أنه كان يباهى بالامتناع بتاتاً.

ولا خفاء فى أن لهؤلاء فى هذه الوقفة التى يقفونها عللا تتفاوت اختياراً واضطراراً. فمنهم من أحجم لعدم استقرار الحال به أو لاشفاقه من الشواغل وحرصه على توفير الوقت للانقطاع إلى عمله، ومنهم صاحب الشذوذ الجنسى المتأصل فى طبيعته، ومنهم غير الواثق بقدرته، ثم نعرف منهم واحداً هو كافندش العالم الطبيعى محلل الهواء وكاشف تركيب الماء، كان معدوم الغريزة الجنسية

يستكره النساء وينكرهن.

وبعد هذا ننتقل بالعبقرية إلى منطقة خطيرة إلى شواهد التشنج والصرع: فقد كان مونتسكيو يفحص بقدمه الأرض منفعلاً وهو يؤلف، وكان بوفون والدكتور جونسون يبدو على وجههما تقلص والتواء. ويعانى نابليون الحين بعد الحين رجفة تعاوده فى كتفه اليمنى وشفتيه. وكان سقراط يقفز فى الطرق ويرقص لغير سبب. وغير هؤلاء كثيرون تتقبض ملامحهم ويغشى وجوههم مثل الزوبعة وينبعث من عيونهم مثل البرق وترتعد منهم الفرائص.

وموليير قد كان يعوقه التشنج عن العمل أسبوعين متلاحقين. وكذلك باسكال فى شبابه تعتريه نوبات تلازمه اياماً. وكان الموسيقار باجانينى عرضة للشخوص وتخشب العضلات، ونيوتن وسويفت عرضة للدوار الشديد المؤذن بمرض الصرع. بل هنالك المصروعون بالفعل وبينهم عظيمان حق العظمة: يوليوس قيصر فى التاريخ القديم، ودوستوفسكى القصصى الروسى الذى أجمع المحدثون فى الخافقين على أنه أعظم القصاصين.

وننتهى - بعد التردد الطويل - إلى افراغ جعبتنا بذكر شواهد اختلال الاعصاب والجنون. فقد كان شومان نهبا للسوداء. ولما تقدمت به السن صار يسمع اصواتاً تأتلف الحاناً، بل قطعاً للعزف كاملة. ويخيل إليه أن بيتهوفن ومندلسون يميلان عليه التواليف الموسيقية من وراء اللحد. وقد ظل سنوات عدة فزعاً يخشى أن يودع المستشفيات. وأخيراً القى بنفسه فى عباب الراين فانتشلوه. وكانت وفاته بعد ذلك بعامين فى احدى دور المجانين الخاصة. أما جيراردى نرفال فتتناوبه حالتان من خمود قانط وتهلل مشبوب. وكان يعشق ممثلة اسمها كولون من بعيد ويوالى ارسال باقات الزهر اليها من غير تعارف، ويشترى العديد من مناظير التقريب ليرقبها على المسرح. ولما انقطع أيام الفاقة عن مشاهدة كولون لم تلبث حتى صارت عنده شبه معبود يعيش معها فى تفكيره الصوفى ويخلط طوراً بينها وبين كواكب السماء وتارة بينها وبين القديسات. ولقد رسم على الطرس بعسل الزهر رموزاً تشع من حول عملاقة غريبة الشكل تجمع أوصاف

ديانا والقديسة روزالى والممثلة كولون. وفى ذات يوم كان بشرفة المنزل عند الغروب فاذا به يرى طيفاً ويسمع هاتفاً يناديه، فاندفع من الشرفة وهوى وكادت السقطة تكون القاضية. ولقد تملكه فى أواخر أيامه جنون العظمة فزعم أن له قصوراً منيفة، وزعم أنه من سلالة نيرفا وان علامة أبناء هذه الأسرة الذكور ميسم على شكل خاتم سليمان على صدورهم. وكان أثناء مقامه فى المستشفيات يتوهم أن مدير المستشفى هو المصاب ويقول: «يحسب هذا الرجل أنه المشرف على دار المجانين وهو نفسه المجنون، وانما نتظاهر نحن بالجنون لنبعث به» وختم حياته بأن شنق نفسه على انبوبة بالوعة.

والذين مسهم الجنون غير هؤلاء نفر غير قليل : منهم أوجست كانط صاحب الفلسفة الوضعية فقد قضى عشر سنوات رهن عناية طبيب من أشهر الاخصائين لعهده فى أمراض العقل .

واللورد بيرون وقد استشارت أمرأته الطبيب فى حالته العقلية. والشاعر تاسو الذى اعترف باعراض الجنون فى رسائله ،ومثله القصصى الفنان هوفمان فى يومياته . كما أن كثيرين قضوامجانين أمثال بودلير ،والروائى الامريكى أدجار بووالساخر الارلندى سويفت ونبى القوة نيتشه .

ولنترك الكلمة للكاتب الاديب تشارلس لامب فقد ابتلى فى ريعان صباه باصابة من الجنون وهو داء وراثى فى أسرته.

قال فى رسالته الى كولردج «سوف أقص عليك فى يوم من الايام حديثا ممتعا مفصلا-على قدر ما وعت ذاكراتى - عن الاطوار العجيبة التى لابسها جنونى .وانى احيانا أتلفت ورائى إلى ذلك العهد فى شىء من الحسد والاسف ، لانى طوال مدته كنت أحظى بساعات عديدة من السعادة الخالصة . و لاتحلم ياكولردج انك ذقت كل ما للخيال من روعة متأبدة وجلال باهر مالم تجن . أما أنا فكل شىء يبدو لى الآن تافهاأو شبه تافه »

ومما يزيد فى ارتياعنا أن طائفة كبيرة من العباقرة كان آباؤهم مرضى الأعصاب مجانين أو مجرمين. فكان والد فردريك الأكبر مدمناً وشبه مجنون،

ومثله نجل بطرس الأكبر. وكانت أم بيرون نصف مجنونة، وأبوه يلقبونه جاك بيرون المجنون. وكذلك كانت أخت هيجل وديدور، وأخت لامب وقد قتلت أمها فى احدى النوبات الجنونية. وللعلماء فى اثبات هذا احصاءات مطولة.

هنا نقف، طويلاً، ونعود إلى ما تقدم جمعية بالاستقرار والتدبير.

فماذا يخلص لنا؟ أيخلص لنا فقط من هذا جمعية أن العبقرية قد تتفق ومرض الأعصاب؟

هناك فوق هذا خاطر جرئ يطوف بالأذهان متسائلاً: أترى مرض الأعصاب هو العبقرية!! أترى مرض الأعصاب والعبقرية شئ واحد!!. وقصارانا فى التعقيب أن نقول:

لا مرية فى أن الرجل العادى يعمل ليأكل. فلا بد عند البعض من شذوذ فى الخلقة من شأنه أن يستتبع خروجاً عن هذا الطريق اللاحب المعبد. فالاسكندر أو نابليون لم يفتح الممالك ويدوخ الأمصار ليأكل. وطلاب الاستكشاف والاختراع، ومرتادو المجاهل والساسة وأبطال الانقلابات وناشدو الاصلاح، والساعون فى تحقيق النظريات والفروض، والمعبرون عن مشاعر النفس بشتى الفنون-كل هؤلاء كان لهم عن هذا الكفاح المضنى المجهول العاقبة مندوحة لو كان همهم طلب الأكل من أهون سبيل. ولكنهم يطيعون قوة لا طاقة لهم بمغالبتها ولا اختيار لهم فيها. وليس من شك فى أن هذه النوازع، هذه الاستعدادات النفسية التى تميز العباقرة عن سائر الناس بالابتكار فى أفكارهم وتصوراتهم وغرابة عواطفهم أو حدتها وتفوق مواهبهم الذهنية، انما تصدر عن نفس الحالات العضوية التى تصدر عنها النوبات المعروفة بالجنون. فالعبقرية والجنون سيان فى نشوئهما عن اختلال فى وظائف الأعصاب، وانما الاختلاف فى مقدار هذا الاختلال ونوعه. ومن ثمة كان لا غنى للعبقرية عن الأمراض التى تفعل فى القشرة المخية، فتحدث فيها فرط تنبه يظهر أثره فى الابداع ووفرة الانتاج ومن بين هذه الأمراض ما يكون فى مراكز المخ أصلاً مثل تضخم بعضها تضخماً يقابله ضمور فى المراكز الأخرى، ومنها ما يرد تأثيره المنبه على المخ من حالات التدرن الرئوى ومرض الزهرى مثلاً.

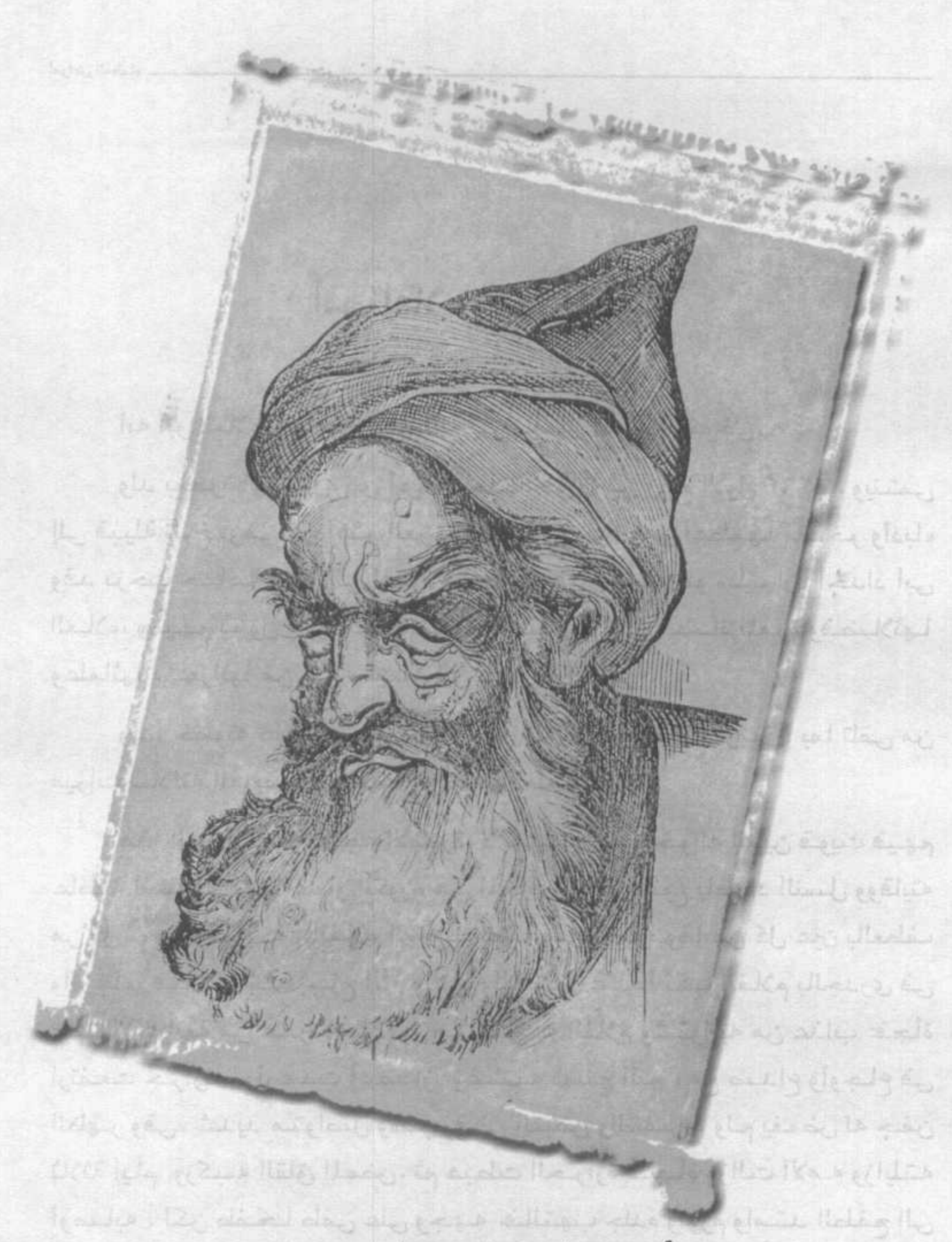
وقد تنبه بعض العباقرة إلى أهمية هذا التنبيه والاحتقان المخى فاحتالوا عليه بمختلف الوسائل المصطنعة. فكان شاعر الالمان شيلر يغط قدميه فى الثلج. ووليم بت وخصمه الألد فوكس من ساسة انجلترا كلاهما لا ينشئ خطبة البرلمان إلا بعد معاقرة الجعة المرة القوية. وكان ملتون ينظم ورأسه منكب على مسند كرسيه. وشيلى يدنى رأسه إلى موقد النار. وروسو يعرضه لوهج الشمس وكان غيرهم يلف رأسه باللفائف أو يدسه بين الحشايا.

وختام القول أنه اذا كان العقل السليم فى الجسم السليم. فان العبقرية النادرة فى البنية المتفززة ولئن كان أحد الفلاسفة من هؤلاء العباقرة قال: «أنا أفكر. إذن أنا أكون». فأن لسان حاله وحالهم اجمعين ليقول: «أنا اتألم. إذن أنا أكون»

المؤلف

أحمد الشنوانى





أبو العلاء المعرى

الشاعر الكفيف الذى قهر الحياة!!

أبو العلاء يقهر الحياة

أنه أبو العلاء، أحمد بن عبدالله بن سليمان المعرى التنوخى.

ولد بمعرة النعمان، من أعمال حلب، فى ٣ من ربيع الأول ٣٦٣هـ. وينتمى إلى قبيلة تنوخ «وهى من أكثر العرب مناقب وحسبا ومن أعظمها مفاخر وأدبا» وقد نزحت جماعة منها إلى المعرة من قديم. فكان منهم بنو سليمان، أجداد أبى العلاء، وفيهم يقول «ابن العديم» مؤرخ حلب: «وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها من بنى سليمان ابن داود بن المطهر».

وبدأ خطوته على الطريق المهيأ لمثله، مرجوا لمستقبل مرموق، بما تلقى من ميراث سلالته العريقة فى الفضل والعزة والعلم والأدب.

هذا الغلام صار بهجة الأسرة، لا سيما امه وأخواله الذين قويت فيهم عاطفة انسانية عليها عمار الكون، هى المحافظة على النوع باطراد النسل ووقايته من كل سوء. ومثل هذا الغلام الوحيد ينشأ مدللاً مرموقاً من كل عين بالعطف والرجاء. فما كان أشد جزع الأم والأب والأقربين عندما نكب الغلام بالجدرى فى مستهل الرابعة من عمره. ويا لهول ما شقى به الغلام وشقوا به من عذاب :فجأة ارتفعت حرارته ،وأرعدت أعضاؤه وغشيه تشنج أليم ، مع صداع وأوجاع فى الظهر وقىء شديد متواصل وسرعة فى النبض والتنفس ، ولم يغمض له جفن ثلاثة أيام ،وركبه القلق الممض. ثم هبطت الحرارة فجأة وزالت آلامه وزايلته أوصابه ، لكن طفحا طفى على وجهه ،فالتهب جلده وتورم وامتد الطفح الى عينيه. وبعد عشرة أيام من ظهور الطفح ، تحول إلى بثور صديدية سببت أكلانا لايطاق وعطشا ذريعا من جفاف الفم والحلق واللسان. وسال الصديد من البثور، وسالت يسرى عينيه وجف الصديد وتناثر قشرا ،وأنفجرت بثرة على العين

اليمنى فأحدثت قرحة أعيى الطبيب علاجها فاستفحل شرها واستعصت على الشفاء أشهرا . ومازال الداء يستشرى ويتوغل فى عينه اليمنى حتى اصيبت «بالاستافيلوما» فجحظت وفقدت الابصار، وأصبح الطفل اعمى فى الخامسة من عمره تقريباً.

وتولى علاجه الأطباء والدجالون فى وقت معاً. فمنعوه من الطعام الا اليسير من السوائل، وحرموا عليه اكل اللحم واللبن والبيض والجبن والسمك لأنها حارة لا تتفق والحمى. وأعملوا المبضع فى جبهته واذنيه فنزف دمه وسقوه منقوع الكزبرة والعدس والعناب. وجعلوه يأكل التين المغسول مع العدس. وفصدوا عرق الانف والباسلق حفظاً للعين، فما نفع. وخضبوا قدميه وكفيه بالحناء والزعفران. وعلقوا على جبهته عين الهر المعدنى وأطلقوا فى حجرته بخور الصندل وفرشوها بالآس وطلوا جسمه بالكافور محلولا بماء الورد. وعزلوه عن الناس أجمعين، ولو لم يعزلوه لفروا منه فرار السليم من الأجرب. ولم ير النور الا من خلال رداء معصفر يحجب عنه جميع الألوان إلا اللون الاحمر - لون الدم -. فشب على كره هذا اللون لاتصاله بذكريات هذا العذاب الرهيب.

ووقر سمعه لحن مختلط النغمات. سمع بكاء أمه ورأى دموعها تنسكب. وسمع نواح الثكالى على أولاد أو أشقاء أودى بهم وباء الجدرى. وأنصت لتطمينات الطبيب وتوكيدات المشعوذين أنه سيبرأ بأذن الله سليماً معافى كما كان، وسمع من العراف والمنجم مثل ذلك ثم تبين له أنهم كذابون دجالون.

نجا الطفل من الموت، لكنه لم ينجح من التشويه. فكف بصره وتراءى للناظرين بشعا: يسرى عينيه غائرة كحفرة، واليمنى ناتئة قد اختلط سوادها ببياضها وتلونت بالدم فى بعض نواحيها، وترك الجدرى نقراً متقاربة فى جلد وجهه. منظر كريه، لابد قد أثار سخرية الصبية من لداته. ولابد ان بعضهم اتخذها مادة للعبث والمجانة. ولابد أن البعض أولاه من أجلها عطفاً خالصاً أو زائفاً. دع عنك هزاله وضعفه، فهذا قدر مشترك بين الناجين من الأوبئة العنيفة.

ودرج منبوذاً أو كالمنبوذ، وأرهف شعور الاسى فيه أنه عالة على الغير فى كل

شئ. يلذعه الناس سراً أو جهراً، صراحة أو تعريضاً. وإذا اشفقوا عليه تبرعوا بالحنان أو تظاهروا به. فانطوى على نفسه وآثر الوحدة مكرها. وأقبل على حفظ دروسة التى حرص أبوه على تلقينه اياها: القرآن والنحو وعلوم اللغة. وادمن النظر فيها فأجال فكره الغض فيما احتواه الكتاب العزيز من قصص وقضايا تتعلق بالكون والإنسان والموت والبعث.

فى بيئة كالمعرة وأسرة كأسرة قاضيها يتزعم قبائل عربية بدوية مسلمة لا يسمحون باختلاط الجنسين. وليس من وسيلة للاختلاط خارج الدار. أمه هى الوحيدة من بنات حواء التى أنس بها وتعلق قلبه بحبها - هى التى حدبت عليه مريضاً وتعذبت من أجله. والآن وقد كف بصره أصبح غير مستطيع أن يملأ منها عينيه كدأبة قبل عماه. وانما مثلها له صوتها الحنون. ومن هنا قوى فيه الميل إلى كل صوت جميل، حزيناً كان أو طروبا. فلا جرم ان استأثرت بكل ما يختلج فى نفسه من ميل طبيعى نحو الجنس الآخر. وانصرف الفتى إلى تحصيل العلم بكلياته فراراً مما يكابده. وقعد من أبيه بمكان التلميذ من الاستاذ. ووهنت علاقة الأب بابنه وحل مكانها ما يشيع بين المتعطش إلى المعرفة وبين الذى يجود بها سحا مدراراً بغير حساب.

الفنون الجميلة هى الوسيلة الكبرى للتعبير عما تجيش به النفس من آلام وآمال، هى احدى الوسائل التى نصور بها مثلنا العليا وأحلامنا، وهى الوقاية من عنت الحقيقة العريانة واستبداد الرغبات والشهوات. وقد رزق هذا الصبى احساساً قوياً، وورث قدرة على قرض الشعر، فقد كان أبوه شاعراً ذهب بحظ غير قليل من الاجادة. ولو لم يكن قد ورث هذه القدرة على القريض وتذوق البارع من الشعر لترجح أن ينصرف إليه. فما من وسيلة تخفف عنه بعض ما به غير الشعر. فليس بدعا أن يقرض الشعر فى الحادية عشرة من عمره، وليس بدعا أن يستوعب القريض حياته الفكرية والعاطفية. لكنه قد ورث كذلك نهما إلى المعرفة، وما عند أبيه منها إلا القليل. ثم هو قد ورث عن أمه شغفاً بالاسفار والتنقل.

فلماذا لا يرحل فى طلب العلم ما دام موفور النعمة ميسوراً. لهذا وجدناه

يشد الرحال إلى حلب يدرس النحو واللغة على تلميذ «خالوية» أحد ندماء سيف الدولة، ويدرس الحديث على «يحيى ابن مصير»، وغيرهما.

بضاعة هؤلاء الحلبيين مأخوذة من الكتب، والتتلمذ فيه شئ من الذلة، وهو قد أصبح لا يطيق اذلال نفسه لأيما انسان. إلى الكتب إذن، إلى استاذ الجميع الذى لا يمن ولا يتفضل. فرحل إلى انطاكية، ثم إلى اللاذقية، ثم إلى طرابلس، يمتار من مكاتبها ما انتجته الحضارة العربية الاسلامية وما نقلته عن الاغارقة والفرس والهنود. وفى هذه البلاد التقى برجال الدين من النصارى واليهود وبعض المتفلسفة منهم، فأخذ عنهم علوم النصرانية واليهودية وثقافة الاغريق على وجه التخصيص، ذلك بأن كان النفوذ البيزنطى قوياً غلاباً فى هذه البلاد بحافظته القوية وعقله الرحب التهم الفتى كل ما انتجته الحضارة العربية الاسلامية من فكر وعلم، وما نقلته وشرحته وزادت عليه من تراث أثينا والهند وفارس. وهنا نستثنى العلوم التجريبية والتى لا غنى فيها عن النظر.

ومات أبوه أثناء تحصيله، فلم يزد حزنه عليه أكثر من حزن التلميذ على أستاذه، فبكاه بدموع الشعراء ورثاه بعبارات التوقير:

فيا ليت شعرى هل يخف وقاره	اذا صار احد فى القيامة كالعهن
وهل يراد الحوض الروى مبادراً	مع الناس أم يخشى الزحام فيستأنى
حجا زاده من جرأة وسماحة	وبعض الحجا يدعو إلى البخل والجبن

أمه ما زالت حية، غنية، وقد خلف له أبوه وقفا يدر عليه ثلاثين ديناراً فى العام، فهو مطمئن على مصيره فى هذه الحياة. لكن الموت الذى وقف على بابه خلال مرضه بالجدرى نبه فيه غريزة الاستطلاع فذهب يتساءل عن مصير الإحياء بعد الحياة.

الروح.؟! ما هى وما كنهها وأين تذهب حين تفارق الجسد، هل تحل فى جسد سواه، هل تبعث معه يوم القيامة، وهل يبعث الجسد؟! وهذا الوجود أخالد هو، والزمان والمكان والعناصر، أقديمة هى أم حادثة وهل لها بداية ونهاية؟!

والعقل ما خطره وهل يوثق به؟! وتلك الخلائق المتناحرة، وأساطيرها ودولها، وما تحب وما تكره، ما وجه الحق عنها؟!

الخلاف مستحكم حول هذه المسائل فيما قرأه هذا الفتى من كتب الدين ومذاهب الفلاسفة آراء المتكلمين والمعتزلة والشيعة واهل السنة ،فبأيهم يأتم ؟ لقد صرفه العمى والتشويه وحب الاستطلاع إلى تحصيل المعرفة ، فأفاد منها متاعا عوض عليه ما تمتع به أقرانه من لذاذات هيأتها لهم العافية والبيئة وظروف الحياة ، فخفف عن نفسه بعض ما اندس فيها من رعب ورهبة وقنوط . رياضة نفسية أشبعت نهمه إلى تحصيل المعرفة ولم تشبع نهمه إلى معرفة الحقيقة ، وخففت عنه بعض ما يكابد ولم تبرئه من كل ما يعانى.

فانقلب الى المعرة وارتمى فى احضان البطالة والفراغ إلا من الروية والفكر عله يبرأ من هذا العذاب المقيم ، فانقضت خمس عشرة سنة وهو بعد كما كان يوم مقدمه - يجهل الحقيقة فيما أشكل عليه ،ولا تبارحه ذكريات الطفولة المعذبة...هو،هو... أعمى مشوه ،اختزن فى قرارة نفسه الرعب والرهبة والقنوط ، وضل فى التيه باحثا عن الحقيقة التى أعيت الناس اجمعين.

هل من سلوى لنفسه القلقة وعقله الحائر المعذب ؟! هل من لذة غير محرمة يعاقرها تعفيه من بعض هذا البلاء؟! هل من منتجع يرتاده عساه أن يظفر بتفسير تلك المعميات؟! لعله فى بغداد واجد عند علمائها وفى مكاتبها ما يتعزى به عما فاته من متع حماها عنه العمى والتشوه، ويطمئن إليه عقله الطموح المشرئب إلى عرفان الحقيقة؟! فرحل إلى بغداد، وبعد عنت بلغها، والتقى بأعلامها، واطلع على مكاتبها، وحضر مجالس المناظرة والجدل فيها وتعرف إلى عظمائها وأقطابها. وقضى هناك قرابة العامين باحثاً عن ضالته. فاذا هو حيث كان، عطشان إلى الحقيقة، لهفان إلى كشفها، كدأبة أول عهده بالتساؤل عن تلك القضايا التى استأثرت بلبه وصرفته عن ذات نفسه.واطلع فى بغداد على الدنيا مصغرة، فراعه صراع المطامع واطراد الآثام، وانكر نفاق السوقة والصفوة من ناسها واسفاف مقاصدهم وتعاكس الاغراض.

فلم يطب له المقام ببغداد، على كثرة ما حباه به أهلها من تعظيم واجلال وعرضوه عليه من مال والطاف، وألح عليه الحنين ففكر فى العودة إلى مسقط رأسه، وعرض عزلته بها على أصدقاء لا يتهم ولاؤهم، فأقروه. واجتمع إلى هذا الحنين القهرى إلى المعرة، حنين خالص إلى أمه-أمه التى بلغه انها مريضة. انه ليفر من الفردوس إليها، فكيف وبغداد جحيم لا يطاق، فالنجاء النجاء من عذابها، إلى المعرة كرة أخرى. فربما وجد فى القرب من أمه تعلة وبين أحضانها عزاء من هذه البرحاء...لكن أمه ماتت وهو فى طريقه إلى المعرة، ووقعت الكارثة الكبرى وختمت المأساة بغتة. فذهل وألح عليه الرعب والرهبة والقنوط، لقد فقد المخلوقة التى أحبته ملء السمع والبصر والفؤاد، وبادلها حباً بحب، حبا صادقاً لا يشوبه هوى أو منفعة. لقد أنبتت الصلة الوحيدة التى تربطه بأبناء هذه الحياة فعاد وحيداً.

من الناس أفذاذ تغنيهم عن لقاء الأحباء وايناسهم وردة جافة يحتفظون بها، أو خصلة من الشعر يقدسونها، أو كلمات عذبة يتبلغون بها طوال الحياة. وقد كان المعرى من هذا الطراز، فارتد إلى الذكريات التى حببت إليه أمه وحببته إليها. ارتد إلى ذكريات مرضه بالجدرى فأحياها عاش بقية عمره نفس الحياة التى كابدها فى مرضه، فى الدار التى أنس فيها بأمه، نباتيا يفرق من الدم، ويأكل العدس والتين، ويذم ذبح الحيوان والانسان جميعاً، زاهداً فى متع الحياة عيوفا عن عبثها منعزلا فى بيته اسوان، برم بالخليقة يقترح العدم علاجا لها.ويخفف لوعة حزنه على أمه وعلى حياته وعلى الناس بقرض الشعر من طراز لم يسبقه إليه أحد، الشعر الذى أتى فيه «بما لم تستطيعه الأوائل». ووجد هذا الرجل المنكوب سلوى فى الشعر يصوغه من دمه وتجاربه وأفكاره، ويبدعه من آلامه وأشجانه، وجعله مجالاً لما يجيش به قلبه الموجع وعقله القلق، وضمنه أسمى ما يرتفع إليه الذهن وتحسه النفس النبيلة، وأودعه جماع ما حصل وجرب وأفاد.

وفى اعتداد وأصرار صمم على أن يتحدى محنته ويشق سبيله لا يعوقه فقد البصر، ويلغ المدى فى مكابرته، فرأى فى صباه يلعب النرد والشطرنج ويأخذ فى فنون الجد واللهو كما يفعل لذاته المبصرون !

وبدأ كأن الدنيا لا تتسع له، لفرط طموحه واعتداده بمواهبه:

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم ... باخفاء شمس ضوؤها متكامل

يهم الليالى بعض ما آن مضمر ... ويثعل رضوى دون ما أنا حامل

وإنى وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

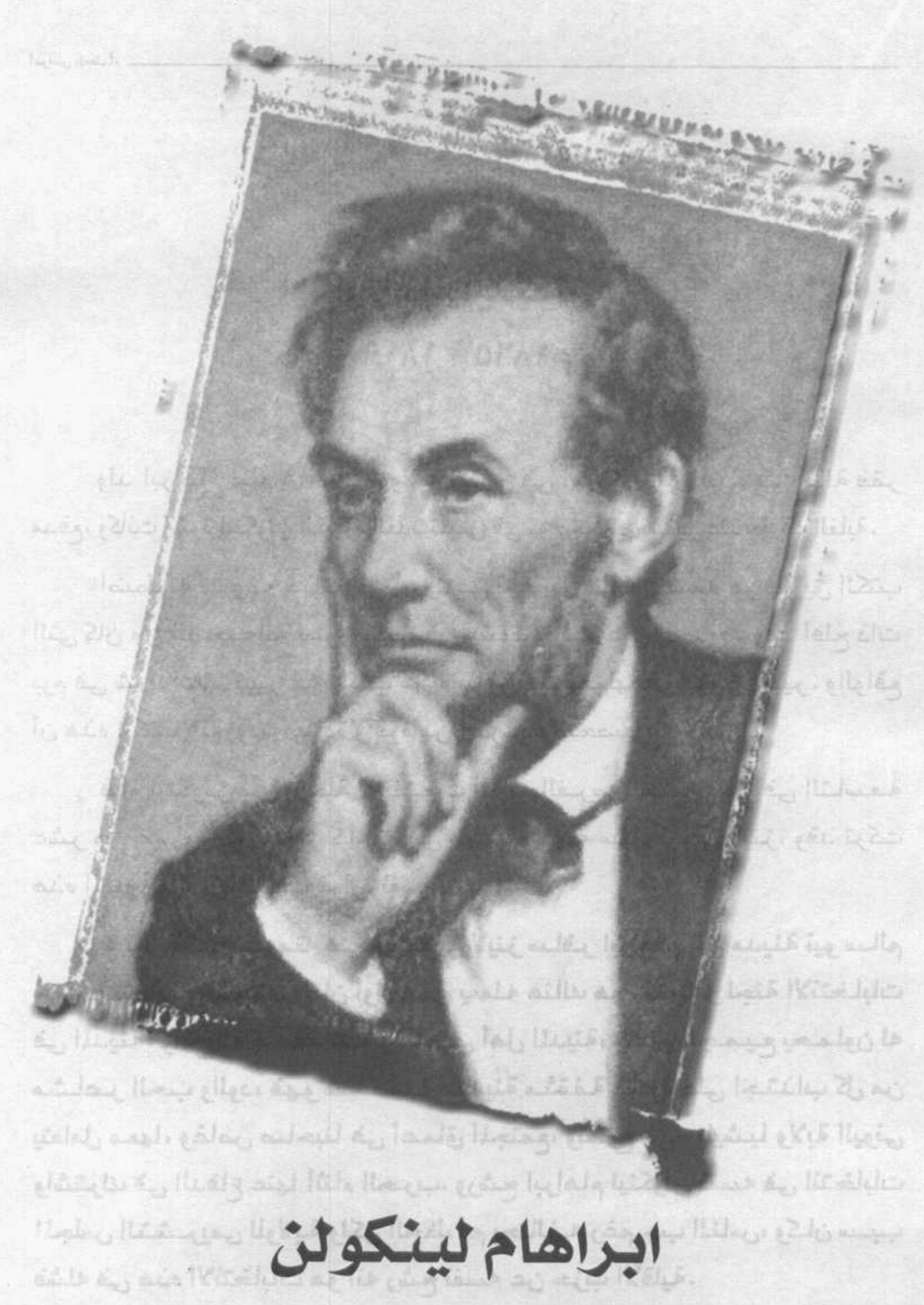
« سقط الزند »

وأملى له القدر حيناً، فمضى فى شبيبته على غلوائه، يبهر أهل بلده بنادر ذكائه وسعة علمه ومواتاة شاعريته، ويسرف فى أخذ نفسه بالتفتح للدنيا والاقبال على الحياة مع الولع بالعلم والجد فى طلبه.

وما كان فى لطف حسه وصفاء وجدانه وعجيب فطنته، بحيث يغيب عنه عقم هذه المكابرة فى تحدى محنته ومعاندة قدره، وقد أفلتت منه فى ذلك العهد ، ومضات كاشفة عن عالمه النفسى المجهد بالصراع بين شد الطموح وعجز الوسيلة، بين ارادة الحياة وخيبة الرجاء.

وبعد ..فإن يكن أبو العلاء قد امتحن بعمى البصر، فقد بقى له نور البصيرة.وإن يكن قد عاش فى سجن موصد، فقد أرهفت العزلة وجدانه، ومنحته صفاء الذهن ووضوح الرؤية، فكان البصير الذى خبر الدنيا كما لم يخبرها الغارقون إلى أذقانهم فى خضمها، المعتزل الذى خاض معركة الحياة كما لم يخضها الضاربون فى غمارها.

وإلى آخر عمره، ظل يخوض معركته الشريفة الباسلة فى مجاهدة شغفه بالدنيا وتعلقه بها، وفى رفض الظلم والبغى والتضليل والأثر والنفاق.



ابراهام لينكولن

رمز الديمقراطية الأمريكية والذى علم نفسه بنفسه

ابراهام لينكولن
١٨٠٩ - ١٨٦٥م

ولد ابراهام عام ١٨٠٩ فى ولاية كنتكي فى أمريكا وكان أبواه فى حالة فقر مدقع، وكانت أسرة لينكولن الكثيرة العدد تعيش فى كوخ خشبى صغير عند طرف الغابة.

اضطرته ظروف حياته إلى أن يتولى تحصيل علمه بنفسه عن طريق الكتب التى كان من الصعب الحصول عليها فى منطقة نائية على الحدود. وقد أفلح ذات يوم فى شراء عدد كبير من الكتب من مسافر كان يحملها فى برميل كبير. والواقع أن هذه الكتب قد زودته بمادة وافرة من الدرس والتحصيل.

قام لينكولن بأول رحلة له فتحت أبواب الفرص أمامه وهو فى التاسعة عشر من عمره، حين سافر كأجير فى مركب وجهته ميناء نيوأورلاينز، وقد تركت هذه المغامرة آثراً بالغاً فى قرارة نفسه.

● بعد انتهاء مهمته فى مدينة أورلاينز سافر ابراهام إلى مدينة نيو سالم حتى يستقل فى حياته، وكان أول عمل يعمله هناك هو سكرتير لجنة الانتخابات فى المدينة: وأتاح له عمله التعرف على أهل المدينة، وكان الجميع يحملون له مشاعر الحب والود، فهو شخصية متدينة مثقفة قادرة على اجتذاب كل من يتعامل معها، وغاص صاحبنا فى أعماق المجتمع، وتطوع فى ميليشيا ولاية اليونى واشترك فى الدفاع عنها أثناء الحرب، ورشح ابراهام لينكولن نفسه فى انتخابات المجلس التشريعى للولاية ولكن الحظ لم يحالفه رغم حب الناس، وكان سبب فشله فى هذه الانتخابات هو أنه رشح نفسه عن حزب الأقلية.

● وبعد تجربة الانتخابات هذه التحق ابراهام بهيئة بريد مدينة نيوسالم وعمل مديراً لمكتب البريد رغم افتقاره للرشاقة فى الحركة والتعبير، بالإضافة إلى طول قامته ودمامة مظهره، وكعادته كان يحب عمله ويجيده مما دفع المتعاملين معه إلى الإعجاب بشخصيته وأخلاقه، ومن ثم تعرف على عدة شخصيات كبيرة حاولت أن تخدمه بقدر استطاعتها، من هذه الشخصيات السيد منتور جرهام الذى أعطى ابراهام دروساً فى قواعد وآداب اللغة الانجليزية، والسيد جون ستيوارت الذى ساعد ابراهام فى تحقيق حلمه الكبير فى دراسة القانون حتى أصبح عضوا فى نقابة المحامين، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره.

● وتفتحت كل الأبواب أمام ابراهام، فبعد دراسته للقانون ونجاحه فى أن يكون محامياً، رشح نفسه مرة ثانية فى انتخابات المجلس التشريعى وأصبح عضواً فيه، وهكذا لم يستسلم صاحبنا لليأس أو الفشل بل كان يعتد بنفسه ويثق فى مواهبه واستعداده، ثم يعمل ويعمل لتحقيق ما يريد.

● كان ابراهام يقرأ فى الانجيل دائماً ويعظ الناس، ويحول التعاليم الدينية الجميلة إلى سلوك شخصى، فهو يكره الظلم ويحب العدالة، ويزهد فى المال والجاه، ويعطف على الفقراء ولا يؤمن بالرق، بل أنه تزعم الحركة التى تدعو لإلغاء الرق فى وقت كان العبيد يباعون فى الأسواق، وكان من الطبيعى أن تملك الأسر عبيداً تستعبدهم وتسخرهم فى أشق وأحط الأعمال، وكان العبد إذا تزوج فإنه يتزوج ليصبح أبنائه وبناته عبيداً لسيده، أما زوجته فلسيده أو أبناء سيده كى يستمتعوا بها كامرأة كيفما شاؤا.

● وجد ابراهام فى عمله كمحامى فرصة للدفاع عن الحق والوقوف بجانب المظلوم، وتطبيق التعاليم الدينية، واشباع حبه للعدالة والإنسانية، وفى هذا يقول:

« .. المحامى الشريف لا يجعل جمع المال نصب عينيه، إذ أن أعظم أجر يتقاضاه المحامى الحر هو انتصاره فى قضية ترافع فيها عن متهم برئ، أو فقير مظلوم أو يتيم أو أرملة أرجع إليهم جميعاً حقوقهم المهضومة، أما جمع المال فهو هدف التاجر، وهناك فروق بين التجارة المحاماه..»

● التف أصحاب القضايا والمظلومين حول ابراهام لنكولن المحامى وترافع عن المظلومين فى آلاف القضايا، ومع ذلك كان فقيراً غارقاً فى الديون وكان يمكنه أن يصيب ثروة طائلة من عمله لكن حبه للناس دفعه إلى الدفاع عنهم بأقل أجر، بل كان كثيراً ما يرفض أن يتقاضى أتعاباً من الفقراء، ويدفع لهم ن ماله القليل الرسوم القضائية المطلوبة.

● كان من الطبيعى أن ينجح ابراهام لنكولن فى انتخابات الرئاسة بعد أن رشح نفسه عن الحزب الجمهورى، فقد عرف عنه نزاهته ووطنيته ، وايمانه بالله، والتف الناس حوله وأحبوه وانتخبوه عام ١٨٦١ رئيساً للولايات المتحدة الامريكية، فكان الرئيس السادس عشر لها، ولم تتغير شخصيته بعد أن فاز بالرئاسة، بل ظل كما هو بسيطاً متواضعاً يصافح الناس فى الشوارع ويفتح باب داره بنفسه للضيوف بل يفتح قلبه لهم أيضاً ويذهد فى المال، ويهتم بتعاليم الدين وكانت بساطته هذه تثير غيظ زوجته الارستقراطية، ولكنه لم يهتم بتعليقاتها، وكانت أول زيارة قام بها بعد توليه الرئاسة هى زيارته لزوجة أبيه السيدة سارة بوش التى ساهمت بقسط وافر فى تربيته وإعداده لهذا المستقبل المشرق، كان وفاء منه لها أن يزورها فى بيتها، وقد اقترحت زوجته أن يبعث لها مندوباً ليحضرها معززة مكرمة إلى البيت الأبيض، لكنه رفض وذهب إليها بنفسه محتملاً ظروف الطقس السيئة فى ذلك اليوم، وعدم وجود مواصلات مما اضطره إلى ركوب قطار بضاعة، وذهب إليها وقبل يديها وتناول العشاء معها اعترافاً منه بجميلها عليه واحترامه لها.

● على الرغم، من المدة القصيرة التى رأس فيها ابراهام لنكولن اولايات المتحدة الأمريكية، والتى لم تزد عن خمس سنوات (١٨٦١ إلى ١٨٦٥) إلا انها تركت بصمة واضحة فى تاريخ الولايات المتحدة ومستقبلها، فقد كان ابراهام لنكولن أول من ناد بحرية الصحافة لأنها خير ضمان لحرية الأمة، وهو أول من وضع المبادئ الإنسانية السامية فى الدستور الأمريكى، وهو الرجل الشجاع الذى حارب الرق وألغاه على الرغم من الصعوبات الكثيرة التى قابلها من أجل ذلك، وفى هذا قال: «إن اباحة الرقيق أمر ينافى أبسط المبادئ الإنسانية وهو كفر بالله

وبتعاليم الكتاب المقدس، فقد ولد الناس أحراراً فكيف تجعلونهم أرقاء..»

● غير أن القضية التى كرس ابراهام لنكولن لها حياته وجهده كانت قضية اتحاد الولايات المتحدة، فقد آمن بضرورة هذا الاتحاد، وذلك لعدة أسباب طبيعية هى تجانس سكان الولايات، ووحدة البلاد الطبيعية، سواء فى سواحلها، أو أنهارها، أو جبالها، أو فى وحدة اللغة، والمستقبل المشرق الذى ينتظر الولايات المتحدة تحت هذا الاتحاد ومن أجل هذا الاتحاد خاض ابراهام حرباً مريرة وهو رجل السلام والمبادئ، وفى هذا قال:

«لقد بذلت كل ما فى وسعى لإنقاذ الاتحاد، دون نشوب حرب، ولكن عملاء التمرد والانفصال كرسوا كل جهودهم للقضاء على الاتحاد دون حرب أيضاً، وأخيراً فضلوا اشعال نار الحرب على صيانة الأمة، بينما فضلت قيام الحرب على فناء الأمة التى كان ستفنى حتماً دون اتحاد..»

● وقامت الحرب بين ولايات الشمال وولايات الجنوب، وما كان الشمال والجنوب متعادلين فى القوة، كان عدد سكان الولايات الموالية الأثنتين والعشرين حوالى عشرين مليوناً، وسكان الولايات المنشقة الإحدى عشر ستة ملايين تقريباً، فيما عدا العبيد، وكانت صناعة الشمال وموارده، وقوته البشرية تفوق كثيراً ما للجنوب، ولكن الجنوب فى نفس الوقت كان يتمتع بروح عسكرية قتالية عالية..كان الجنوب يحارب من أجل حق كل ولاية فى الإنفصال والاستقلال، بينما رأى الشمال أنه ليس من حق الأقلية تحطيم الحكومة حين تشاء.وأخيراً انتصر الشمال على الجنوب، وكان الانتصار هو انتصار لفكر ابراهام لينكولن الوحدوى من أجل بقاء الولايات المتحدة متحدة دائمه وقوية، ومن أجل تحرير العبيد أيضاً.

● لم يستطع ابراهام لينكولن أن يتمتع بانتصاره، فقد انتهت حياته بعد ذلك بقليل، وكانت نهاية مأساوية إذ بينما كان يشاهد مسرحية «ابن عمى الأمريكى» على مسرح فورد مع زوجته أطلق عليه ممثل مجنون موتور يدعى جون بوث الرصاص فظل فى غيبوبة حتى فارق الحياة، ومن عجب أن ابراهام شاهد حادث

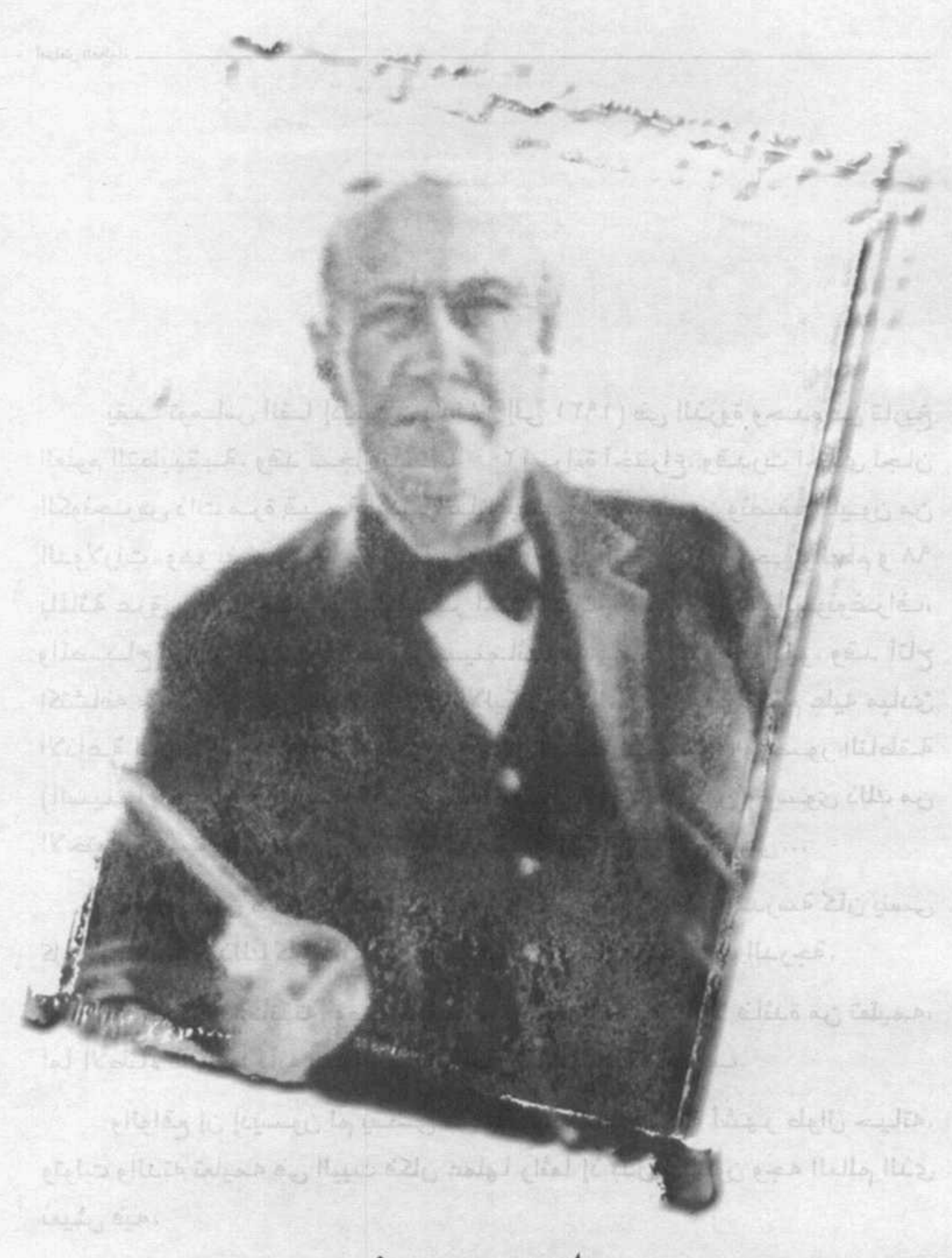
وفاته فى الحلم قبل أيام من الحادث وحكى لزوجته الحلم ولكنها حاولت أن تنسيه رغم خوفها وتشاؤمها منه.

● هذه قصة حياة عبقرى فذ هو ابراهام لينكولن، عاش ستة وخمسين عاماً من ١٨٠٩ إلى ١٨٦٥، ولم يعش لنفسه وحسب، وإنما عاش لوطنه.

*****

وهكذا مات واحد من كبار الرؤساء الأمريكيين الذين أوصلوا الولايات المتحدة الأمريكية إلى ما هى عليه اليوم من تقدم وازدها.

*****



اديســون

المخترع العظيم الذى انتفع بصممه!!

إديسُــون

يقف تومـاس ألفـا إديسـون (١٨٤٧ إلى ١٩٣١) فى الذروة وحـده فى تـاريخ العلوم التطبيقـيـة. وقد سـجل بأسـمـه ١٢٠٠ براءة أختراع، وقـدرت احدى لجـان الكونجـرس ذات مـرة قـيـمـة اخـتـراعـاته بمبلغ ١٥٠٠ مليـون ونصف المليـون من الدولارات. وهو يفـسـر نجاحـه وشـهـرته كمـا يلى: «أثنان بالمائة وحى والهـام و ٩٨ بالمائـة عـرق وجـد وجـهـد!» ومن أشـهـر اخـتـراعـاته الألة الكاتبـة، والفـونوغـراف، والمصـبـاح الكهـربائى، وألة تصـوير سـينمـائيـة، وجـهـاز لاقط للراديو. وقـد أتاح اكتشافه مـفعول إديسون صنع الأنبوب الإليكترونى الحديث الذى تقـوم عليه مبادئ الإذاعـة اللاسلكيـة (الـراديو) والتليـفـون على مـسـافـات طويلة، والصـور الناطقـة (السـينمـا)، والعين الكهـربائيـة، والاشـعـة المجـعـولـة (أشـعـة يكس)، وسـوى ذلك من الاختراعات..وقد عمل فى أواخر حياته فى إنتاج المطاط الصناعى...

كـان إديسون ضـعـيف الذاكرة لا سيمـا فى شـبـابه.. ففى المدرسـة كـان ينسـى كل ما يتعلمه، ولذلك كان دائماً يأتى فى مؤخرة زملائه من حيث الدرجة.

ويأس منه اسـاتذته، وصـرحـوا بأنه خفيف العقل أبله، لا فـائدة من تعليـمـه، أما الأطباء فتكهنوا بأنه مصاب بمس، نظراً لشكل رأسه الغريب.

والواقـع إن إديسـون لم يقضـى فى المدرسـة سـوى ثلاثة أشـهـر طوال حـيـاته، وتولت والدته تعليمـه فى البيت فكان عملهـا رائعاً إذ بدل إديسون وجـه العالم الذى نعيش فيه.

وازدادت ذاكرة إديسون قوة على مر الأيام لا سيما فى الشئون العلمية، فكان يحفظ عن ظهـر قلب كل الحـقـائق العلميـة التى تزخـر بهـا المجلدات الضـخـمـة فى

مكتبته الخاصة. وكان ذا قدرة على حصر تفكيره فى الموضوع الذى يشغله من دون سواه. وذات يوم وكان منهمكاً فى حل معضلة علمية-أضطر إلى الذهاب إلى المحكمة ليؤدى ما عليه من ضرائب، ولبث وقتاً قصير فى (الصف) منتظراً دوره، فلما جاء دوره لم يتذكر أسمه.ولحظ أحد الواقفين بجانبه ارتباكه، فذكره بأنه أسمه توماس إديسون.

وقد صرح وقتئذ بأنه لم يكن ليستطيع تذكر أسمه حتى لو كانت حياته معلقة على ذلك.

وقد أصيب بالصمم منذ كان فى الثانية عشر. وهاهو ذا يحدثك عن صممه لتعرف كيف انتفع بنكبته. قال:

«أظن أن العلة لأولى فيما أصابنى من صمم هو ان عمال القاطرات كانو يحملوننى إليها من أذنى. فقد كنت أشتغل ببيع الجرائد فى القطار فكان يتناولنى العامل عند العجلة ويحملنى من أذنى إليه وبدأ الصمم خفيفاً ثم أخذ يتزايد بل هو يتزايد الآن وأنا فى التاسعة والسبعين.

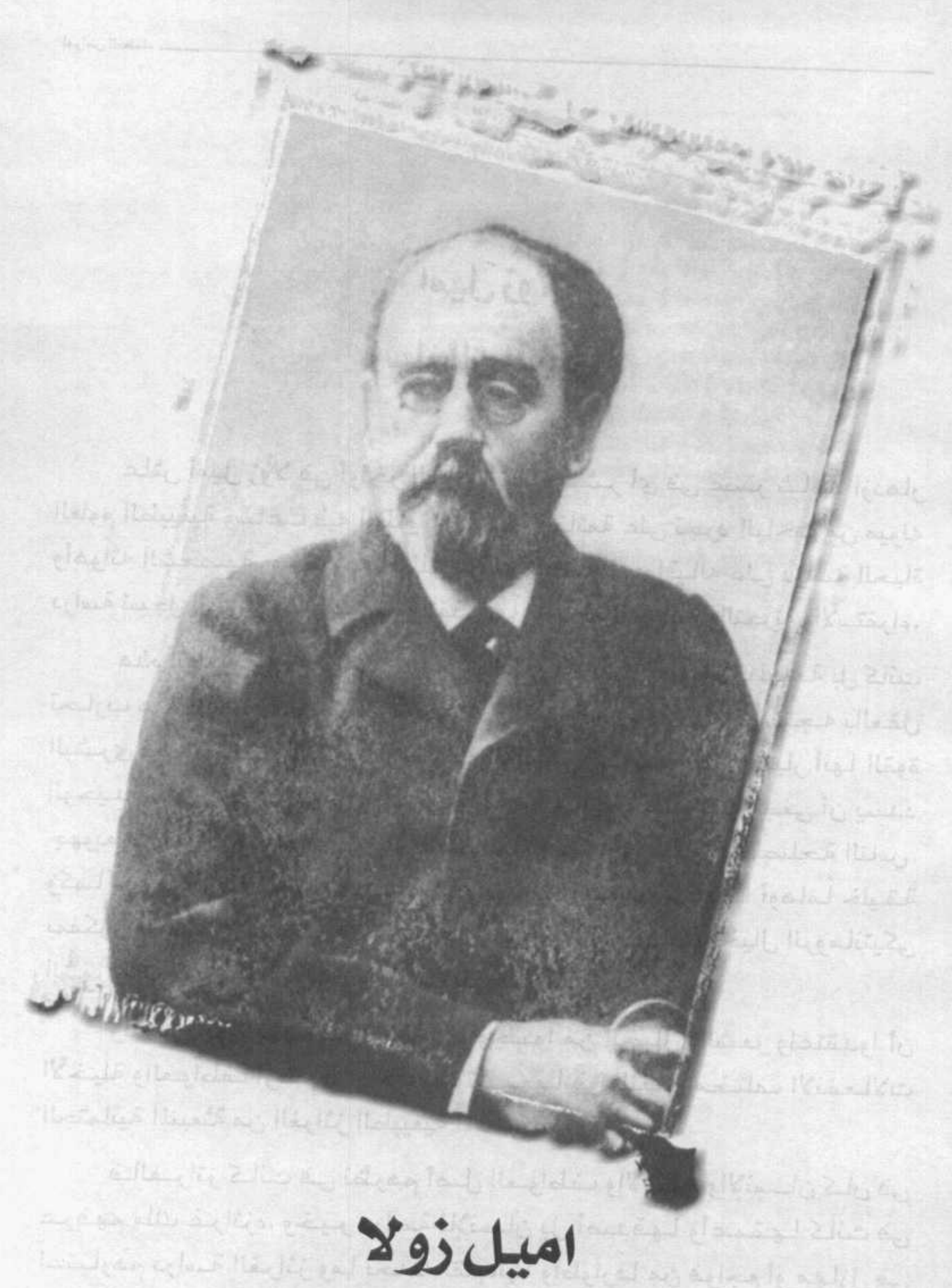
وقد كان الصمم نعمة علىّ . فإنه منع عنى التمتع بحديث الناس فانكفأت إلى الكتب أقرأ وأدرس حتى حزقت أشياء كانت الباعث الأولى لى فى اختراع مخترعاتى. وأنا الآن أكتب بلا رعشة مع تقدمى فى السن ولا سبب لذلك فى اعتقادى إلا إن أعصابى لم تبل من الضوضاء الكثيرة التى يعانى سماعها الناس فى أيامنا هذه والحقيقة أن ضوضاء المدن تفيض على مقدرة احتمال الآذان. فنحن نعرف مثلاً أن الطوبجى يسد أذنيه عندما يريد أن يطلق القنبلة من المدفع. وفى المدن الآن من ضوضاء الاوتوموبيلات والطيارات وغيرها ما يجعل الناس يودون أن يسدوا آذانهم. بل منهم من يبنى نوافذ مزدوجة لمنع تسرب ضوضاء الشوارع إلى البيوت. وكثيرون مما يعانون سماع هذه الضوضاء تتوتر أعصابهم بل تبلى وهم بعد لم يبلغوا الشيخوخة. أما أنا فإنى أدخل نيويورك وأحسب أنها مكان هادئ.

واعتقادى أن الأصم ليس فى حاجة إلى أحاديث الناس التافهة فإن فى

الجرائد والمجلات ما يغنيه عنها. بل أن لأصم يعتبر الآن فى عالمنا هذا ممتازاً على غيره. فقد أفادنى الصمم فى اختراع الفنوغراف وتتميم اختراع التليفون فإنه لما كنت لا أسمع سوى الصوت العالى صرت أجتهد فى رفع صوت هاتين الآلتين. ثم إن الصمم يمنع عنى تشويش الضوضاء فأستطيع بذلك تمييز الأصوات الدقيقة عندما أضع الآلة على أذنى.

ومما أفادنى صممى به إنى لا أشافه الناس الذين يتعاقدون معى فى الأعمال.

فكل وعد يعدونى به يكتبونه فيبقى ذلك حجة عليهم تمنع الارتباك والخلاف فى المستقبل. وأيضاً استفدت فائدة كبرى وقت خطبتى لزوجتى. فقد كنا يقترب الواحد منا للآخر لكى تسمعنى ما تريد. ثم علمتها بعد ذلك قاعدة مورس فى التلغراف فصرنا نتخاطب بهذه القاعدة وعندما حانت الفرصة وطلبت منها يديها بالتلغراف أجابتنى بنعم وهى بعيدة. ولعلها لو كانت قريبة وكانت واسطة التفاهم بيننا الكلام لكانت استحت أن تجيبنى. وكثيراً ما نذهب إلى دار التمثيل فتضع يديها على ساقى وتخبرنى بقاعدة مورس عن العبارات التى يفوتنى سماعها وبعد فإن كل فروع التربية يمكن تعلمها عن سبيل الكتب والسينماتوغراف وكلاهما فى متناول الأصم. فإنى لا أشك فى منفعة الفونوغراف ودوام حاجة الناس له ولكن يجب أن أقول السينماتوغراف أنفع جداً للناس منه.»



اميل زولا

الروائى الفرنسى العصبى المزاج!!

اميل زولا
سلطان العقل

عاش أميل زولا فى أواخر القرن التاسع عشر أى فى عصر شاهد ازدهار العلوم الطبيعية وشاعت فيه الطريقة العلمية القائمة على تجرد الباحث من ميوله وأهوائه الشخصية. وخضوعه المطلق للواقع المحسوس، وإقباله على دراسة الحياة دراسة تسجل الظواهر على علاتها، وتنفذ إليها بواسطة الملاحظة والتجربة والاستقراء.

هذه الطريقة العلمية لم تدع أى سلطان لبحوث ما وراء الطبيعة بل كانت تحارب هذه البحوث، وتخشى منها على الفكر الحر، وتحاول أن تتجه بالعقل البشرى نحو الحقائق الملموسة ومعالجة الظواهر الطبيعية على اعتبار أنها القوة الوحيدة التى يشعر الإنسان بأثارها فى حياته اليومية، والتى ينبغى أن يسدد جهوده لدراستها وفحصها، بغية كشف الستر عنها، وتسخيرها لمصلحة الناس. وكما حارب هذا الاتجاه العلمى بحوث ما وراء الطبيعة وعدها أوهاماً خليقة بمفكرى العصور الوسطى، فقد تبرم بالشعر أيضاً أو بتسلط الخيال الرومانتيكى الشعرى الجامح على الأدب ولا سيما على فن القصة.

وهكذا تأثر القصصيون بالعلم. وأوجسوا من الخيال والشعر واعتقدوا أن الأخيلة والعواطف أوهام غادرة لذيذة تشيعها فى النفس مختلف الانفعالات الجثمانية المنبعثة من الغرائز الطبيعية المشتركة.

فالغرائز كانت فى نظرهم أصل العواطف والأفكار، والإنسان كان فى عرفهم ملك غرائزه، وخير دراسة للإنسان بل أصدقها وأعمقها كانت فى اعتبارهم دراسة الغرائز وما تحدثه تقلباتها وأطوارها من فواجع أو مهازل فى حياة الفرد والمجموع.

أبصر الروائى الفرنسى اميل ادوار شارل انطوان زولا النور فى باريس سنة ١٨٤٠. لم يستطع اتمام دراسته فى كلية سان لوى التى غادرها سنة ١٨٦٠. وعمل كاتباً فى إحدى البيوتات التجارية، ثم أنصرف إلى الكتابة والتأليف، وعاش ردحاً من الزمن فى فقر مدقع. وكانت تربطه ببول سيزان صداقة متينة. وجد عملاً فى إحدى دور النشر فاستعان به على العيش. وكانت مقالاته فى الأدب والفن، وروايته الأولى تيريز راكان قد بدأت تلفت إليه الأنظار. ثم بدأ سلسلته التى تتألف من حوالى ٢٠ رواية تدور حول أسرة روجون - ماكار التى ابتدعها، ودرس فيها فترة لا بأس بها من التاريخ الفرنسى. إلا أن العدد الكبير من هذه الكتب لم يلقى الرواج المنتظر، ولم ترسخ شهرة زولا كروائى إلا بعد إصداره رواية النبوت التى عالج فيها مشكلة الشراب . وما كاد نجمه يرتفع حتى راحت الروابط بينه وبين سيزان تتلاشى. وأصدر نانا والنكبة، اللتين بيع منهما أكثر مما بيع من سابقتهما. وقرأ سيزان رواية زولا العمل فرأى فيها نفسه، فانقطع عن رؤيته. وفضلاً عن ذلك يتألف إنتاج زولا الأدبى من سلسلة قصصية عن المدن وحياتها، وبعض الروايات التى يبشر فيها بأنجيله الإجتماعى، ومجلد من الروايات المسرحية، وعدد من المجلدات فى النقد، وبعض القصص القصيرة. وكانت حفلاته تضم رجال الأدب والفن.

وقد مثل زولا دوراً كبيراً فى قضية دريفوس الشهيرة التى أدى دفاعه فيها إلى استدعائه للمحاكمة. فرحل إلى انجلترا ولم يعد منها إلا بعد صدور العفو عن كل الذين لهم علاقة بالقضية. وتتلخص هذه القضية بما يلى:

ألفريد دريفوس (١٨٥٩ - ١٩٣٥) جندى فرنسى أصاب شهرة لأنه ذهب ضحية خطأ قضائى أثار صدى عميقاً فى مختلف أرجاء المعمور. نال رتبة كابتن فى الجيش الفرنسى سنة ١٨٨٩. وفى سنة ١٨٩٤ وقع بيد السلطات رسالة غفل من التوقيع تفيد أن ضابطاً فرنسياً يخون وطنه. فأتهم دريفوس لأن الخط كان شديد الشبه بخطه. ودافع عن برائته كثيراً ولكنه وجُد مذنباً، ونفى إلى جزيرة الشيطان سنة ١٨٩٥.

واتفق أن اكتشف أحد المسئولين فى وزارة الحربية أن كاتب هذه الرسالة هو ضابط برتبة ميجور يدعى أشتر هازى، كان مثقلاً بالديون. فلم تتحمس الحكومة للإقرار بخطئها وإعادة المحاكمة. وفى هذه الأثناء جرت محاولات عديدة لتبرئة ساحة دريفوس المسكين يتوجها جميعاً كتاب مفتوح أرسله الروائى اميل زولا إلى رئيس الجمهورية بعنوان (إنى أتهم). وقد أطلق صراح دريفوس سنة ١٨٩٩، ولكن شرفه لم يرد إليه إلا سنة ١٩٠٦ وخلال الحرب العالمية الأولى عاد فانخرط فى الجيش الفرنسى، وحاذ رتبة ليوتنان كولونيل ووسام جوقة الشرف. وقد توفى فى باريس فى ١٢ تموز سنة ١٩٣٥.

أصبح زولا فارساً فى جوقة الشرف سنة ١٨٨٨ ثم ضابطاً سنة ١٨٩٣. إلا إن اسمه شطب من بعد المشكلة التى خلقتها قضية دريفوس ورشح نفسه لعضوية الأكاديية الفرنسية مراراً فكان يرفض قبوله. وقد توفى فى نزله الباريسى مختنقاً بالغاز بسبب عطل فى الأنبوب (وكان فى حجرة نومه) فى ٢٩ أيلول سنة ١٩٠٢ ولما بلغ سيزان نبأ وفاته بكى طويلاً. وانزوى فى محترفه طوال يوم كامل.

عرف اميل زولا بشرود زهنه عدة أسابيع..حتى انه كان لا يكلم أحداً خلالها، ولا يسمح لأحد أن يزوره أو يكلمه. وفى خلال هذه الفترة التى تلازمه، كان زولا يكتب أروع آثاره الأدبية التى خلدته. وكان يحرص على غلق النوافذ وإسدال الستائر عليها لأن وميض الشمس كان يعوقه عن الكتابة.

كان اميل زولا مصاباً بمرض عصبى اضطرابى، فكان لا يرتاح باله إلا إذا قام بعّد مصابيح الشوارع ونوافذها وأبوابها وكان يستبشر بالرقم ٣ وترتعد فرائصه خوفاً إذا ما صادف الرقم ١٧، إذ كان هذا الرقم فى اعتقاده نزير الكارثة. ومن غرائب أطواره أنه كان شديد العناية بحاسة الشم فقد كان يغلق باب غرفته ويقضى ساعات كاملة يحاول فيها أن يكتشف بحاسة شمه ألوان الطعام التى تطهى فى المطبخ من رائحتها.

حالة زولا هى اذن تسلط وسواس وأفعال ثبتت فى ذهنه فلم يستطع التخلص منها بأية عملية شعورية، افكار وأفعال هى من وجهة نظر العقل

الشعورى-لا دخل للمنطق أو التعقل فيها، ومن حيث الحياة العملية واضح أنها غير مطلوبة أو مرغوب فيها. ويعانى تسلط الأفكار والأفعال الناس جميعاً سواء السوى والمريض، ولكن التسلط لا يصبح أمراً عادياً إلا عندما لا يؤثر بدرجة كبيرة فى كفاية آداء الوظائف العقلية للفرد، بمعنى ألا يكون لفترة طويلة، وتأثيره فى سلامة التفكير تأثيراً جزئياً-تأثير يقل أو يزول بعد فترة قصيرة أو طويلة من الزمن فيتركز الاهتمام على أشياء أخرى.

*****



بشار بن برد

الشاعر الضرير النابغة!!

بشار بن برد

شاعر فحل من أصل فارسى ولد مكفوفاً وعاش بين العصرين العباسى والأموى ويعتبر من أشهر شعراء هذين العصرين وأجذلهم شعراً باجماع الرواة إلا أن شعره غلب عليه المجون الفاضح والكلمات البذيئة وكان له أعداء كثيرون بسبب هجومه لهم وقد أتهم بالذندقة قبل قتله.

ولد بشار بن برد بن يرجوخ فى البصرة سنة ٧١٤م وفيها نشأ. والبصرة إذ ذاك موئل العلماء والفقهاء وأهل الإجتهاد وأصحاب الكلام. وجعل يتابع بنهم كتب الأدب القديمة أدبية وتاريخية، حتى أشتهر بشعره، وعد من مشاهير شعراء عصره. سكن حران مدة وتنقل فى البلاد مدة، ثم رجع إلى البصرة، وسكن بغداد وتوفى بالبصرة سنة ١٦٦هـ وهو أشعر المخضرمين للدولتين، ورأس الشعراء المحدثين وأحد البلغاء المكفوفين وإمام الشعراء المولودين. وكان مرهوب الجانب، مخشى اللسان، وقد لاقى الأذى والاضطهاد بسبب تعرضه لأعراض الناس وعدم تعففه فى هجائمهم.

أبوه برد بن يرجوخ كان طياناً يضرب اللبن، وأمه لسنا نعرف عنها شئ، وكل الذى نعرفه أنها ماتت وبشار فتى، ولم يرد لها ذكر إلا فى أيام حداثته.

كان بشارفى مقدمة الذين نبغوا فى أوائل العصر العباسى الأول، وهو مقدم عليهم باجماع الرواة ورئيسهم بلا خلاف. ذكر الجاحظ (المطبوعون على الشعر: بشار والسيد الحميرى وأبو العتاهية وابن أبى عيينه ولكن بشار أطبعهم). ويقال أيضاً أن أكثر الناس شعراً فى الجاهلية والإسلام ثلاثة: بشار وأبو العتاهية والسيد الحميرى، ومنذ ذلك الحين جعل بشار يتابع بشغف شديد كتب الأدب الأوائل، ويبدو أن علمه وفكره قد شملا كل نواحى الثقافة فى عصره، دينية وفلسفية، إسلامية وغير إسلامية.

عاد بشار إلى البصرة، وراح يختلف على مجالس المتكلمين، ويدخل المساجد ومربد البصر يغترف العلم من مناهلها، فكان إذ ذاك يخشاها جماهير عظيمة من الشباب والكهول، ولعل أقدم ما وصلنا من مدائح بشار ما نظمه فى عبدالله بن عمر بن عبد العزيز الذى كان والياً على العراق سنة ١٢٦هـ كما يتضح ذلك من ديوانه. ولما خطب واصل بن عطاء رأس المعتزلة بين يدى هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء، أشاد به وببيانه طويلاً، وهذا ما يؤكد لنا عمق الصلة بينهما ويروى لنا أبو الفرج: انه يحضر مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع من يعتنقون مذاهب الثنوية المجوسية والدهرية الهندية. ومضى بشار يعلن ذندقته لا يزدجر مصرحاً بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهده الحس. فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا ببعث ولا حساب، ويحاول أن يثير الغبار فى وجه واصل وغيره من المعتزلة، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله، ويقول أنه جبرى بل لا شئ سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية. كل ذلك جعل واصلاً يثور عليه ثورة شديدة، وكان مما زاد هذه الثورة فى نفسه اضطراماً أن رآه يكثر من غزل مادى آثم يعد خطراً أى خطر على شباب البصرة ونسائها. فهتف فى بعض خطبه الواعظة داعياً إلى قتله بمثل قوله (أما لهذا الأعمى الملحد المشنَّف المكنى بأبى معاذ من يقتله؟).

وهكذا كان الخوف قد أخذ من بشار مأخذه، وراح يختفى عن أعين الناس فبارح البصرة وظل غائباً عنها حتى توفى عمر بن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤هـ ونراه يقصد إلى حران فى سنة ١٢٧هـ فيمدح سليمان بن هشام بن عبد الملك إلاأنه لاينيله ما كان يؤمله فاتجه إلى واسط حيث يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق لعهد مروان بن محمد وزعيم قيس ،فيستقبله استقبالا حافلاويغدق عليه من بره وصلاته السنية . وراح بشار يكيل له المدائح ويفخر بقيس القبيلة العربية فخرا شديدا ، ثم عاد إلى البصرة ومدح إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥هـ وهو إذ ذاك زعيم ثورة العلويين ، كانت سنين عمره شموعا تحترق في خدمة الشعر وزينت أشعاره فيه الادب العربي بقلائد وعقود فى صفحات ولم ينل فى حياته غير الجهود والتفوق والحرمان فعاش ومات على شفته بسمة حيرى وفى أعماق روحه دموع .

كان ضخما عظيم الخلق والوجه مجدورا جاحظ المقلتين تغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظراً.

وقال هو فى وصفه نفسه: والله إني لطويل القامة عظيم الهامة، تام الألواح، أسجع الخدين.

قالت له امرأة: ما أدرى لم يهابك الناس مع قبح وجهك.

فقال لها: ليس من حسنة يهابُ الاسد. وقال:

ولى المهابة فى الأحبة والعدا ... وكأنى اسد له تمور

غرثت حليلتهُ واخطأ صيده ... فله على لقم الطريق زئير

قال الشعر وهو صبى، لم يبلغ العاشرة ولما بلغ الحلم كان يخشى من سلاطة لسانه وافحاشة فى الهجاء.

كان بشار بن برد وهو صغير يهجو الناس فيجيئون إلى أبيه فيشكونه، فيضربه ضرباً شديداً على حبه للهجاء، وكانت أمه تقول لأبيه: كم تضرب هذا الصبى؟ أما ترحمه؟ فيقول: بلى والله إنى لأرحمه، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلىّ فقال له بشار: يا أبت! ان هذا الذى يشكونه منى إليك هو الشعر، وإنى إن ألممتُ به أغنيتك وسائر أهلى. فإن شكونى إليك فقل لهم: أليس الله يقول «ليس على الأعمى حرج».

قيل لبشار إنك لكثير الهجاء؟

فقال: إنى وجدتُ الهجاء المؤلم أقوى للشاعر من المديح الرائع، ومن اراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر، وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخافُ فيعطى.

ويقول فى هجائه لأحدهم:

ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه ... مخافة أن يرجى نداه حزين

إذا جئته للعرف أغلق بابه ... فلم تلقه إلا وأنت كمين

فقل لأبى يحيى: متى تبلغ العلى ... وفى كل معروف عليك يمين

ويقول:

بجـدك يا ابن قـزعـة نلت مـالاً ... ألا الـلـئـــام لـهـم جـــدود
ومن حـــذر الزيادة فى الهــدايا ... أقــمت دجـاجـة فـيـمن يزيد

وعرف عن الشاعر الضرير بشار بن برد - الغزل والتشبب بالنساء والمجون وسئل عن نهجه فى الحياة فقالوا له: أى متاع الدنيا آثر لديك، فقال: طعام مزّ، وشراب مر، وبنت عشرين بكر.

وقال:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وكان الغزل لديه سمعاً وشماً وجراة، المراة بمذهبه أنثى تُشتهى وتُنال ولا تستعصى على الطالب، ويقول:

قـاس الـهـمـوم تنل بهـا نجـحـا ... والليل، إن وراءه صـــبـــحـــا
لا يؤسنك من مـــخـــبـــأة ... قـل تـغـلـظـه وإن جـــرحـــا
عـسـر النسـاء إلى مـيـاسـرة ... والصـعب يمكن بعـدمـا جـمـحـا

ويقول فى مجن غزاله:

حـسـبى وحـسب الذى كلفت به ... منـى، ومنـه الحـــديث والنـظر
أو قـبلة فى خـــلال ذاك، ومـــا ... بـأس إذا لـــم تحـل لـــى الأزر
أو عـضــة فى ذراعـهـــا، ولهـــا ... فـوق ذراعى من عـضـهـــا أثر
أو لمســة دون مـــرطهـــا بيـدى ... والبـاب قـد حـال دونه التسـتـر

أثار بشار بن برد عليه بغزله وتشهيره بنساء البصرة أهل الورع وعامة الناس، ووصلت شكواهم إلى الخليفة العباسى المهدى، فاضطر الخليفة المهدى وكان جليسه ونديمه إلى أن ينهاه عن التشبه والغزل بالنساء فحبسه لمدة قليلة وأمسك بشار عنهما وهو كاره فأطلق صراحه.

وقال بشار فى ذلك:

إن الخليــفـــة قــد أبى   وإذا أبى شـيـئـاً أبيتـه

ويشوفنى بيت الحبيب   إذا غــدوت وأين بيـــتـه

حـــال الخليــفـــة دونه   فصبرت عنه وما قليته؟؟

أتهم بالزندقة وقيل: كان بشار بن برد يرمى بالزندقة!

كان بشار بن برد يدين بدين الخوارج. وبقيت الزندقة وبشار دون رأى قاطع وهو يتلون بشعره مع القولين فهو القائل:

كـيف يبكى لمحـبس فى طلول   من سـيـبكى لحـبس يوم طويل

إن فى البعث والحساب لشغلاً   عن وقـوف برسم دار مـحـيل

وهو القائل:

الأرض مظلمة والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار

وهو القائل:

طبـعت على مــا فى غـيــر مــخـيــر   هوايا، ولو خـيـرت كنت المهـذبا

أريد فـــلا أعطى، وأعطى ولم أرد   وقـصـر علمى أن أنال المغـيـبا

فأصرف عنى مقصدى وعلمى مقصر   وأمسى مـا أعقبت إلا التـعـجبا

وقيل بأن أهم سبب لقتله هو هجائه للخليفة المهدي بقصيدة مطلعها:

خليفة يزنى بعماته   يلعب بالدبوق والصولجان

إلى آخر تلك القصيدة.. وحين علم وزير المهدى المدعو يعقوب بن داود دخل على الخليفة المهدى غاضباً وقال:

يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى الملحد الزنديق بشار بن برد قد هجاك.

قال الخليفة: بأى شئ

قال: بما لا ينطق به لسانى ولا يتوهمه فكرك

قال الخليفة: بحياتى الاّ أخبرتنى عن تلك القصيدة

قال يعقوب: والله لو خيرتنى بين إنشادى لتلك القصيدة وبين ضرب عنقى لاخترت ضرب عنقى.

«وكان يعقوب بن داود وزير المهدى يكن حقداً وكرهاً شديداً لبشار بن برد بسبب هجاء بشار له بعدد من القصائد».

وحين أصر المهدى على سماع تلك القصيدة.

قال يعقوب: أما لفظاً فلا. ولكننى سأكتب لك تلك القصيدة فى ورقة ثم كتبها ورفعها إليه وحين قرأها الخليفة كاد يموت غيظاً ومن شدة غيظه قرر السفر إلى منطقة البطيحة بمدينة البصرة وهى المنطقة التى يسكنها بشار وحين وصوله سمع شخصاً يؤذن للصلاة فى غير موعد الآذان فسأل عن من يفعل ذلك فقيل له: أنه بشار بن برد حين يسكر فإنه يؤذن.

هنا ازداد غضب الخليفة وحقده على بشار وأمر بأحضاره فأحضر بين يديه فوبخه الأمير وشتمه بألفاظ نابية ثم قال له:

يا زنديق أتلهو بالآذان فى غير وقت صلاة وأنت سكران ثم أمر بضربه فضرب بالسياط وكان أثناء ضربه يردد كلمة حس..حس وهى تقولها الأعراب حين الشعور بالألم فقال يعقوب للخليفة ليزيد من غيظه: أنظر يا أمير المؤمنين إنه يقول حس ولا يقول بسم الله.

قال بشار: أثريدٌ هو فأسمى عليه.

فأمر الخليفة بزيادة الضرب لإيجاعه. فضرب سبعين سوطاً مات على أثرها ثم رمى فى البطيحة.



بلزاك

الروائى الفرنسى الذى عاش فى بؤس !!

بلزاك

أونوريه دو بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) روائى فرنسى الطابع مائة فى المائة. أراد له والده أن يدرس الحقوق، ولكنه أذن له فيما بعد بالاشتغال بالأدب الذى لمع فيه على الرغم من العقبات الجمة التى تثبط الهمم إذا ما اعترضت سبيل الأديب فى مستهل حياته. أما الرواية التى عززت مكانه وأكسبته الشهرة فهى جلد الحزن التى ظهرت سنة ١٨٣١.

وضع ست روايات قبل أن يبلغ السادسة والعشرين دون أن يوقعها بأسمه. وكانت أولى رواياته التى حملت أسمه الصريح «الثوار» وتدور حول الثورة الفرنسية.

وما لبث أن رسم خطة لمجموعة مؤلفاته الروائية التى دعاها المهزلة البشرية مستوحياً هذا العنوان من رائعة دانتى الشهيرة المهزلة الالهية التى تتحدث عن الجحيم، والمطهر، والجنة. وقد حاول بلزاك فى هذه المجموعة الروائية التى تضم أكثر من ثلاثمائة شخصية أن يجمع فى لوحة كبيرة واحدة المجتمع البشرى كله. ولكن تجدر الاشارة إلى أن كل رواية من هذه الروايات وحدة تامة يمكن أن تقرأ على حدة. وتعتبر رواية الأب غوريو التى ظهرت سنة ١٨٣٥ بعد نشرها متسلسلة، محور المهزلة البشرية، وأكثر رواياته حبكاً ومتانة.

وقد ظهرت هذه المجموعة بين سنة ١٨٣١و١٨٤٢ وهى تتألف من تسع وسبعين رواية تزخر بالتحليل الساخر للبشرية. وقد أثر عن بلزاك أنه كان يعيد كتابة رواياته باستمرار حتى وهو يصحح البروفات لدى الطبع. وكان يعمل بين ١٢ و ٢٠ ساعة كل يوم لبضع سنين، مقتصراً فى طعامه على القليل من الفاكهة، والكثير من القهوة، مرتدياً مسوح الرهبان.

كثيرة هى الأحداث فى حياة بلزاك وشائقة. وقد كانت أخلاقه عرضة للانتقاد، إلا أن الكثيرين دافعوا عنه. وكان فى حاجة دائمة إلى المال، يتعاطى مختلف المشاريع التى يمكن أن تدر عليه الثروة، ومن بينها صناعة حروف الطباعة، والتعدين فى جزيرة سردينيا. وعلى الرغم من دخله غير الثابت، فقد عمد إلى التبذير فى شؤون عديدة، منها شراؤه قصر أحد أثرياء باريس وتأثيثه بمجموعته الفنية الرائعة التى قدرت بنصف مليون دولار.

وكان طرفاً فى دعاوى كثيرة، وعلى خلاف مستمر مع ناشرى كتبه..حاول الكتابة الصحفية، وكتابة المسرحيات، ولم ينجح فى محاولات المتكررة للانضمام إلى عضوية الاكاديمية الفرنسية.

ويبدو شذوذ بلزاك فى مؤلفاته جلياً. على أن حياته الخاصة لا تترك مجالاً للشك فى عدم اتزانه، فمن ذلك انه كان يكثر من تغيير مسكنه ويحرص على ألا يعرف أحد من الناس مكان وجوده، وكان إلى ذلك شديد الأنفة والكبرياء فأطلق على نفسه لقب نابليون الأدب.

لقد كان بلزاك مصاباً بالذهان الهذائى، وكان متكبر دون حدود، كبرا يحجبه تواضع متكلف. انه يعتقد بأنه الذكاء التام، ويعزو لنفسه سائر المزايا وجميع ضروب الوضوح وكل الفضائل. انه مطالب يقتضى من الناس الاحترام الذى يدينون به إلى المشاهير، محشو بالانانية التى تختفى تحت اقنعة الغيرية والطيبة والعدالة. أما فى صميمه، فالعداوة والحسد قائمان. يضاف إلى هذا أن الشعور القوى بالدونية يستحوذ عليه غالباً، ويعطى لكماله أهمية مطلقة على الرغم من أنه يعتقد عكس ذلك. انه متحمس بصورة اعتباطية، ولكنه يهمل كل شئ من أجل بعض السخافات وكانت أحكام بلزاك خاطئة ومتميزة، عنيدة، مكابرة، حقودة، اذا مس أحد الناس حساسيته التى تتصف، مع ذلك، بأنها غريبة.

والمصاب بالذهان الهذائى شخص لا يعرف المرء بأى رجل يرقص معه..فلا مجال للتسامح لديه إلا عندما يمثل التسامح تمثيلاً يعزز مظهر عظمة النفس لديه. وقد يشغل المصابون بالذهان الهذائى أحياناً المراكز الاجتماعية الرفيعة

جداً. وعندئذ يتجلى تزمتهم ولزوم احترام آرائهم احتراماً مطلقاً. وبما أن المصاب بالذهان الهذائى انفعالى بافراط، فهو كريم باندفاع. انه يفرض طيبته وكرمه. مع احتمال ان ينقلب انقلاباً تاماً، ولسبب تافه، ضد من يقدم له العون..انه لا يتوصل إلى أن يتفاهم مع أى شخص كان، إلا عندما يفتقد بأن الآخرين لن يعترفون له بالتفوق. وهو يظن غالباً بأنه مضطهد لأن وضوحه وذكائه يجعلانه خطراً، وأن من المصلحة إذن أن يكون مستبعداً.

يتصف المصابون بالذهان الهذائى بالحذر المتعالى، المسيطر والمحتقر. ومن البديهى أنهم غير واعيين لزيف سائر هذه المظاهر التى هم بحاجة شديدة إلى تصديقها. ويكذب المصاب بالذهان الهذائى. فهو يتخيل اوضاعاً يتفوق فيها، ويقوم فيها بالدور الرائع...إلخ. إنه يوحى بمهارة، بعلاقات رفيعة خيالية على وجه صرف، وقلما يتلائم معها ذلك.

إن التسامى بالنفس يجر ورائه دائماً الشعور بتمجيدها الذى من شأنه أن يزود صاحبه بما هو شديد الحاجة إلية من الحساس بأهميته والتسامى على الآخرين والسيطرة عليهم.

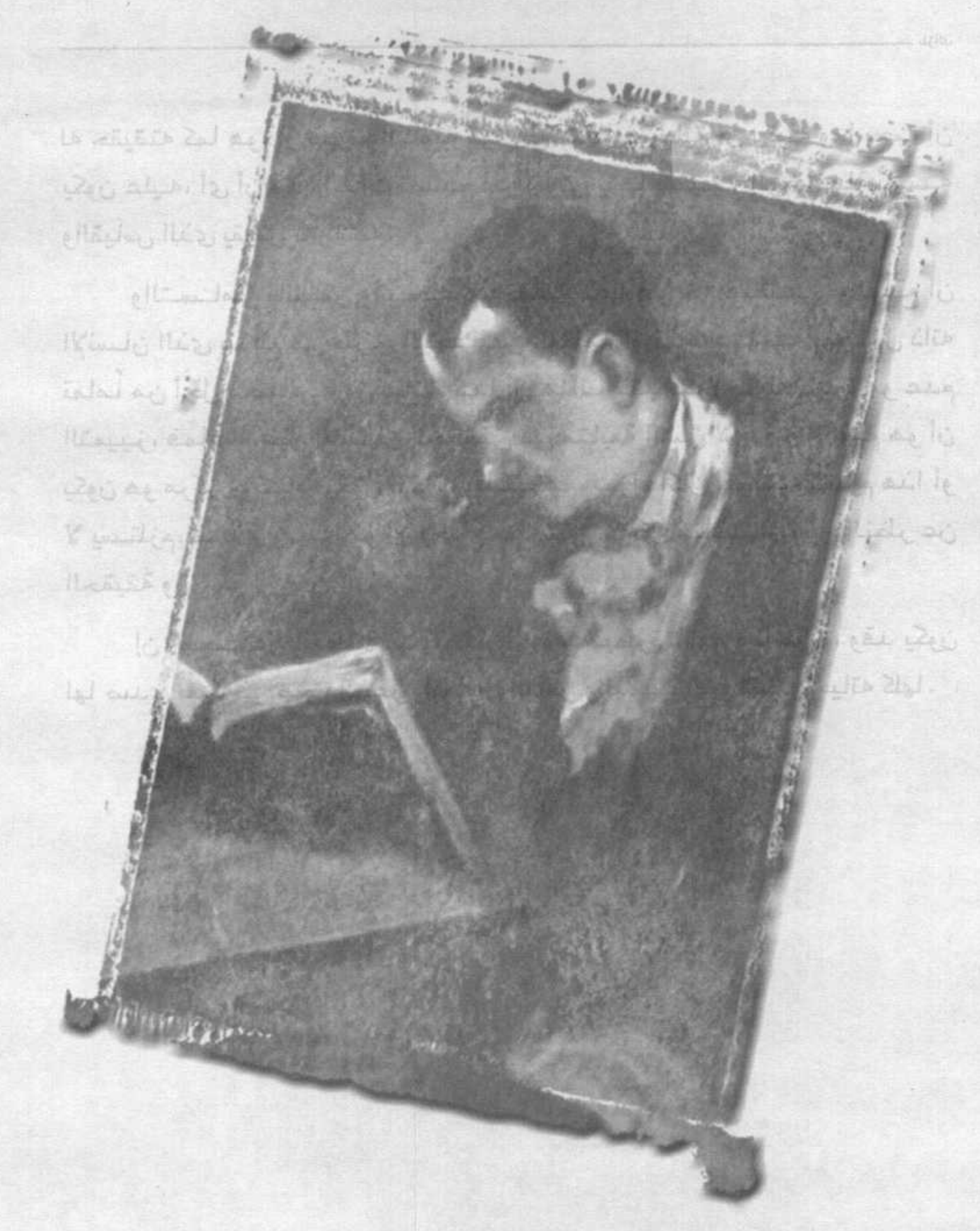
ويبنى كل شخص صورته الشخصية المثالية من مواد تجاربه الخاصة وخيالاته الأولى وحاجاته المعينة، كذلك من قدراته الموهوبة. وقد تصل الدرجة بالشخص إلى أن يتقمص صورته المثالية المتكاملة التى لا تظل صورة فى خياله يحتفظ بها فى نفسه، بل سرعان ما يصبح هو هذه الصورة - دون أن يشعر - أى أن الصورة المثالية تصبح شخصاً مثالياً أو ذاتاً (مثالية) وهذه الذات المثالية تصبح أكثر حقيقة فى نظره من ذاته الأصلية لا لأنها تستهويه أكثر فحسب، بل لأنها تحقق جميع حاجاته القيقة.

ان هذا الانتقال فى مركز الجاذبية هو فى الواقع عملية داخلية محضة، فالتغير فى أساسه ينشأ فى شعور الانسان بنفسه، فهو عملية عجيبة وشخصية محضة. وهذا الانتقال يحدث فى الإنسان لأن ذاته الحقيقية قد أصبحت غير واضحة، بينما يأخذ هو فى الابتعاد عنها من أجل الذات المثالية التى أخذت تمثل

له حقيقته كما هو، أو قدرته الكامنة كما هى، ماذا يستطيع أن يكونه وما يجب أن يكون عليه، أى أن هذه الذات تصبح المرآة التى يتطلع فيها إلى دخيلة نفسه والقياس الذى يقيس به نفسه.

والتسامى بالنفس والبحث عن تمجيدها هو حل عصبى. والواقع أن الإنسان الذى يندفع فى طريق البحث عن العظمة أو تمجيد نفسه يتجاهل ذاته تماماً من أجل مصالحه ورغباته. كما أن هناك مقياساً آخر للشهرة هو عدم التمييز، فما دام ميل الإنسان الحقيقى فى متابعة الشئ لا يهم، بل المهم هو أن يكون هو مركز الانتباه فيكون أذكاهم وأشهرهم، سواء أكان الموقف يستلزم هذا أو لا يستلزم، فالذى يهمه هو أن يخرج منتصرا فى كل مناقشة بغض النظر عن الحقيقة والواقع .

إن البحث عن العظمة قد يصبح فكرة مسيطرة تلتهم صاحبها، وقد يكون لها صدى بعيد فى صور الذعر والكآبة واليأس والغضب التى تغشى حياته كلها.



بـودليـر

أعظم شعراء فرنسا والذى جمع أعجب المتناقضات!!

بودلير

شارل بودلير «١٨٢١-١٨٦٧» ،زعيم الرمزية، أو المدرسة الشعرية الحديثة، شاعر اللذة والألم، من أبرز شعراء فرنسا فى القرن التاسع عشر، صاحب مجموعة أزهار الشر، قصائد غنية بالصور،والخيال البكر، والعاطفة التأججة الجامحة، لها رنة موسيقية عذبة. قيل بحق إن المأساة التى دارت فصولها فى نفس بودلير وضميره هى المأساة نفسها التى تعاقبت مشاهدها على مسرح القرن التاسع عشر منذ بزوغ فجره إلى غروب شمسه.

كان بودلير فنانا ماهرا يرمى إلى الكمال فى قصائده، فإذا أخطأ هذا الهدف الاعلى ترك الشعر والقافية إلى الشعر المنشور، فأجاد فى النوعين. وهو فى شعره يذكر براسين أكثر مما يذكر بفكتور هوغو.

وكان يتقن الانجليزية فنقل إلى الفرنسية ما خطته يراعة الكاتب الأمريكى إدغار آلن بو. وصف عدة قصائد باللغة الانكليزية .

عندما ظهر ديوانه أزهار الشر شنت الصحف عليه حملة عنيفة فسحت السبل للاحقات قضائية. فصودر الديوان بتهمة انتهاك بودلير حرمة الآداب العامة. ومثل أمام المجلس التأديبى فحكم عليه بجزاء نقدى قدره ٣٠٠فرنك، وحذف بعض قصائد الديوان.

على أن أشهر أدباء العصر قابلوا بالاستنكار هذا الحكم الذى لم يسبق لقضاء أن أصدر مثله. وكتب فكتور هوغو إليه يقول: «لقد قلدت واحدا من أندر الأوسمة التى يستطيع النظام الحالى أن يمنحها. فما يسميه عدله حكم عليك باسم ما يسميه آدابه. وهذا إكليل آخر. فأنا أصافحك أيها الشاعر »

لم يكف بودليريوما عن المطالبة برد شرفه إليه ،وظل فريسة الألم والقنوط، يعيش فى عزلة، على الرغم من مختلف مظاهر التشجيع التى أحاطه بها كبار الادباء.

كتب شارل بودلير فى عام ١٨٥٧يصف قضاته بعد أن تفرس فى ملامحهم فى إحدي المحاكم الباريسية: «إنهم دميمون» ولا تختلف قلوبهم عن وجوههم!» ذلك بأن بودلير كان قد أوقف بتهمة إفساد الأخلاق بنشره ديوانه «أزهارالشر ». وقد احتج بشدة على الغرامة التى فرضت عليه.

وكان يتألق فى زيه تأنقا يتوخى فيه الغرابة واسترعاء النظر. فيرتدى على الدوام ثوبا أسود شائقا، وقميصا من حرير ابيض ناصعا ،وحذاء لماعا، وربطة عنق حمراء صارخة، وقفازا وردى اللون مستطيل الطرف أشبه بقفازات النساء. وكان يدين فى ذلك الوقت بعقيدة تدعى «الدانديزم» أي الأناقة المصحوبة بالترفع النفسى

و «الداندى» هو الرجل البالغ الأناقة، المتحفز للبطولة، الصامد الجلد الصبور، الذى لا تبدر منه بادرة تشعر الناس بضعفه، والذى يمر بالاشياء والاشخاص هادئا جامدا مستكبرا غير حافل. تتبعه العيون مستطلعة و مفتونة ، وعاجزة عن استبطان سره وتمزيق القناع عن وجهه المغلق الأصم. هوالرجل الذى يهزأ بالألم ،ويهزأ بالفرح، ويسعى الى العظمة، وينمى فى نفسه ما استطاع فضائل الأرادة والقوة والأحتمال كالفلاسفة الرواقين. ولقد عاب النقاد على بودلير شغفه المفرط بالحياة على هذه الصورة، وعدوا ذلك منه محض تصنع وافتعال. ولكنهم لم ينصفوه. فالتصنع كان من مستلزمات نبوغه. وهو لم يتكلف الترفع المقرون بالأناقة الا ليحجب عن الناس لوعة مشاعره، ويخفى حسرته على فقدان أمه. ويستر ضعف ارادته، ويلطف من حدة أهوائه ووحشية غرائزه.

والحق أن بودلير كان من فئة المصابين بمرض الارادة. فهو فى شعره لا يفتأ يتحدث عن عجزه النفسى. وكسله العصبى. وأسفافه الحسى، وانطلاقاته الطارئة، وتقواه المفاجئة. وذعره من الحياة وحبه العميق لها. ثم يتألم أشد الألم

لهذا التوزيع الدائم وهذا القلق المخامر، ويحس انه مجموعة عجيبة من المتناقضات لا قبل له بمغالبتها والتغلب عليها.

واكبر الظن أن الوراثة كانت من أقوى العوامل التى ولدت فيه هذا الشذوذ. فكثير من أقاربه ماتوا بلهاء مجانين. أما والده فقد كان كهلا يدلف الى الشيخوخة عندمااقترن بامه الغادرة التى أصيبت بالشلل قبل أن تموت .

غير ان بودلير برغم ترفعه المتكبر، ومظهره الجاف . وحديثه القاطع، وتهكمه اللاذع . وجموده المحتقر. كان يحمل فى أطواء روحه – بفعل تلك المتناقضات النفسية التى أشرنا اليها وبتأثير خيبته المريرة فى حب أمه – ينبوعا من السماحة والطيبة لا يفتأ يتفجر ويفيض .

كان جاف الخلق وطيب القلب، ضيق الصدر وواسع الرحمة، حاد المزاج ورقيق العاطفة، يتبرم بالكون والناس وليس أحن منه وأشفق على الفقير والناس. وكيف يستطيع من تضاربت فى نفسه شتى الغرائز والاهواء ألا يصبح هو نفسه عنصراً من عناصر الطبيعة، وألا يفهم الآخرين، ويحبهم ويرثى لحالهم، وهو يلعنهم.

لقد أنشد يقول:

«يا الهى هبنى القوة والشجاعة كى أطل على قلبى وجسمى بلا اشمئزاز» وأذن فهو يعرف أن حقائق القلب البشرى والجسد البشرى دميمة تشمئز منها النفس. ولكنه فى الوقت ذاته يصبو إليها ويطمح إلى الاندماج فيها، ويطوق إلى اقتناصها وتسجيلها رغبة منه فى التخلص فى ذلك الاشمئزاز المنبعث منها، أى التخلص من الرزيلة بمعرفة الرزيلة، على أن تكون المعرفة أصيلة ومحيطة وشاملة بحيث تصبح هى حافز التطهر والمحبة والرحمة والاستعلاء النفسى الصحيح.

شعره:

ليس بودلير من أولئك الشعراء الذين يكتفون بتصوير المرئيات، والتغنى بجمال الأوضاع والأشكال، والإشادة بما تخفق به قلوبهم من احساسات ومواقف.

إنه يريد أن ينفذ إلى باطن المخلوقات، إلى عمق أعماق الميول والغرائز، إلى ما يكمن خلف المظاهر العابرة المضللة من سر عميق يصل بين الإنسان والكون والأبد.

إنه غريزة وفكر، عاطفة وعقل، حواس وروح، شاعر وفيلسوف بل هو قبل كل شئ غريزة وشهوة وحواس وأعصاب. يقبل على الحياة فى ظمأ المحموم تحفزه رغبة جبارة، وتوق مخبل إلى اعتناق المحرمات جميعاً. إذ الحياة فى عرفه لا تبدو كاملة التعبير، ولا تصخب وتهدر، وتخرج مولداتها الساحرة العجيبة الشهواء إلا فى الرزيلة والشر... فالرزيلة المتباينة فى ألوانها المدوية فى أعنف انطلاقا، تخلب لبه، وتشيع فى وجدانه المتفجر المتلهف غلمه منهومة. فيشرب هذه الرزيلة نفسه، ويوغل فيها. ويستزيد منها ويأبى أن يظل تائهاً فى خضمها المتلاطم، كى يقنص من أعماقها السحيقة فطرة البشر الخالصة، مجردة من كل عرف وعارية عن كل دثار. إنه لا يحب الرزيلة لنفسها، بل يحب الرزيلة لأنه يكره النفاق، ولأن الرزيلة هى الجوهر الغالب فى طبيعة الإنسان، وهى مبعث الفضيلة ومثار الحركة والقوة والحياة. فشعره مفعم بالهوس الحسى والتفحل الشهوى، تتوارد فيه أبشع صور الشر، مجملة أغرب وأفتن تجمل، يختلط فيها الكسل المستمتع الحالم بالكفر الوقح الصارخ. كما تختلط فيها شهوة الحس بسكرة الخمر، فتجعل النشيد الشعرى أشبه ما يكون بالهزيان .هو شعر عصرنا الراهن، شعر الفرد المتحضر الذى أمدته المدنية بشتى ضروب النعيم المادى، فاكتظت بها نفسه ولم تعد تحدث فيه أى تأثير عميق، فهو ينزع إلى الجديد من الاحساس والى الطريف من العاطفة،وما يزال برأسه المكدود يتعصره ابتكار وبأعصابه المتوترة يستنزفها تهيجا، حتى يظفر بأبعد ما يمكر أن يتصوره الخيال من أفانين اللذة الخارقة .

بيد أن اللذة الخارقة منحدر خالب يجلب الدوار . ومتى اندفع المرء فيه ، كانت فتنة الشر مستولية عليه، فهو لابد أن ينحدر وينحدر حتى عمق الهاوية .وهذا ما وقع للمنكود بودلير . فاللذة الشائعة كانت تضجره فلاذ باللذة العنيفة، ومنها الى اللذة القصوى، ومنها الى المرض والتحطم والموت .

ومن اعــراض الجنون عند بودليــر أنه كــان شــديد الولع بالـروائح الكريهـة،خصوصا الجيف، والأطعمة التى دب فيهـا الفسـاد . والأشياء العفنة، والروائح المنبعثة من الأمراض الخبيثة، ومن هذه الأعراض أنه صبغ شعره بلون أخضـر فاقع، وحاول خنق حمية، وكان مصاباً بذلك النوع من المرض العصبى الاضطرارى الهدام، الذى كان يضطره إلى تخريب الأبنية وتكسير الزجاج، وتمزيق المناديل، وكتب عن نفسه فى هذا الشأن أنه كان يشعر بلذةلا تضارعها لذة للقيام بهذه الأعمال الاضطرارية الهدامة.

كـان الصـراع دائراً بين بودليـر (الطفل) وبودليـر (الرجل) على أشـده فى معظم حياته. فبودلير (الرجل) يتوجع كثيراً لسيطرة بودلير (الطفل). وقد كان يعرف انه شاذ وأنه قائم بتهديم ذاته، وليس هناك من يستطيع ان يحسن وصفه، كوصفه هو لنفسه (أنا انسـان مريض)، ويتابع قـائلاً (انا انسـان مريض، شنيع الطباع، والذنب فى ذلك أبوى، ومن جراهما يسرع البلى فى نسجى، وتنحل عراى، وترث قـواى، ذلكم شـأن من يولد من أم فى السـابعـة والعـشـرين وأب طاعن فى السن، فى الثانية والستين، فتأمل يا صاح..خمسة وثلاثون عاماً بين الاثنين..).

تزوج فرنسوا بودلير - والد بودلير - من كـارولين دوفالى الفتاة اليتيمة، الحلوة الجذابة، وجاء بودلير الشاعر بعد ثلاثة أعوام من زواجها، وقد فقد أباه وهو فى السادسة من عمره، فحزن عليه حزناً شديداً، وكان يقال له بأن اباه رجع إلى السماء ولم يمت.

تعلق هذا الفتى اليتيم بأمه ايما تعلق، فقد شغف بها كثيراً وتصور انه اذ كانت تنحنى لتمنحه قبلة المساء عند النوم، يكاد لا يستقر فى سريره حتى يرجع مرة ثانية ليتزود منها بقبلة.

ولما تزوجت من أحد الضباط هاج وماج ورمى فى يوم الزفاف بمفتاح غرفة أمه فى البئر لكى يضيع فلا يعثر عليه. وبذلك أحس بالحرمان واليأس وبأنه لا يستطيع.ولذا فهو لا يريد.

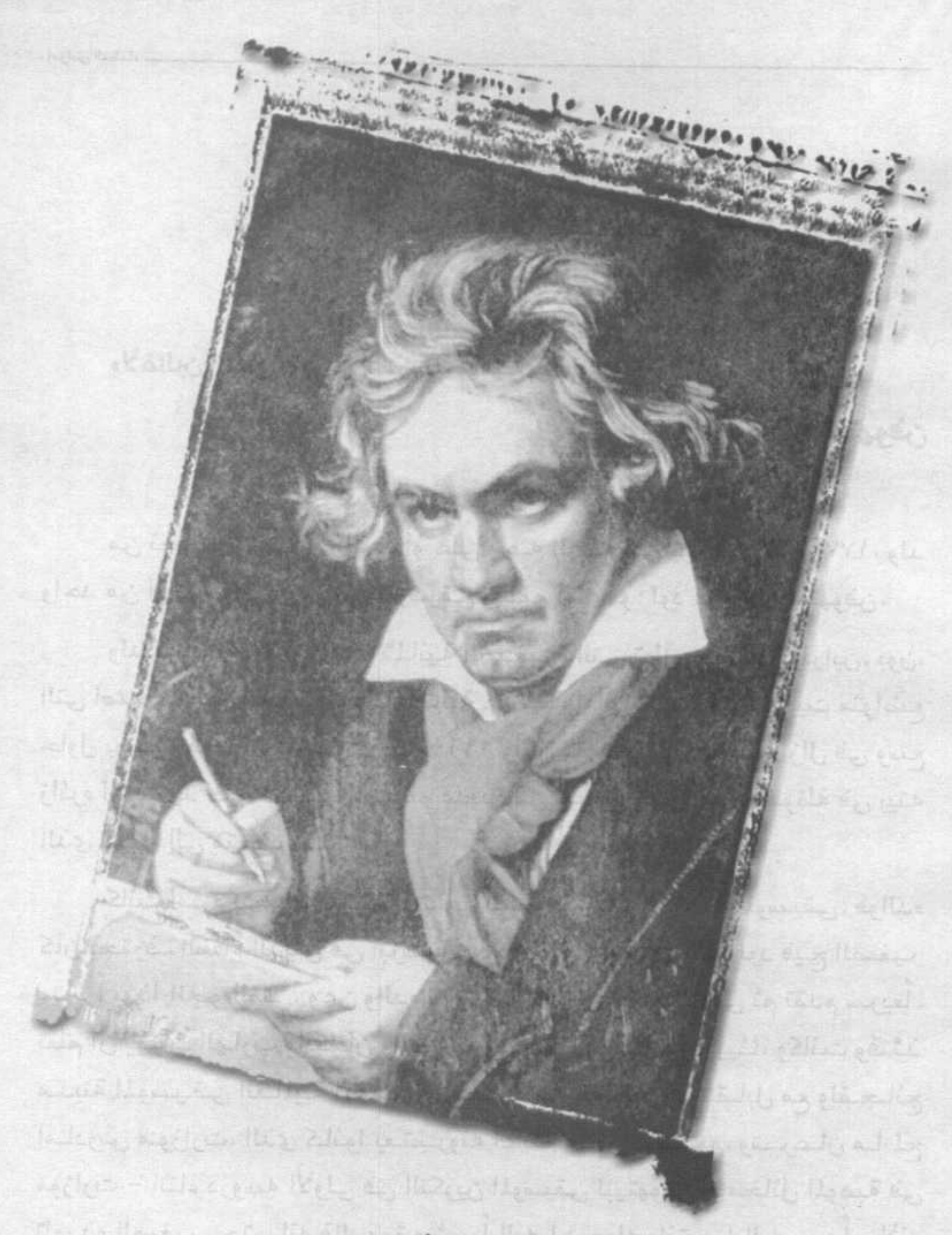
وكانت بداية انتحاره هو الشذوذ الذى بدأ هنا..

اختار حبيبة له اسمها سارة، أهم مواصفاتها انها كانت حولاء، وقد كانت سبباً لاصابته بالداء الخبيث. وكانت الثانية جان دوفال التى أوحت إليه بديوانه المعروف (أزهاره الشر). وعلى حد وصفه لها فإنها تسير فى غلائلها المتهللة اللماعة كأنها ترقص رقص الأفاعى على أطراف العصى أمام الحواة والكهان. فى عينيها بريق جذاب كبريق المعادن السحرية، وفى جسدها يجتمع الملاك الطاهر بالحيوان القديم، فكل مافيها لمع وبريق.

اذا كان بودلير أحب من بهذه الأوصاف فبما توصف حالته..

لقد عاش حالة شاذة طوال حياته وهو ينتقم وينتقم من نفسه تجاه ابتعاد امه عنه، وكانت نهاية حياته وهو فى السادسة والأربعين من عمره.!!

***



بيتوهفن

أشهر مؤلفى الموسيقى الذى تغلب على صممه!!

لود فيج فان بيتهوفن

«لأغالبن القدر دون أن احنى له هامتى»

بيتهوفن

من نحو ٢٣٠ سنة مضت أو على وجه الدقة فى يوم ١٧٧١/١٢/١٦، ولد واحد من أفضل وأشهر مؤلفى الموسيقى والنغم ألا وهو: لود فيج فان بيتهوفن.

ولد تحت سماء المدينة الالمانية الصغيرة التى تطل على نهر الراين. بون، التى اصبحت منذ الحرب العالمية الثانية عاصمة المانيا الغربية.. فى بيت متواضع حاول بعض الفوضويين احراقه عام ١٩٦٠ ولكن سرعان ما رمم. وما زال فى وسع زائره أن يشهد فيه ذكريات وأشياء عديدة من حياة بيتهوفن، محفوظة فى بيته الذى تحول إلى متحف صغير.

كانت أسرة بيتهوفن فقيرة وينتمى اغلب افرادها إلى دنيا الموسيقى. فوالده كان يحترف الغناء الدينى فى ابرشية مدينة كولن. وهكذا نشأ لود فيج الصغير متأثراً بهذا الجو الفنى، وعن والده تلقى دروسه الموسيقية الأولى ثم تقدم سريعاً. تعلم أن يعزف الهارب والكمان والبيانو. وفى عام ١٧٨٧ زار فيينا، وكانت وقتئذ مدينة الموسيقى العالمية الأولى، حيث اسعده الحظ لأن يتقابل مع ولفجانج امادوس موزارت، الذى كانوا يعتبرونه اعظم ملحن عصره. وسرعان ما لمح موزارت - اثناء دروسه الأولى فى التكوين الموسيقى لبيتهوفن - مخائل الموهبة فى تلميذه الصغير. حتى إنه قال مرة مشيراً إليه لمن حوله «انتبهوا إليه جيداً...لأنه سيجعل الدنيا كلها تتحدث عنه».

وفى عام ١٧٩٢ عاد بيتهوفن من جديد إلى فيينا حيث ظل فيها بقية حياته.

ولفترة محدودة درس فيها على مؤلف معروف هو: جوزيف هايدن. وسرعان ما اشتهر كمؤلف وعازف.

وبالرغم من نجاحه المبكر، فإن القدر لم يهب بيتهوفن حياة سعيدة فيما بعد. ففى تلك الأيام كانت الحفلات الموسيقية العامة قليلة، والموسيقى المطبوعة نادرة، وكان من الصعب جداً على ملحن أن يعيش من فنه، إلا إذا استطاع أن يصبح ذا منصب ثابت ملتحقاً فى خدمة بيت أوروبى عريق استقراطى النزعة.

بيتهوفن، الذى لم تعوده نشأته أن يكون فى خدمة أحد لم يتمكن بالطبع من أن يحصل على مثل هذا المنصب. ولهذا اعتمد فى حياته على قلة من هواة الموسيقى الاغنياء المعجبين بفنه. ولما كان عصبى المزاج، فقد كانت حياته قلقة، فكثيراً ما كان ينتقل من مسكن إلى آخر، وكثيراً ما كان يتشاحن مع اصدقائه. كما كان سئ الحظ فى الحب، ولما لم يتزوج، فإنه ولا شك لم يتمتع لحظة بهناء البيت والأسرة.

ولكن المأساة الحقيقية التى المت بيتهوفن، هى اصابة أذنيه بالصمم، الذى بدأ يزحف إليهما بشدة وله من العمر ٣٠ سنة..ثم أخذ يتزايد مع سنوات حياته لدرجة أنه اصيب بالصم كلياً فى اخرها، ولفترة توقف عن التأليف الموسيقى..وخلالها عاش فى عوز وفقر مدقع.يائساً من الاستماع إلى عزف اصابعه على البيان.

ولكن بيتهوفن، لم يكن الرجل الذى يتقبل الهزيمة. ولهذا انصرف كلياً عما يحيط به، وكرس حياته للموسيقى تماماً. وقد انتج خلال سنواته الأخيرة بعضاً من أحسن أعماله. وقد توفى فى عام ١٨٢٧ وله من العمر ٥٦ سنة.

عقبات فى الطريق:

يقولون فى الأمثال ان المشكلات والعقبات والأزمات تخلق الرجال فما بالك بالعباقرة؟ ان العقبات تصهرهم، وتجلى عبقريتهم وتعطى حياتهم مذاقاً خاصاً كما يفعل الملح فى الطعام، فمهما كان الطعام جيداً ومنوعاً فلا يمكن تناوله الا

بالملح، هكذا العقبات بالنسبة للعباقرة تكاد تكون ضرورة للنضج والعمل والانتصار.

وبيتهوفن عانى من العقبات الكثير منذ نعومة أظافره وحتى آخر يوم فى حياته، ومع ذلك لم تثنه عن العمل وشحذ عبقريته للمساهمة فى اسعاد الإنسانية بروائعه الموسيقية، وكانت أولى هذه العقبات هى عربدة الاب وعشقه للخمر، ثم قسوة هذا الاب على ابنه الموهوب فى أثناء التدريب على العزف على البيانو، وكان يمكن لهذه الموهبة أن تقتل فى مهدها نتيجة قسوة الأب، أو على الأقل يتأخر نضجها وابداعها .. وعندما ماتت امه أصبح بيتهوفن المسئول عن الأسرة والعائل الوحيد لها، ولم يكن بيتهوفن بالفتى الجميل الذى يشد انتباه الناس أو يجذب عطفهم إليه، بل كان ذا عينين جاحظتين ورأس ضخم، هذا بالإضافة إلى طباعه الخشنة ولهجته الريفية والنوبات العصبية التى كانت تهاجمه من وقت لآخر.

هذه المشكلات والعقبات فى مجموعها تعتبر عادية إذا قيست بالعقبة الرئيسية والآفة الخطيرة التى بدأت تهاجم فناننا الكبير وهو ما زال فى شرخ الشباب، لقد أبى قدره الأسود أن يترك له حاسة السمع - وهى الحاسة المطلوبة والضرورية فى عمله الموسيقى - سليمة قوية.. بل انتزعها منه رويدا رويدا، بدأ المرض وبيتهوفن فى الثامنة والعشرين من عمره تقريبا على شكل اصوات متباينة عالية تطن فى أذنه، وحسبها فى البداية صوت الامطار تهطل، والرعد ترعد، والطبيعة تثور، واتجه إلى النافذة ليفاجأ بأن الطبيعة هادئة والسماء صافية، وتعجب وعاد إلى فراشه، ولم تهدأ الأصوات التى يسمعها بل زادت وزاد معها خوفه واضطرابه، وطلب خادمه وسأله عما يحدث فى الخارج وشرح له حالته، وبهت الخادم من هذه الاصوات التى يسمعها سيده والتى ليس لها وجود، وأيقن بيتهوفن اخيرا أن هذه الأصوات تصدر عنه هو وربما كانت بسبب الارهاق والتعب، وحاول أن ينساها، وبعد أيام قليلة عادت الاصوات تطرق أذنه اليسرى بشدة، ولم يجد بدا من أن يذهب إلى أحد الاطباء المشهورين ليعرض عليه حالته، وبعد الكشف طمأنه الطبيب بأن الحالة مجرد زكام عنيف أثر فى طبلة الاذن وأن

عليه أن يصب فى أذنيه بضع نقط من زيت اللوز الذى سيسرع بشفائه، واخذ بيتهوفن يحاول علاج أذنه اليسرى، لكن قدره لم يرحمه، وانتقل الطنين الهائل والاصوات المخيفة إلى أذنه اليمنى ايضا، وظل فى صراع مع قدره، يفقد الأمل مرة ثم يستجمع قواه ليعيش فى أمل كبير فى الشفاء، وكان ينتهز فرصة هدوء المرض لينغمس فى العمل والتأليف الموسيقى ليكتب لنا أروع الالحان والنغمات، ومن عجب أن تخرج الحانه وهو المريض المتألم رائعة مرحة راقصة فرحة... ولشد ما كان يخجل من مرضه الذى جعله يجلس مع اصدقائه ومعجبيه دون أن يستطيع متابعة أحاديثهم، وكان أحيانا يتظاهر بالسرحان والانشغال حتى لا يفضح نفسه، ولكنه أخيرا اعترف لاصدقائه بمشكلته ومرضه ونقل إليهم أحاسيسه العميقة المتألمة، وفى رسالة إلى صديقه (كارل أمند) فى يونيو سنة ١٨٠٢ قال بيتهوفن:

«آه كم أكون سعيدا لو ارتد إلىّ سمعى فأسرع إليك، أما الآن فإنى اعتزل العالم بما فيه واقضى الحياة منزويا لا مطمع لى فى تحقيق أمل أو توفير سعادة، ولكنى مصمم على أن اتخطى الصعاب، إن مرضى إلى الآن لا يحول بينى وبين العزف والتأليف، ولكنه يحرمنى نعمة التحدث إلى الناس والاستماع إليهم وتبادل الآراء معهم، أرجو أن يبقى أمر هذا الخبر سرا لا تذيعه لصديق وأن تحتفظ به لنفسك»

وفى رسالة أخرى إلى طبيبه وصديقه «فجلر» يعبر بيتهوفن عن معاناته الشديدة من المرض فيقول:

«إنى اسمع فى إذنى وقرا يدوى ليلا ونهارا فعدت حياتى تعسة، وهاأنذا منذ سنتين معتزل العالم، أنفر من المجتمعات لأنى آنف أن ابوح للناس بأنى أصم، لو لم أكن موسيقيا لهانت المصيبة، واعدائى كثيرون ولسوف يستغلون عاهتى، لو كان فى الامكان تحدى القدر لفعلت، أرجو أن تحتفظ بهذا السر لنفسك.»

ظل صاحبنا يحاول العلاج بكل الوسائل دون جدوى أو فائدة مما سبب له ازمات نفسية دفعته فى حالة يأس أن يفكر فى الانتحار، وكتب فى السادس من

اكتوبر عام ١٨٠٢ وصيته المعروفة، لكنه عاش بعدها خمسا وعشرين سنة وفيها يقول:

«يا من تنظرون إلىّ زاعمين أننى حقود أو متشائم فى الحياة، لشد ما تظلمونني، لأنكم لا تعرفون السبب الخفى الذى يظهرنى بهذا المظهر، لقد كان عقلى وقلبى منذ الطفولة متجهين نحو عاطفة رقيقة هى الطيبة، وكنت دوما متهيئا لاقوم بأعمال عظيمة، ولكن صممى الذى مضى عليه ست سنوات هو سبب شقائى، لقد خلقت ذا مزاج حاد ميالا إلى المسرات والاجتماع وحب الناس ثم قضى علىّ وأنا ما ازال فى شبابى واتجه بى إلى حياة العزلة، وحاولت التغلب على ذلك فصدمتنى التجربة القاسية غير مرة حتى شرعت فى الانتحار! لكن الفن والفن وحده هو الذى استبقانى.. لقد وضح لى أنه من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن اتم الرسالة التى اشعر إننى مطالب بأدائها»

ومع وجود كل هذه العقبات مجتمعة إلا أن بيتهوفن قرر أن ينتصر ثم بدأ ينفذ القرار عملياً ويشحذ عبقريته الفنية من أجل الابداع والانتاج، وكان الفن وسيلته للهروب من أوجاعه وأتعابه، واستطاع أن يتحدى قدره.

استطاع بيتهوفن الانتصار على آلامه وأتعابه وتقديم فنه الجميل للإنسانية، والاحتفاظ باسمه كأحد عباقرة الزمان، وهذا يرجع لسببين الأول هو عبقريته المتدفقة وموهبته الفنية، والسبب الثانى تحديد للقدر وايمانه برسالته فى مجال الموسيقى.

لقد قدمت الحياة لبيتهوفن اسوأ ما فيها. إننا لنشعر من خلال موسيقاه كيف كان يجاهد ضد مشاكل وعقبات مروعة. إنه لم يخب رجاؤه فى الأمل ودائماً نجده لاهثاً منتصراً آخر الأمر. كما أن انغامه تجعلنا نحس بأن مشاكلنا تظهر ضئيلة جداً ومحاولاتنا للتغلب عليها تبدو وكأنها جد واهنة.

***



جوتــه

أديب ألمانيا الأول الذى أصيب بالجنون والهوس !!

جوته

جوته أديب المانيا الأول طبع بشخصيته وأعماله ثلاثة ارباع القرن الحياة الالمانية.

كان فى حياته يشكل ظاهرة اجتماعية، فصدور كل من مؤلفاته كان حدثاً يثير كل الناس، ويجعلهم يتحدثون عنه. ويحللون أنفسهم من خلال المرآة الرومانسية أو المسرحية التى يقدمها لهم.

وعند صدور أحد مؤلفاته، كما يقول أحد الشهود، كان الناس يقفون صفوفاً طويلة طويلة أمام المكتبات تماماً كما يقفون أمام الأفران فى زمن القحط.

*****

ولد يوهان فولفجانج جوته فى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٤٩م بمدينة فرانكفورت بألمانيا من أبوين كانا فى سعة من العيش وان لم يكونا عريقين فى الحسب فقد كان جده حائكاً تزوج سيدة تملك فندقاً وتدرشيئاً من الرزق فولد له ولدان أصغرهما يوهان كاسبار جوته والد مؤلفنا. ولما نال هذه الحظوة لدى دوق فيمار فى أخريات حياته لم تكن طبقة الخاصة فى ألمانيا تعطف عليه لأنه لم يكن على زعمهم عريق الحسب. فما كان من الدوق الا ان زاد على اسمه كلمة «فون» وهى من ميزات الخاصة عند القوم.

وبذل والدا جوته جهد الطاقة لتعليم ابنهما وتهذيبه، وكانا يرميان بذلك إلى الاستعاضة بشهرته عما ينقصهما من نبل الحسب فلم يدخرا وسعا فى سبيل تعليمه. وكان والده شديد الرغبة فى تلقينه مهنة المحاماة التى كادت تكون مقصورة يؤمئذ على طبقة خاصة.ومع ان جوته تخرج فى كلية الحقوق والشريعة

ونجح فى جميع العلوم التى درسها فإن ميله كان أشد إلى الآداب فكانت نفسه تفيض عواطف واحساسات وكلما أبصر ما حوله من مظاهر الطبيعة أثارت كامن شعوره وأوحت إليه منظوماته الخالدات.

يظهر من ترجمة جوته أنه ورث رقة الشعور وفرط الذكاء عن أمه، فقد كانت على جانب كبير من التعليم ورقة العواطف وقوة التصور حتى قال بعضهم انها المثل الأعلى لكل أم تريد أن ينبغ ابنها فى الشعر. أما الأب فقد ورث عنه جوته الرزانة والطموح وقوة العزيمة وهدوء الطبع.

وقلما ترك شاعر من شعراء ذلك العصر ما تركه لنا جوته من آثار صباه التى تشف عن خلقه وميوله وما كان يجيش به صدره من العواطف. ولا تقتصر تلك الآثار على القصائد التى نظمها فقط بل تتناول كتبه ودماه (لعبه) وتصاويره وذكرياته والتحف الفنية التى كان يملكها، مما يدل على ان جوته لم يكن يفرط فى شئ مما يذكره بحوادث صباه وما وقع له من روايات الغرام، وقد كانت سيرته مجموعة عبر ودروس يستطيع الباحث ان يستشف من خلالها نفسية جوته وما كان يخالجها من مشاعر وعواطف وآراء. وليس ذلك غريباً اذا تذكرنا تشعب مناحى حياته وتعدد المشاهد التى مرت أمام مخيلته، ولعله لو لزم عقر داره ولم يتجشم مشاق السفر والانتقال ما علقت بذهنه تلك الصور المختلفة من مشاهدة الحياة.

ويقال من الجهة الأخرى ان تعدد تلك المشاهد نبا بجوته عن الخلق الألمانى. فبينا ترى الألمانى يميل عادة إلى التخصص والتوافر على درس ناحية معينة من نواحى العلم ترى جوته يميل إلى درس كل علم وفن لأن نفسه كانت متعطشة للارتواء من كل منهل، وهذا يفسر لنا اكبابه على العلوم والفنون من رياضة ورسم وشعر وموسيقا وتصوير.

بل لقد كان ميله عظيما الى درس النبات و الطب والهندسة والحقوق والسياسة حتى انه بلغ من بعضها شأوا بعيدا، وهو مالم يتسن لغيره من الشعراء، أضف الى ذلك ميله الغريزى الى تعلم اللغات حتى حذق اللاتينية واليونانية والايطالية والفرنسية والانجليزية والعبرية كل ذلك باشراف والده الذى كان يريد

اعداده لمناصب الدولة الكبرى، ليستعيض بها عما فاته هو منها.

وفى سنة ١٧٥٩-وعمر جوته يومئذ عشر سنوات -احتل الفرنسيون مدينة فرنكفورت لأن حرب السبع سنوات كانت قائمة على قدم وساق. واحتل أحد الضباط الفرنسين منزل والد جوته فكان ذلك أول عهد جوته بالفرنسيين الذين كان أبوه يكرههم. ومنذ ذلك اليوم أخذ النفوذ الفرنسى يؤثر فى نفس جوته تأثيرا لزمه الى أخريات حياته.

ولما بلغ جوته السادسة عشرقمن عمره أدخله أبوه جامعة ليبسك بقصد تعليمه الحقوق. ويظهر ان القسط الذى كان قد ناله من العلم قبل ذلك لم يكن ليكفيه زادا لدخول الجامعة لذلك لم ينجح جوته هنالك نجاحا يذكر، الاانه تعرف بأستاذ يدعى جيلرت مال اليه بكليته واتخذه خلا وفيا. ولكن طبعه القلب ما عتم

أن انتصر عليه فمل صحبة جيلرت ونسيه بعد قليل. وادرك وهو فى الجامعة ان ميله الى الأدب لم يكن ليجديه نفعا فما كان منه الا أن عمد الى ذخائره الأدبية و منظوماته وقذف بها الى النار ولكنه ندم على ذلك بعد قليل فأستأنف صناعة الشعر وطفق ينظم من جديد .

وفى أثناء اقامته بجامعة ليبسك جرت له واقعة غرامية لم تكن الأولى من نوعها، ذلك انه أحب فتاة تدعى حنة كاترين شونكويف وهى ابنة صاحب حانة كان جوته يتردد اليهاوبلغ شغفه بها حد الجنون حتى انه ذكرها فى كثير من منظوماته باسم «آنيت »، بل لا تكاد قصيدة من القصائد التى نظمها فى ذلك الزمن تخلو من اشارة الى هذه الحسناء التى فتنت لبه وملكت عليه مشاعره ولكنه ما كادت الفتاة تقابل حبه بمثله حتى طوى كشحه عنهاونسى أمرها !

وفى أثناءاقامته بجامعة ليبسك نظم عدة. قصائد وروايات أهمها المأساة الموسومة «بمزاج المحبين » ومأساة «الشركاء فى الجريمة » فبسط فى الأولى الأسباب التي حملته على هجر معشوقته حنة كاترين شونكويف بعد أن أحبها حبا يقرب من العبادة وبسط فى الثانية العادات الرديئة التى كانت منتشرة فى بعض الأسر فى ذلك الزمن ليس فى مدينة ليبسك وحدها بل فى جميع مدن ألمانيا

أيضا، وقد غلب الذوق الفرنسى على كلتا هاتين المأساتين وهما تفيضان بالعواطف التى كانت تتأجج فى صدر جوته والتى كانت أحسن دليل على حقيقة طبعه.

وفى سنة ١٧٦٧ نشر مجموعة منظوماته بعنوان آنيت أو آنيتا وهى الفتاة التى تقدم ذكرها والتى كان ما يزال لها فى نفسه أعظم الأثر وقد نحا جوته فى بعض منظوماته هذه منحى الفرنسيين وأودع فيها كثيراً من التخيلات الشهوانية بأسلوب طلى وعبارة منسجمة، ويظهر أنه أحسن بسهام الانتقادات التى وجهت إليه من جراء تلك المنظومات فلما أعاد طبع مجموعته سنة ١٧٦٩ حذفها منها.

وقبل ذلك بسنة - أى فى سنة ١٧٦٨ - اضطر جوته إلى مغادرة جامعة ليبسك والعودة إلى فرنكوفورت من دون ان يتمم علومه وكان رجوعه فجائيا وسببه انه بذل فى التحصيل جهوداً فوق طاقته فأصيب بنزيف أضعف قواه وألزمه الفراش طويلاً فى ليبسك ثم فى فرنكفورت وكان وهو على سرير المرض يراسل أصدقاءه. ويؤخذ من لهجة رسائله هذه انه كان ينظر إلى الحياة نظرة جد ويحسب للمستقبل حساباً، وهذا يفسر شدة اكبابه وهو فى دور النقاهة على درس كتب الفلسفة والسحر والتنجيم والكيمياء، ويظهر ان فتاة من صديقات أمه تدعى سوزان كاترين فون كليتنبرج وكانت من أهل التقوى والصلاح أثرت فى نفسه وحولته إلى التفكير فى الروحانيات فلم يمر عليه بعض الوقت حتى أصبح من المتصوفة!

وما كاد جوته يستعيد صحته حتى عزم والده على ارساله إلى جامعة ستراسبورج ليستأنف فيها دراسة الحقوق، ومع ان ستراسبورج هذه من مدن الالزاس وكانت يومئذ فى حوزة الفرنسيين فقد كانت ألمانية الصبغة سواء أكان فيما يتعلق بلغة أهلها أم بحضارتهم. وكان لانتقال جوته إلى هذه الحضارة أثر كبير فى نفسه ظل معه إلى أخريات أيامه، ذلك انه أصبح متشبعاً منذ ذلك الحين بالروح القوطية الألمانية ورأى من واجبه تسويد ذلك الروح على كل روح أخرى سواء أكان فى ميدان الفن أم الأدب أم العلوم.

وفى أثناء اقامته بستراسبورج وضع المواد اللازمة لروايته «جوتس فون برليخنجن» التى أحدثت عند ظهورها ضجة كبيرة فى عالم الأدب لأنها كانت

بمنزلة ثورة على الروح السائدة على الأدباء فى ذلك الوقت. وتقول دائرة المعارف البريطانية ان هذه الرواية كانت فتحا جديداً فى عالم الأدب المانى فى ذلك الوقت لأنها أدخلت عليه أسلوب الدراما الذى ابتكره شكسبير فى الأدب الانجليزى ومع ذلك فان بعض النقاد يعتقدون ان رواية جوتس المذكورة هى دون مستوى «فاوست» و «ولهلم مايستر» وغيرهما من روايات جوته الخالدة وان قيمتها انما فى اقحامها طراز جديداً على الأدب الألمانى يعتبر ثورة على الروح والتقاليد القديمة التى كانت سائدة فى ذلك العصر. فقد كان شعراء الألمان يومئذ يقلدون الروح الفرنسية واللاتينية وكان فريدريك الأكبر نفسه «ملك روسيا فى ذلك العصر» متشبعاً بالروح الفرنسية ميالا إلى الأدب الفرنسى لذلك كانت الثورة التى رفع جوته لواءها برواية «جوتس» خطيرة جداً.

وفى سنة ١٧٧١ نال جوته اجازة القانون وعاد إلى مسقط رأسه ليمارس مهنته وقضى السنة التالية فى «فتزلار» التى كانت مقراً للمحاكم الامبراطورية ولمحكمة الاستئناف العليا فى ذلك الوقت وكان غرضه من ذلك التمرن على أعمال المحاماة. وفى أثناء اقامته بفتزلار تعرف بكثير من رجال القضاء والسلطة وجرت له واقعة غرامية أخرى كان لها أثر عظيم فى حياته وفى الأدب الألمانى عامة. ذلك انه أحب فتاة تدعى شارلوت بوف حباً مبرحاً حتى انه خلد ذكاها بروايته الشهيرة «فرتر» التى ذاعت وانتشرت بسرعة لم يعهد لها مثيل فى أى كتاب آخر من كتب جوته.

ولما بلغ جوته السادسة والعشرين من عمره. ولا شك أن المدة الواقعة بين سنتى ١٧٧١ و ١٧٧٥ كانت أخصب أطوار حياته من الوجه الأدبى. ففيها أنتجت قريحته «جوتس» و «كلافيجو» و «آلام فرتر» و «ستيلا» و «جوتر» و «اروين» وعدة آثار أخرى رفعت مرتبة جوته فوق مراتب معاصرية الالمان فأصبح اسمه على حداثة سنه حديث مجالس الأدب وتعدت شهرته حدود بلاده. ووقع له فى أواخر سنة ١٧٧٤ حادث كان له أعظم الأثر فى حياته وهو انه تعرف بكارل أوجست دوق فيمار فى مدينة «كالسر» بمقاطعة بادن فدعاه الدوق لزيارة فيمار وبعد سنة قابلة مرة أخرى فى فرنكفورت وكان عائداً يومئذ مع زوجته إلى فيمار فدعاه مرة أخرى

لزيارته فقبل جوته الدعوة وذهب إلى تلك العاصمة فى ٧ نوفمبر سنة ١٧٧٥ ولم يخطر بباله يومئذ انه كان قاصداً إلى مدينة سيتخذها له موطناً إلى آخر العمر.

وقضى جوته بضعة الأشهر الأولى فى فيمار يمتع النفس بجميع مباهج الحياة وتعلق به الدوق تعلقاً شديداً، ومع ان دوقية فيمار كانت فقيرة وسواد أهلها من الفلاحين، إلا انها كانت بفضل أميرها مثابة رجال العلم والفن والأدب وكانت تنافس فى ذلك العصر بوتسدام.

ولم تمض على اقامة جوته بفيمار أشهر حتى عهد اليه الدوق فى أحد مناصب الدولة، واشتدت أواصر الصداقة بين الأمير والشاعر فصارا لا يخرجان للنزهة الا معاً ولا يذهب أحدهما إلى مكان من دون ان يصطحب الآخر. واتفق أن الدوقة أماليا والدة الأمير، وكانت من أعلام الأدب فى ذلك العهد، تحسن الموسيقى وتميل إلى اللهو والمسرات لذلك أحسنت وفادة جوته ورحبت بمقدمه وصارت أمه وكان جوته يومئذ شاباً فى مقتبل العمر لا تجاوز سنة السادسة والعشرين، والدوق فتى فى الثامنة عشرة فقط ومع ذلك كان بعيد البصر صحيح الحكم وقد جمع حوله فى قصره العلماء والأدباء ومنهم سكندورف وهودر وفيلاند أستاذ والدته فى اليونانية والأداب ومهذب الدوق نفسه وكان من شعراء المانيا المعدودين فى ذلك العصر.

ويظهر أن انصراف جوته فى أوائل اقامته بفيمار إلى اللهو والطرف واضطراره إلى القيام بواجبات منصبه حالا دون اخراجه أى مؤلف يستحق الذكر ولكنه يقول فى ذلك انه لم يضع وقته باطلاً بل كان يدرس ويعد العدة لإخراج مؤلفات جديدة.

وكان منصبه يدر عليه مائتى جنيه فى السنة وهو مبلغ ما كان ليستهان به فى ذلك الزمن ولا سيما فى مثل امارة فيمار الفقيرة ولذلك كثر حساده وأخذوا يشكون منه مر الشكوى، ولكن الأمير لم يعبأ بشكواهم ولم يكترث لها وقويت أواصر الصداقة بينه وبين جوته حتى أنه منحه داراً ذات حديقة غناء على نهر «الألم» ليقيم بها.

وما كانت عزة نفس جوته لتأذن له بأن يتقاضى أجراً كبيراً من منصبه دون أن يقوم بأعباء ذلك المنصب لذلك عكف على درس شئون الدولة لتصريفها على الوجه الأفضل بهمة واخلاص، وكان كل اهتمامه منصرفاً لى ترقية الفنون والتمثيل وتنظيم النواحى الحربية والمالية وتنفيذ الأعمال التى فيها صلاح الدولة. وقضى فى القيام بتلك الأعباء المضنية عشر سنوات متتالية شعر بعدها بالتعب فأشارعليه الدوق أن يأخذ قسطاً من الراحة.

وكان فى أثناء ذلك قد نظم روايات كثيرة مثل بعضها فى مسرح فيمار ونظم رواية أخرى سماها «انتصار العواطف» وسخر بها من الذين كانت روايته «فرتر» قد أثرت فيهم تأثيراً سيئاً. وفضلاً عن ذلك اشتغل بالعلوم والفنون ووقف جانباً من وقته على تنظيم مدينة فيمار وتجميلها وتحسين هندستها واصلاح حدائقها واهتم كذلك بالزراعة وفلاحة البساتين والمكتشفات الطبية.

وسافر جوته إلى ايطاليا سنة ١٧٨٦ وقضى فى هذه الرحلة عشرين شهراً نال خلالها ما كان فى حاجة اليه من الراحة وشهد بلاداً كان يتوق إلى رؤيتها. وقد أثر فيه جمال ايطاليا وعظمة آثارها الخالدة وأوحت إليه الشعر والتصوير واخرج وهو فى ايطاليا ثلاثا من أحسن رواياته التمثيلية وهى افيجينيا وايجمونت وناسو. وقد قال عن زيارته لايطاليا انها اهم حوادث حياته. ولما عاد الى فيمار شعر الجميع بأنه قد طرأ عليه انقلاب خطير فأصبح رزينا جاف الطباع.

وكان ذلك فى ابان سطوة نابليون. وكان الفرنسيون قد غزوا فيمار وكان قبل ذلك قد تعرف بشيلر أحد كبار شعراء ألمانيا فى ذلك العصر ودامت أواصر هذه الصداقة متينة الى النهاية ولم يظهر بين الشاعرين أى أثر للمنافسة مع أن أهل فيمار حاولوا الايقاع بينهما. ولما توفى شيلر سنة ١٨٠٥ كتب جوته الى أحد أصدقائه يقول «اننى قد فقدت نصف حياتى».

واحتل الفرنسيون فيمار انتقاما من الدوق كارل أوجست الذى أظهر عطفا على البروسيين فانبرت الدوقة لويز لنابليون واستعطفته ليعفو عن زوجها فأجابها الى سؤالها وحسنت بعد ذلك علاقة الدوق بنابليون على مقربة من فيمار

استدعى جوته وجرى له معه حديث ممتع أعجب نابليون على أثره بجوته أشد الاعجاب حتى انه قال للذين حوله بعد انصراف جوته «هذا انسان !».

ولما تألبت أوروبا كلها على نابليون سنة ١٨١٣كان لذلك أشد الوقع فى نفس جوته اذ كان يعطف على نابليون حتى اتهمه الكثيرون بأنه مارق من الوطنية،الأن جوته لم يكن ينظر الى العالم نظرة التحيز الجنسى الضيقة بل كان يحسب العالم كله مملكة واحدة والبشر كلهم اخوانا وقد نشأعلى تلك الروح حتى بلغ تلك السن.

وعاش جوته حتى شبع من الأيام وذاق من مباهج الحياة أحلاها وعاشر الكبراء والأمراء والعلماء والأدباء وتمتع بشهرة ذائعة وبشيخوخة حافلة بجلائل الأعمال وقضى نحبة فى الثانية والثمانين من عمره بعد ان ترك كنزا لم يتركه غيره من رجال الأدب.

كان غوته خلافا لنيتشه عبقرى التناقضات العميقة، يتفنن فى تحاشى الأخطار، يملك طريقة خاصة فائقة الجرأة فى مجابهة هذه الأخطار وهو من الكتاب الالمان الذين كانوا مصابين بالجنون الدورى، وفى هذا المرض يتناوب الهوس والانقباض المريض،وهذا ما حدث له . وكثيرا ماكان يجلس أسابيع أو أشهراً حزيناً، منقبض الصدر، عديم الحركة، تعذبه الآلام الوهمية، وقد شرع فى الانتحار مراراً. ويقال ان عدداً كبيراً من الشخصيات التى كان يصورها فى مؤلفاته كانت صورة حقيقة لبعض ما كان يحس به.

اعتصم جوته بالعصاب لكى يجد فيه الأمن النفسى. ومن البدهى اذن أن يكون العصاب ذاته ضرورياً له بصورة شعورية أو لا شعورية، ما دام يجد فيه الأمن. ولا يتذمر الشخص من عصابه بصورة عامة، بل يتذمر مما يؤلمه. وما يؤلمه ليس العصاب ذاته الذى يصبح لا شعورياً. بيد أن هذا العصاب يسبب اعراضاً، هى الأغراض المؤلمة التى كان يرغب غوته فى التخلص منها.

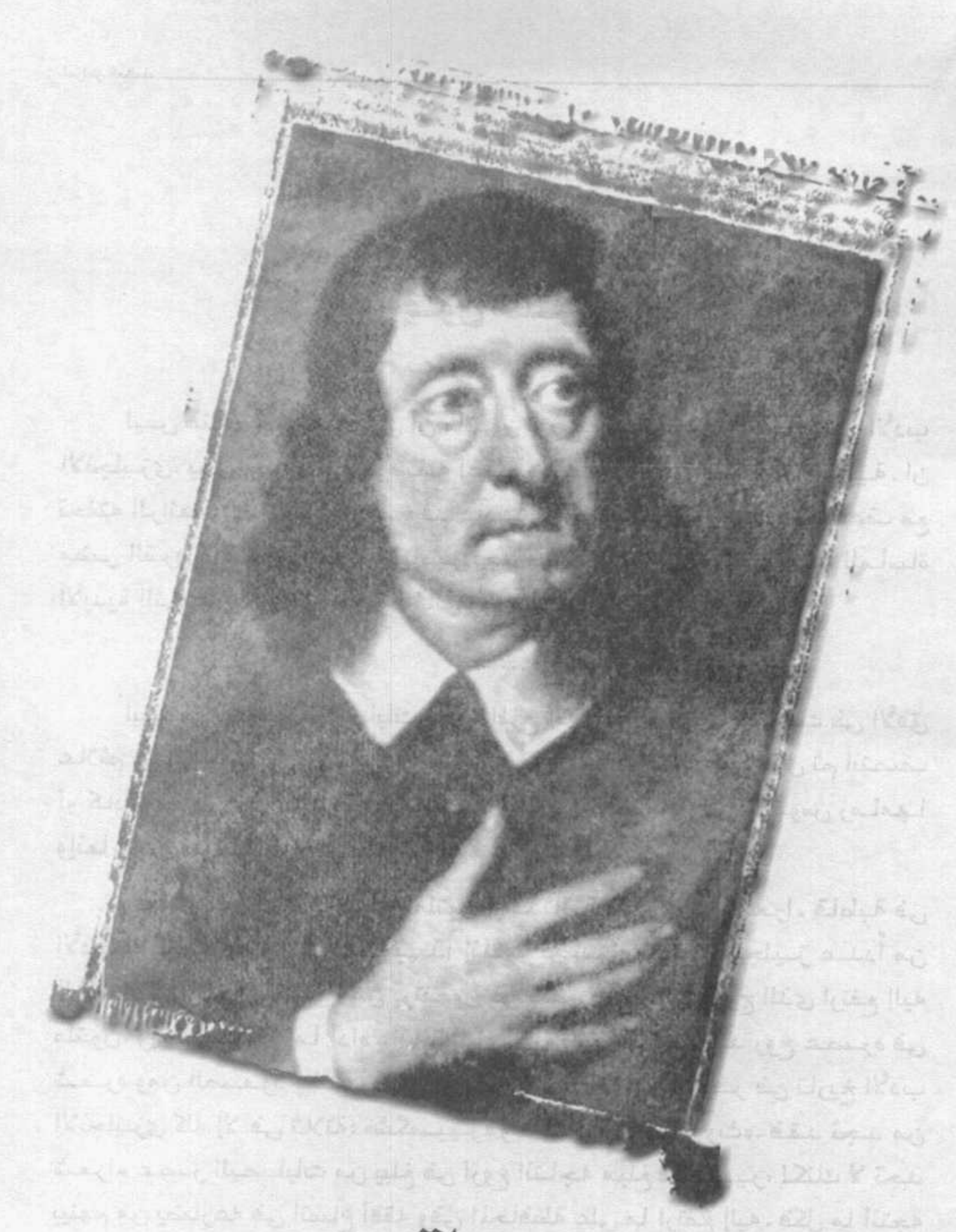
إن العصابية او الاضطراب العصبى ليس مرضاً عضوياً يمكن تحديد عوارضه ومسبباته ببساطة لاتخاذ ما يجب لاتقاء هذه المسببات عند المصاب واعطاء العلاج الشافى. فالأعراض متباينة من شخص لآخر والأسباب مختلفة

وغامضة وتكمن فى طيات العقل الباطنى مما يستوجب علاجه الكثير من الصبر والإرادة القوية والعناية الجدية للتوصل إلى مكامن الداء، ورغم التباين فى الظواهر والحالات عند المصابين، فإن اكثرهم يشتركون فى الأصل بتميزهم بحساسية خلقية مرضية، فهم يتأثرون بمؤثرات ودوافع لا تبدو ذات اهمية عند غيرهم.

من أبرز عوارض هذا المرض كما يتول أ. سمير عبده فى كتاب «نفسيات المشاهير» هو استمرار حيرة المصاب وعدم ادراكه ما يريد من الحياة فى قلق نفسى دائم لا يستطيع معه ان يحدد نقاط شكواه، حتى اذا ما استأنس شخصاً وراح يحدثه بمشاكله تلعثم وعلت وجهه حمرة الخجل وازداد خفقان قلبه واعترت يده رجفة وانقبضت شفتاه .. لا قدرة له على التركيز أو استيعاب الدرس أو اكمال العمل الذى بين يديه، وهو لذلك دائم التنقل من عمل إلى آخر، ومن حرفة إلى غيرها فى شكوى مستمرة من التعب وعدم تمكنه من احتمال المشاق..نوم مضطرب..احلام مزعجة..توتر فى العضلات..خوف من الأماكن المظلمة أو المفتوحة الخالية من السكان.»

وكثيراً ما تعتريه فترات تستولى عليه فيها كآبة مظلمة يبدو فيها وقد فقد كل ثقته بنفسه وانتابته دوخة مع شعور بوجود ضغط شديد على عنقه وصدره..متردد فى تفكيره. تراه احياناً وقد تملكته رغبة الهرب من نفسه والاختلاط بالناس فى محاولة بائسة للبحث عن السلوى، وأحياناً يخلد إلى العزلة والانطواء على النفس فى اجترار آلام وذكريات مؤلمة، وهو غالباً ما يهتم بأمور تافهة تكبر وتكبر فى مخيلته، بينما يهمل امور جوهرية فى واجباته وسلوكه وتصرفاته مما ينفر الآخرين عنه. وقد كان جوته فى فترات اخرى محباً عطوفاً.

***



جـون ملتـون

من أعظم الشعراء الإنجليز.. فاقد البصر وواصف الفردوس المفقود !!

جـون ملتــون

ليس هنـاك أدنى شـك فى أن ملتـون هـو أحـد الصـور الكبـرى فى الأدب الانجليـزى، يجئ بعـد دانتى بوصفـه أعظم شـاعر لادع فى الثقـافة الغربيـة. ان تحفته الرائعة «الفردوس المفقود» قد عادت إليه بمجد عالمى ما فتئ يتضاعف مع مضى القرون، كما أن القارئ المعاصر يجد فى دنيا ملتون صورة عظيمة للمأساة الأبدية التى تدور بين المخلوق والخالق وبين الإنسان وقدره.

*****

انقضى عـصـر اليـصـابات بأدبه المرح الجـذل الطروب، فـلاحت فى الأفق عـلائم عصر جديد وروح جديد. فها هو القرن السابع عشر قد أقبل ثم انتصف أو كاد، وها هى روح التـزمت فى الحيـاة والأدب قـد ملكت على النفوس زمـامهـا وإنما تجسمت تلك الروح وبلغت ذراها فى شاعر العصر جون ملتون.

وقد أجمع النقاد على أن «ملتون» أحدثلاثة هم أعظم الشعراء قاطبة فى الأدب الانجليـزى. ولسنا نعنى بهـذا إنك لا تجـد بين أدباء الأنجليـز عـدداً من الشعراء قد يبلغ العشرين ممن يرتفعون فى بعض أدبهم إلى الأوج الذى ارتفع إليه ملتـون، وإنما نعنى أن مـا أداه هـذا الشـاعـر العظيم من تجـسـيـد روح عـصـره فى شـعـره ومن الصـعـود بشـعـره إلى أوج لم يهـبط منه، لم يتـوفـر فى تاريخ الأدب الانجليـزى كله إلا فى ثلاثة: «شكسـبـيـر» و «ملتـون» و «وردزورث». فـقـد تجـد من شعراء عـصـر اليـصـايات من يبلغ فى أروع انتـاجـه مبلغ شكسـبيـر، لكنك لا تجد بينهم من يضارعه فى اتساع أفقه وفى المحافظة على ما ارتفع إليه. فكل ما أنتجه شعراء عصر اليصـايات تجد له نظيـراً عند شكسـبيـر والعكس صـحيح، أعنى أن لشكسبير آيات لا يدنو منها شيئ مما أنتجه سائر الشعراء فى عصره وهكذا قل فى «ملتون» و «وردزورث».

كان «ملتون» أصدق لسان يعبر عن خواطر عصره كله، فكانت له غاية واحدة رئيسية ينشدها كل ما أنشد من الشعر، وما تلك الغاية المنشودة إلا بغية عصره وأعنى بها أن يقيم الناس برهاناً على عدل الله وحكمته تلك هى غايته التى قصد إليها تلميحاً فى شعره كله وأفصح عنها تصريح فى مطلع «الفردوس المفقود»، ولكى نفهم روح العصر كانت حيوية جارفة تسود العصر، حيوية تدفع الإنسان إلى الإنغماس فى كل ما يزيده استمتاعاً بالحياة دون أن يجد من العقل أو الضمير ما يكبحه فمغامرات فى جوف المحيط، وتلقف لكل ثقافة جديدة يستخرجها رجال النهضة من أسفار القدماء، فعهد اليصابات فى الأمة هو مرحلة الشباب الفتى الطموح، فيه تحطيم القيود الذى نعهده من الشباب، وفيه الأمل الباسل، وفيه الجدة والنضارة، وفيه الرغبة الملحة فى تحصيل العلم، وفيه الخروج على معايير الأخلاق، وفيه حب الاستطلاع وركوب المخاطر مما نراه كذلك فى فتوة الشباب.

فلما انقضت عن العصر دوافع الشباب ونزواته وذهبت عنه نضارة الشباب وروعته، أقبل على الناس عهد استيقظ فيه الضمير ليحاسبهم على ما قدمت أيديهم فى العهد الذى أدبر، عهد لم يقبل الحياة بكل ما فيها وهو بها فرح مغتبط، بل أخذ يقدر خيرية العمل وشريته قبل أدائه، عهد أراد فيه القوم أن يحتكموا إلى الكتاب المقدس كما هو بحروفه وألفاظه بغير تأويل وتحريف وذلك هو عهد التزمت الدينى الذى كان له شاعرنا جون ملتون لسانه المعبر الناطق.

«جون ملتون» سليل أسرة من أوساط الناس، ولد فى لندن عام ١٦٠٨ وأكمل تعليمه فى كمبردج عام ١٦٣٢، حيث درس الآداب القديمة درساً رقيقاً وغادر الجامعة وهو يعرف اللغة العبرية خير معرفة، كما يجيد من الآداب الحديثة الانجليزى والايطالى والفرنسى وفضلاً عن ذلك، فقد برع فى الموسيقى واستمد منها لذة ومتعة.

وما لنا نطيل الوقوف عند أنباء حياته كأنه ليس أمامنا خضم من أدبه زاخر؛ فنأخذ من فورنا فى استعراض هذا التراث القديم وسنقسمه لتيسير دراسته إلى ثلاث مراحل:

١- المرحلة الأولى:

شعره قبل سنة ١٦٣٩: كان من أروع شعره الذى أنتجه منذ غادر الجامعة حتى سنة ١٦٣٨ قصيدتا «للجرو» - أو الطروب، «والبنسروزو» - أو التأمل - ثم مقدمة مشهورة عنوانها «كومس» وأخيراً قصيدة تعد من آيات الأدب الأنجليزى هى «لسداس» التى رثى بها صديقه «كنج».

ففى القصيدتين المتعارضتين «لجرو» و «البنسروزو» أى الطروب والمتأمل يصور لنا الشاعر الحياة كما تبدو فى حالتين مختلفتين، يصورها كما تبدو فيمن يستبشر الحياة ويطرب لها ويسترعيه منها اللذائذ والمباهج ثم يصورها كما تبدو فيمن يغرق فى تفكيره وتأمله ويأخذ الحياة من جانبها الجاد الرصين. وهاتان الحالتان على اختلاف ما بينهما انما تصوران وجهين لحياة الشخص الواحد، فليس منا من لا يطرب للحياة ساعة ثم لا يشهد فيها إلا الجد ساعات أخرى. ففى قصيدة الطروب تلمح الشاعر وهو فرح بمباهج الطبيعة سعيد هانئ، وفى قصيدة المتأمل تراه فى تفكيره الجاد مثقل الفؤاد مهموم النفس. ولقد كان يظن أن ملتون أراد بالقصيدة الأولى أن يصور لنا الرجل من حاشية الملك فى عصره، وقد كان فارغ القلب لا يرى فى الحياة إلا لهواً ومرح. وأنه أراد بالقصيدة الثانية أن يصور الرجل من «المتذمتين» الدينين اللذين كان الشاعر واحداً منهم وقد كان لا ينشد فى الحياة إلا الجد الذى لا يعرف المزاح والعبث، ولكن عاد رجال النقض فبينوا أن الشاعر لا يريد بقصيدته إلا أن يصور نفسه بوجهيها، فليس من اللذائذ التى يحتفل لها فى قصيدة «لجرو» ما يتنافى مع خلق التذمت الدينى الذى عرف به ملتون، فمباهج النفس فى هذه القصيدة هى الربيع ونضارة الصباح وتغريد القبرة وشروق الشمس والرجال والنساء يشتغلون فى الحقول، والقصص يروى بجوار المدفأة فى المساء وضجة الحياة فى المدينة الشامخة بأبراجها، والروايات التمثيلية تجرى على المسارح.

وأما فى قصيدة «البنسروزو» فترى الشاعر بين كتبه فى برج عالى منعزل يقرأ الفلسفة والعلم، وتراه إذا غادر برجه ليمشى فإنما يختار المماشى المنعزلة

بين الأحـراش ويقصـد إلى الكنائس التى بنيت على أسـاس الفن القوطى الجليل، تراه يلتفت إلى غروب الشمس لا إلى شروقها وإذا أنصت إلى تغريد الطير، فإنما ينصت إلـى البلبل وهو يغنى فى جوف الليل وهكذا يصور لك الشـاعر نفسه فى حالته لكنه يختار لنفسه الحالة الثانية ويؤثرها على الأولى.

نختم الحديث عن شعر المرحلة الأولى بكلمة عن قصيدة «لسداس» وهى المرثية الرائعة التى بكى بها الشاعر زميله فى الدراسة «كنج» الذى ابتلعه أليم وهو يعبر البحر إلى أيرلندة.

و «لسداس» قصيدة من الشعر الريفى، الذى يحاول فيه الشاعر أن يلبس أشخاصه أثواب الرعاة وأن ينطقهم بحديثهم وأن يجعل الجو كله فواحاً بأريج الريف اساذج فهو يطلق على صديقه «كنج» أسماً ريفياً هو «لسداس» وهو يشير إلى زمالتهما أيام الطلب فى الجامعة.

كتب ملتون قصيدة «لسداس» سنة ١٦٣٧، وهو ما يزال فى بيت أبيه الذى أوى إليه بعد أن غادر الجامعة ولم يكن بعد قد اشتغل بالحياة العملية، بل كان يواصل الدراسة بالقراءة وفى العام نفسه ماتت أمه، فلم يلبث أن ارتحل إلى أروبا يجوب أقطارها وزار ايطاليا بصفة خاصة والتقى أعلام الأدب فيها. وهنالك كتب بعض القصائد اللاتينية والايطالية ثم أسرع بالعودة إلى بلاده حين جائته الأنباء أن حبل الأمور قد أضطرب فيها وهنا نبدأ مرحلته الأدبية الثانية.

٢- المرحلة الثانية ١٦٤٠ - ١٦٦٠:

فى هذه المرحلة أنتج مؤلفاته السياسية وأدبه النثرى وكان من أول ما كتبه بعد عودته إلى لندن رسالة صغيرة «فى التربية» نشرت سنة ١٦٤٤، وفيها يقترح أن تشمل تربية الناشئ ثقافة عريضة على أساسين: هما الآداب القديمة والمواد التى تنفع فى الحياة العملية، فيدرس الطالب الأدب والفلسفة والسياسة والقانون والطب وفن الحروب، إذ لابد أن يعنى فى التربية بأجسام الناشئين وعقولهم ونفوسهم على السواء ثم هو يوصى إلى جانب ذلك بالموسيقى التى تبعث البهجة فى النفوس.

وكان قبل نشره رسالة التربية قد كتب بعض رسائل دينية يدافع فيها عن عقيدة «المتذمتين» وعقب عليها بمجموعة أخرى من الرسائل الصغيرة تدول حول الطلاق ووجوب تنظيمة، وذلك على أثر فشله فى زواجه فقد كان تزوج من «مارى باول» التى لم يطل بها العهَد معه حتى ذهبت فى زيارة إلى أبويها وأبت أن تعود إليه.

لكن حماسة ملتون فى هذه الرسائل الخاصة بالطلاق سرعان ما فترت، حين استسلمت له زوجته بعد نفور وعصيان وأنجبت له ثلاث بنات وعاشرته فى هدوء، حتى جائتها المنية وهى لا تزال شابة فى عامها السادس والعشرين.

وننتقل الآن إلى أشهر ما جرت به براعة ملتون نثراً، وأعنى رسالة عنوانها «أريوباجتكا»، وقد حدث فى سنة ١٦٤٣ أن فرضت على النشر رقابة بحيث لا ينشر كتاب جديد إلا إذا أجازته لجنة أقيمت لذلك فقابل ملتون هذا النظام بالمقاومة والتحدى ونشر أولى رسائله الخاصة بالطلاق دون أن يستأذن فى نشرها الرقيب وزاد فى تهكمه بأن أهدى الرسالة إلى البرلمان الذى فرض تلك الرقابة الأدبية، ثم عقب على ذلك التحدى بنقض صريح وجهه للرقابة فى هذه الرسالة التى نحدثك عنها والتى عنوانها «أريوباجتكا» خطبة موجهة إلى برلمان انجلترا دفاعاً عن حرية الطباعة بغير رقابة.

ولنمضى الآن مسرعين فلا تقف، عند سائر نثره السياسى الذى أخذ يخرجه رسالة بعد رسالة، والذى أفقده البصر وهو فى عامه الرابع والأربعين، لنقول كلمة قصيرة فى مقطوعاته الشعرية ننتقل بعدها إلى آيته الكبرى «الفردوس المفقود» فقد صمت ملتون عن قول الشعر عشرين عاماً امتدت منذ عودته من ايطاليا، حتى عادت الملكية إلى انجلترا بعد أن أبعدت عن البلاد حيناً كان يتولى الحكم فيه «كرمول» الذى كان شاعرنا من أنصاره، صمت ملتون عن قول الشعر خلال الأعوام العشرين التى تفرغ خلالها إلى النسخ؛ لأنه أداه أنسب للعراك السياسى الذى شمل البلاد، صمت شاعرنا عن قرض الشعر إلا «مقطوعات شعرية» قالها بهذه المناسبة أو تلك، وبعض هذه المقطوعات ذاتى يعبر عن حالته الصحية كالمقطوعة المشهورة التى قالها حين فقد البصر، وبعض

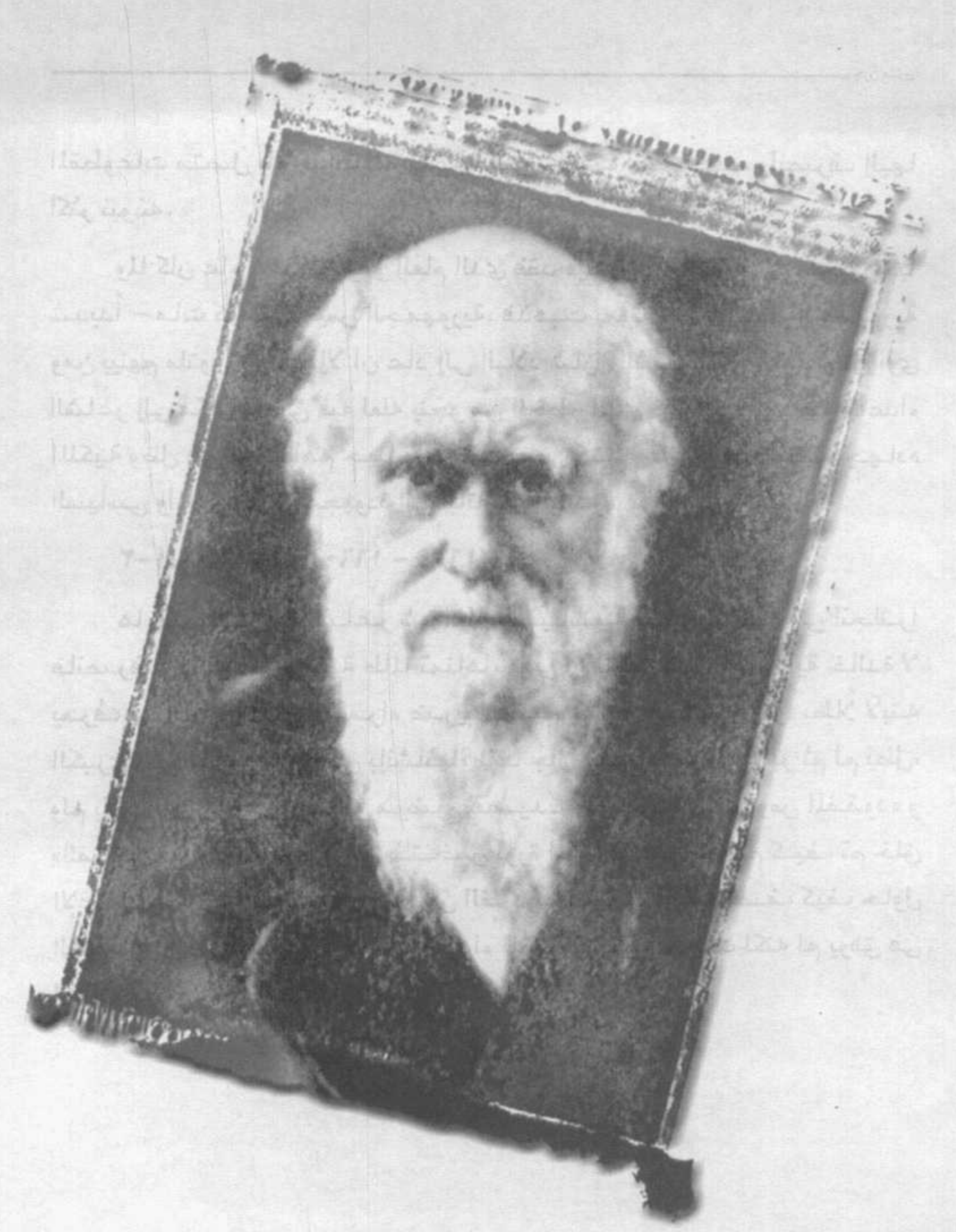
المقطوعات متصل بالأحداث السياسية التى شهدت أكبر جهده وأنصرف إليها أكثر نبوغه.

ولما كان عام ١٦٥٨ – وهو العام الذى فقد فيه زوجته الثانية التى أحبها حباً شديداً – مات كرمول رئيس الجمهورية، فذهبت بموته آمال أنصار الجمهورية ومن بينهم ملتون وما هو إلا أن عاد إلى البلاد شارل الثانى سنة ١٦٦٠، حتى آوى الشاعر إلى مكان يختبئ فيه لعله ينجو من الخطر الذى كان لابد أن يحيق بأعداء الملكية وظل فى مخبأهم حيناً وأحرقت بعض كتبه علناً وبهذا انتهى جهاده السياسى وأنصرف بكل مجهوده إلى آياته الخالدات.

٣- المرحلة الثالثة (١٦٦٠ – ١٦٧٤):

ها قد زالت من الشاعر شواغله السياسية بعودة الملكية إلى انجلترا فانصرف إلي تحقيق أمنية طالما تمناها، وهى أن ينشئ فى الشعر آية خالدة لا يعرف لها بين ما أنتج الشعراء ضريباً ففيم يكتب؟ أيختار «آرثر» بطلاً لآيته الكبرى التى أعتزم أن ينهض بإنشائها؟ لقد جال بنفسه هذا الخاطر ثم لم يطل، ولم يلبث أن اتجه بفكره نحو موضوع قصيدته الكبيرين «الفردوس المفقود» و «الفردوس المردود»، ان الأولى فتخص ثورة الملائكة على الله ثم كيف تم خلق الإنسان واغرائه وسقوطه طريداً من الفردوس، أما الثانية فتصف كيف حاول الشيطان أن يغرى المسيح وهو فى البيداء المقفرة بشتى المغريات لكنه لم يوفق فى اغرائه وخرج المسيح ظافراً.

***



دارويـــن

صاحب نظرية التطور التى مازالت تثير العلماء حتى يومنا هذا!!

شارلز داروين

نظرية التطور من النظريات الكبرى التى تسيطر على الثقافة العالمية، وتصبغ عقلية المفكرين فى جميع أنحاء العالم الآن. وهى قائمة فى الأصل على درس التاريخ الطبيعى للإنسان والحيوان والنبات.

والواقع أن أية نظرية علمية، لم تحظ بجدل واسع، ونقاش مستمر، مثلما حظيت به نظرية التطور، وأصل الأنواع، وظهور الإنسان على هذا الكوكب، وعلاقته بما ظهر قبله من ملايين الأنواع - الباقية منها والمنقرضة - وطبيعى أن الجدل المستمر فى أية مسألة علمية هو ظاهرة صحية، خاصة اذا قام بهذا الجدل علماء متخصصون، وليس ذلك مردة إلى رداءة أو قصور فى النظرية، لأن الردئ لا يستحق جدلا أو مناقشة يضيع العلماء فيهم وقتهم، ويستهلكون طاقتهم، فالردئ هو الذى يسقط نفسه بنفسه، بل يرجع استمرار الجدل حتى اليوم، أو فيما قد يتلوه من أجيال إلى اختلاف فى وجهات النظر على النظرية التى وضع داروين بذرتها، أو النظريات الأخرى التى جاءت بعدها.

ورغم مرور أكثر من مائة عام على موت داروين، فان نظريته لازالت حية بل انها تزداد حيوية واشراقاً، لا فى عقول الناس، بل فى عقول العلماء الذين يفكرون بطريقة منظمة، مستمدين زادهم الفكرى من قوانين الكون وشرائع الحياة، اذ كلما مرت السنون وتطورت البحوث، وزادت حصيلة العلماء من الأسرار الكثيرة التى تنطوى فى خلق الكائنات، أصبحوا من حقيقة التطور قاب قوسين أو أدنى.

وبعد..فان من حق القارئ أن يعرف شيئاً عن ترجمة هذا المفكر العظيم، لأنه لا يمكن أن ينفصل مؤلف عن مؤلفاته، اذ هى تصطبغ وتصاغ وفق مزاجه وذكائه، وقبل كل ذلك وفق العوامل الثقافية التى تعاصره.

حياة داروين وتكوين فكره

ولد تشارلز داروين فى ١٢ فبراير عام ١٨٠٩ فى «شرو سبورى» من أسرة اشتهرت بنزعتها العلمية حيث خرج منها قبل مؤلفنا عالم آخر نال شهرة كبيرة وهو «ارازموس داروين» جد تشارلز ومؤلف كتاب «قوانين الحياة الحيوانية» وهو الكتاب الذى نجد فيه بذور النظرية التطورية التى خلدت اسم داروين.

وقد ظهر الميل إلى جميع نماذج النباتات والحشرات عند تشارلز داروين فى سن مبكرة. وذكر هو نفسه ذلك فى مذكراته التى كتبها عن تاريخ حياته اذ يقول: «كان حب جمع النماذج عميقاً فى نفسى مما يدفعنى إلى التأكيد بأنه كان عندى غريزة فطرية، اذ لم يظهر هذا الميل عند واحد من أشقائى أو شقيقاتى. ولا شك أن هذا الميل هو الأساس الذى يجعل من الإنسان عالماً طبيعياً مدققاً أو يجعل منه أحياناً مهووساً أو شحيحاً».

وفى سن السادسة عشرة رحل داروين إلى أدنبرة ليدرس الطب ولكنه أن أظهر امتعاضة وكراهيته لتلك الدراسة، وان كان فيما بعد قد أسف أسفاً شديداً لأنه فوت على نفسه الفرصة التى كان يستطيع أن يتقن فيها فن التشريح. وبعد مضى سنتين على التحاقه بدراسة الطب أدرك والده الدكتور روبرت وارنج داروين أن ابنه تشارلز لا يرجى منه أمل فى أن يكون طبيباً ناجحاً. وفكر فى تحويله لدراسة اللاهوت ليصبح رجلاً من رجال الكنيسة. ولم يكن يدور بخلد الوالد أن ابنه، بدلاً من أن يصبح خادماً لمبادئ الكنيسة، سيعلن بنظريته عن العالم وخلق الكائنات وتطورها مبادئ تقلب نظريات اللاهوت رأساً على عقب، وتقيم الكنيسة وتقعدها وتجعلها تشن حرباً لا هوادة فيها ضد هذا الرجل الذى اتهمته بالالحاد والكفر والمروق.

ورحل داروين إلى كمبردج فى أوائل عام ١٨٢٨. ولكنه لم يدرس اللاهوت، بل أمضى فى هذه المدينة الجامعية ثلاث سنوات انصرف فيها إلى حياة اللهو، على أن هذه السنوات الثلاث فى الحقيقة لم تضع كلها هباء! اذ ان معيشة

داروين فى المدينة الجامعية القديمة قد ساعدت على ظهور الموهبة الكامنة فيه، ونعنى بها موهبة العالم الطبيعى. وكما يحدث فى كثير من الحالات ظهرت هذه الموهبة على أثر قراءته لبعض الكتب. فاستطاع على أثر هذه القراءة أن يتعرف على مواطن القوة فى نفسه، وأن يقبل على البحث فى المجال الذى يتفق مع ميوله واستعداده. واستحوزت على نفسه فكرة سامية أراد أن ينفذها بعزم وقوة وهى أن «يضيف إلى بناء العلوم الطبيعية الشامخ حجراً يضعه بنفسه مهما كانت قيمته المتواضعة».

وما لبث أن ظهرت فرصة أخرى ساعدت على توجيه الشاب الجامعى نحو هوايته الحقيقية بعد قراءته لأخبار «همبولت» Humboldt وصداقته للأستاذ «هنسلو» أستاذه فى علم النبات، وانتمائه «لنادى الذواقين»، فقد اقترح بعض أعضاء هذا النادى القيام بأبحاث تجريبية على أنواع من النبات والحيوان قد تؤدى إلى استنباط «أكلات جديدة» غير تلك التى ألفها الناس. هذه الظروف جعلت الطالب فى جو غريب امتزج فيه حماسه للعلوم التجريبية بخياله عن البلاد والقارات النائية التى تحوى عجائب من الحيوان والنبات، وبتعلقه المتهوس بجميع الطوائف والغرائب. ففى هذا الوقت أخذ داروين يجمع الحشرات ويحلم بالرحلة إلى «جزر كنارى» فى المحيط الأطلسى.

وعندما ترك داروين كمبردج حاملاً رجة الماجستير فى الأدب عام ١٨٣١، كان يدرك تمام الادراك أنه ما من شئ يستحق منه الاهتمام سوى دراسة التاريخ الطبيعى.

الرحلة التى كونت فكره

وبينما كان داروين على هذه الحال، اذ أتيحت له فرصة ذهبية مكنته من تحقيق جميع أحلامه، وفتحت أمامه مجال البحوث وجمع المعلومات التى أدت فى أواخر الأمر إلى نظريته عن «أصل الأنواع».

فقد كتب أستاذ الفلك فى كمبردج إلى «هنسلو» أستاذ داروين يطلب إليه أن يختار له شاباً له المام وولع بدراسة التاريخ الطبيعى ليرافق بعثة علمية إلى «أرض النار» والأرخبيل الهندى. وفكر هنسلو على الفور فى داروين. وكتب إلى تلميذه يقول: «اننى لم أخترك لأننى أعتبرك عالماً طبيعياً بلغ منتهى الكمال، ولكنى أعرف

انك تستطيع أن تستغل أحسن استغلال هوايتك لجمع النماذج وملاحظة الأشياء وتدوين هذه الملاحظات بدقة وعناية. ولا شك أنك ستسجل كل ما يستحق أن يسجل بالقياس إلى التاريخ الطبيعى».

وبالرغم من أن هذه البعثة قد استغرقت خمس سنوات فهى تعد أخصب فترة من حياته، فقد كانت سلسلة من المجهودات الشاقة والمتاعب المضنية.

وكان أعضاء البعثة التى أبحرت على ظهر سفينة الأبحاث «بيجل» مكلفين بدراسة أجواء وتضاريس سواحل بتاجونيا وأرض النار وشيلى وبيرو وبعض جزر المحيط الهادى. أما داروين فقد كلف بدراسة النبات والحيوان فى تلك المناطق. وقبل أن ترسو السفينة على الشاطئ لأول مرة كان داروين قد استطاع أن يحلل الأتربة التى يحملها الهواء فى جو المحيطات، ويميز فى هذه المحيطات سبعة وستين نوعاً من الحيوان والنبات. ورست السفينة على أرض النار حيث استطاع مؤلفنا أن يتأمل لأول مرة الإنسان فى حالة البدائية، وتركت هذه المشاهدة فى نفسه أثراً لا يمحى. فكانت قوة تأثره بهذا المنظر دليلاً على أن المشكلة العلمية والفلسفية الخاصة بأصل الإنسان كانت قد بدأت تشغل ذهنه وتحتل مكاناً معيناً من تفكيره.

ومما لا شك فيه أن النظريات الأساسية التى أعلنها داروين فى كتابه «أصل الأنواع» قد تكونت فى ذهنه رويداً رويداً خلال هذه الرحلة. فدراسته لحفريات الحيوانات فى سهول «البمباس» وملاحظته للاختلافات البسيطة التى تحدث عند الحيوانات التى من أنواع متقاربة كلما تقدم نحو الجنوب من القارة الأمريكية، جعلته يتصور بوضوح فكرة التغير التدريجى للأنواع. كما أن التجارب والملاحظات التى أجراها خلال هذه الرحلة الطويلة كانت بمثابة الغذاء والمؤونة التى عاش عليها طوال حياته العلمية.

وبعد عودته من رحلته عام ١٨٣٦ استقر فى لندن، ثم انتقل بعد ذلك إلى كمبردج. وبدأ فى ترتيب الوثائق والمجموعات النباتية والحيوانية التى جمعها، ويكتب فى الوقت نفسه «رحلة عالم طبيعى» عام ١٨٣٩. وتجسمت فى ذهنه

نظرية «أصل الأنواع» والواقع أن هذه النظرية لم تكن عنده وليدة تأملات فلسفية حاول بعد ذلك أن يدعمها بالمشاهدات، بل ان الأمر على العكس من ذلك تماماً، فان الظواهر التى لاحظها والعلاقات التى لمسها بين هذه الظواهر وأوجه الشبه التى صادفها هى التى قادته إلى هذه النظرية التى أصبحت كشفاً عظيماًفى علم الحياة. وقد كان داروين نفسه يدهش أحياناً أشد الدهشة من عدد الظواهر التى تقع تحت ناظريه فى تسلسل ولضح، ولا تدع لديه أى مجال للشك فى صدق نظريته. وكتب إلى صديق له يصف هذا الأمر بقوله: «لقد ملأت كراسات بعد كراسات بالملاحظات، ودهشت للظواهر التى كانت تتجمع من تلقاء نفسها بوضوح بحيث يسهل وصفها تحت قوانين ثانوية».

ولما كانت حياة داروين تسير وفق نظام دقيق، فقد خلقت له هذه الحياة خير الظروف لازدهار جميع قواه ومذاهبه وللانتفاع بها على أحسن وجه. والواقع أن التنظيم الدقيق لمواعيد يومه هو الذى يسر له جمع ملاحظاته العديدة وتبويبها وترتيبها. وكان يعمل فى صبر وأناة لتدعيم مستقبله العلمى بدون أن يهتم بالمظاهر أو ألقاب الشرف أو النياشين، كما لم يكن عنده غرور أولئك العلماء الذين يصمون آذانهم عما يتردد فى العالم الخارجى. ولم يكن يحتد أو يغضب لما ينشر عنه من نقد مجحف بسبب ما يصل اليه من نتائج علمية جريئة، ولم تستطع المناقشات الحادة والجدل العنيف الذى ساد أوساط العلم على أثر صدور كتابه «أصل الأنواع» أن تعكر من صفو حياته الرتيبة المنتظمة أو تبدل من هدوء ذلك الرجل.

وفى الوقت الذى ظهر فيه كتابه «أصل الأنواع»، أى فى عام ١٨٥٩ كان لداروين مؤلفات أخرى وبحوث عديدة فى علوم النبات والحيوان والجيولوجيا. فقد نشر فى سنة ١٨٤٢ مؤلفا عن «الشعب المرجانية» وفى سنة ١٨٤٥ «رحلة عالم طبيعى»، وفى عام ١٨٥٤ «وصف حياة المحار». ويجب ألا تحجب الأهمية الفلسفية لكتابيه الخالدين «أصل الأنواع» و «سلالة الإنسان» قيمة بعض كتبه الأخرى مثل كتاب «النباتات آكلة اللحوم» وملاحظاته عن «حركات وعادات النباتات المتسلقة» ودراسته «للاخصاب» بالطريق المباشر وبطريق التهجين» و «لقدرة النباتات على الحركة».



دانتــى

الشاعر العظيم صاحب الكوميديا الألهية

دانتى

يعد دانتى اليجيرى واحداً من العباقرة الأربعين أو الخمسين الأوائل فى تاريخ البشرية. وهو يجد العناية والاقبال والدرس فى الجامعات والمعاهد والجمعيات الأدبية ولدى كثير من الناس فى أنحاء العالم المتحضر من اليابان شرقاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية غرباً، وقد عكف كثير من الباحثين منذ القرن الرابع عشر حتى اليوم - على دراسته وترجمته والكتابة عنه.

ومن الأمثلة على ضخامة التراث الدانتى إن نسخ «الكوميديا الالهية» المخطوطة فى العالم يتراوح عددها بين ٥٠٠، ٦٠٠ نسخة! ومن الأمثلة على ذلك أيضاً أن توفر كثيرون على تحقيق نصوص مؤلفاته الايطالية واللاتينية وأنه قد كتبت الالاف من الشروح والتعليقات الخاصة بها ووضعت المعاجم والفهارس وألفت الكتب التفصيلية والعامة ونشرت الدوريات الدانتية المختلفة وترجمت مؤلفاته إلى اللغات الأجنبية عشرات المرات فى لغات بعينها أحياناً ومثال ذلك اننا نجد الكوميديا قد ترجمت إلى الانجليزية حوالى ٤٥ ترجمة كاملة وترجمت إلى الفرنسية حوالى ٢٢ ترجمة كاملة وترجمت كاملة إلى الالمانية فى حوالى هذا العدد. وذلك عدد الترجمات الجزئية لها فى كل هذه اللغات، كما أن هناك ترجمات كاملة للكوميديا فى لغات أخرى عديدة كالأسبانية والبرتغالية والسويدية والبولندية والروسية والرومانية والمجرية والعبرية والتركية واليابانية والعربية.

وعلى هذا فقد اكتظت دور الكتب بالآلاف المؤلفة عن التراث الدانتى. فى عشرات من اللغات الحية فى كثير من أنحاء العالم مثل مكتبات الفاتيكان وفلورنسا ونابلى وبولونيا والبندقية وفيرونا وميلانو..فى ايطاليا ومثل مكتبات باريس واستراسبورج ونيس فى فرنسا ومثل مكتبة المتحف البريطانى ومكتبات

جامعات لندن واكسفورد وكمبريدج وادنبرة...وفى انجلترا ومثل مكتبات جامعات هارفارد وبوسطون وكورنيل..فى الولايات المتحدة الأمريكية وتبلغ محتويات المجموعة الدانتية فى جامعة كورنيل - مثلا - حوالى ١١٠٠٠ (أحد عشر ألف) مجلد كما أحصيت فى خريف ١٩٦٢! وربما كانت هذه هى أكبر مجموعة من الكتب الدانتية فى العالم توجد فى مكان واحد.

ومن العلماء والأدباء الاعلام فى الدراسات الدانتية نجد باسكولى وكاردوتشى ودى سانكتس ودوفيديو وزنجاريلى ودل لونجو وفانديلى وباربى وبيتروبونو وبابينى من الايطاليين وبارلو ومور وتوينبى وجاردنر سايزر من الانجليز ولونجفلو ونورتون ولوويل وهوايت وويلكس وشاردى من الأمريكيين واوزانام واوفيت ولونيوم وججييه وماسيرون ورينوتشى من الرنسيين وبلاثيوس الاسبانى وسكارتاتزينى السويسرى.

وكذلك وجد دانتى عناية كبيرة من جانب رجال الفنون التشكيلية وفنون الموسيقى الذين وضعوا رسوما كروكية أو صورا ملونة أو غير ملونة وصنعوا التماثيل وألفوا الألحان الموسيقية التى تعبر عن بغض ما جال فى ذهن دانتى أو جرى به قلمه ومن هؤلاء جوتو وسنيوريلى وبوتتشلى وميكلانجلو من الايطاليين وروادن ودوريه وديلاكروا من الفرنسيين وبليك ووستمانكوت وروستى من الانجليز وسالفادور دالى الاسبانى وذلك فى مجال الفنون التشكيلية ونجد روسينى الايطالى وليس المجرى وفاجنر الالمانى وتشايكوفيسكى وراحمانينوف الروسيين فى مجال الفنون الموسيقية.

وفضلاً عن ذلك فإن دانتى ثروة انسانية هائلة اذ مهد للخروج من العصور الوسطى إلى عصر النهضة والعصر الحديث وهو ينشر العلم ويربى الذوق ويعلم السياسة ويؤيد العدالة والحرية ويقوى الروح المعنوية يدعو إلى التضحية والوطنية ويغرس الايمان والصفاء والأمل ويحلق فى أجواء من السعادة الروحية ويخلق فناً لا يكاد يدانيه فيه إنسان.

ترجمة حياة دانتى

ولد دانتى فى فلورنسا بايطاليا فى ١٤ مايو سنة ١٢٦٥م من عائلة رفيعة الجانب يقال لها عائلة اليجيرى وسمى عند ولادته دروانتى ثم نحت اسمه بالاستعمال فصار دانتى، وتوفى والده وهو لا يزال غلاماً فربى فى حوزة بعض ذوى قرابته فتلقن كل العلوم الرائجة فى تلك الأعصر وأشهرها التعاليم الدينية ومنطق أرسطو وبعض الكتب اللاتينية المعتمدة عليها فى مدارس تلك الأيام، وكان حاد الذهن فلم يحتج فى اكتسابها إلى كبير مشقة أو طويل زمن، لكنه لم يكشف بها فأخذ يطالع كل علوم تلك العصور على صعوبة الوصول إليها قبل اختراع الطباعة ولذلك فقد ظن بعضهم انه تثقف فى مدرسة بولونيا الشهيرة.

ولم يكد يفتح عينيه فى عالم العمل حتى ألم به حادث انطبع على أخلاقه وأطواره ورافقه إلى آخر نسمة من حياته وذلك انه علق بفتاة من الأشراف اسمها بياتريس بورتينارى وكانا صغيرين لا يتجاوز احدهما التاسعة من العمر. ومن الغريب انه تمكن حبها من قلبه حتى شغله عن كل شاغل وهو لم يرها الا قليلاً ولا تجاسر أن يبثها ما فى فؤاده ولا خطر بباله أن يخاطبها بأمر الزواج لشعوره بترفعها عنه فهى لم تكن تعلم شيئاً عن منزلتها عنده غير ما قد تلحظه النساء الجميلات الساميات المقام من حركات قلوب الشبان الواقفين بين أيديهن ولو كانوا صامتين.

فكان حب دانتى لبياتريس حبا عذريا حقيقيا منزها عن كل شائبة. أما هى فتزوجت بأحد أعيان الايطاليين فلم يغير ذلك شيئاً من عواطف دانتى نحوها وهو لا يطمع بغير النظر اليها عند سنوح الفرصة. ثم توفيت الفتاة فأثرت وفاتها فيه تاثيرا شديداً فأصبح كيفما توجه تخيل شبحها أمام عينيه واشتهر ذلك عنه حتى تحدث به الخاص والعام.

وكان قبل وفاتها قد نظم فيها قصيدة طويلة سماها «الحياة الجديدة» كلها عواطف وفلسفة، وهى أول قصيدة نظمها مندفعاً بثورة الغرام وما زال ذلك التأثير ظاهرا فيه يتراءى فى خلال أعماله إلى آخر أيامه.

ولابد لاستيعاب ترجمة حياة هذا الشاعر العظيم من بسط حالة ايطاليا فى أيامه، فقد كان فى ايطاليا اذ ذاك حزبان سياسيان كبيران يسمى احدهما جيلف والآخر جيبلين نشأ فى القرن الثانى عشر أولهما وهم الجيلف يقاومون العائلة المالكة وثانيهما وهم الجيبلين ينتصرون لها. وما انفكت الحروب والمخاصمات قائمة بينهما حتى أقلقت راحة ايطاليا ففى سنة ١٢٦٧ طرد الجيبلين من ايطاليا كلها بايعاز البابا واستقام الأمر للحزب الآخر ولم يكن فى فلورنسا من حزب الجيبلين أحد. على أن كلا من هذين الحزبين لم يكن يخلو من تخاصم بين عائلاته وربما استعان بعض عائلات هذا الحزب على البعض الآخر بالحزب المغلوب وقد تحدث فترة صلح بين الحزبين ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى الخصام، وقد يتفق أن يكون هذا الحزب فائزا فى هذه المدينة وذاك فى تلك ففى سنة ١٢٨٠م حصلت واقعة بين جيلف فلورنسا وجيبلين اريتسو ففاز حزب الجيلف وكان دانتى فى جملتهم وهى أول واقعة ظهر فيها فلما عاد من الواقعة تزوج بفتاة من كبراء ذلك الحزب اسمها «جما دوناتى» ولكنها كانت سبباً لتعاسته ولم يهدأ له بال ولا اطمأن له قلب منذ تزوجها.

على انه أصبح بعد ذلك الاقتران مرشحاً للمناصب الملكية فى مصالح الحكومة وكان أهل فلورنسا اذ ذاك ثلاث صفوف (١) الأشراف والعظماء (٢) التجار والأغنياء (٣) العامة. وكان الصفان الأخيران فى شقاء دائم لانتمائهما إلى الأحزاب السياسية، ثم قام فيهما رجل مصلح اسمه دينو كومبانى سن قانونا جديدا سنة ١٢٨٢م جعل فى اهل فلورنسا صفوفا تمتاز بعضها عن بعض بما تعلمه من المهن أو التجارة وجعل لهذه الصفوف مجلسا اشبه شئ بمجلس النواب مؤلفا من ستة أعضاء ينوب كل منهم عن حى من أحياء المدينة وهذا المجلس يتولى ادارة شئون أصحاب تلك المهن والقضاء فيما قد يعرض بينهم على ان يتجدد انتخابه كل شهرين ولايجوز انتخاب غير المندرجة اسماؤهم فى قوائم أصحاب المهن والتجارات وكان اسم دانتى فى قائمة الاطباء والصيادلة مع انه لم يتعلم الطب ولا الصيدلة قط.

ولكن هذا الترتيب لم يمنع نفوذ الأحزاب السياسية وانحياز أعضاء ذلك المجلس إلى احدها فلم يمكث ذلك النظام الابضع عشرة سنة ثم عادت الأمور إلى مجراها الأول مع بعض التحوير فنشأ فى فلورنسا حزبان شبيهان بالأولين اسم احدهما الأسود «نيرو» وأصلهم من الجيلف والثانى الأبيض «بيانكى» وأصلهم من الجيبلين.

وكان دانتى جليفيا كما قدمنا وتزوج بامرأة من زعماء الحزب الأسود فازدادت علاقاته مع الجيلفيين متانة، ولكنه كان من الجهة الأخرى مرتبط ببعض كبراء الحزب الأبيض برباط الصداقة أو لعله كان يشعر بارتباط معهم برباط العدالة لاعتقاده بصواب دعواهم.

وفى يونيو سنة ١٣٠٠م انتخب دانتى مندوباً فى المجلس المتقدم ذكره. وفى عهده حكم على الحزبين الأسود والأبيض بالنفى إلى فلورنسا ثم تساهل هو مع بعض زعماء الحزب الأبيض فأرجعهم إليها فشق ذلك على الحزب الأسود فصاروا إلى روميه والتجئوا إلى البابا بونيفا شيوش الثامن فنصرهم وبعث معهم شارل دى فالوا مندوباً من قبله ولقبه «بصانع السلام» فوصل شارل إلى فلورنسا فى نوفمبر سنة ١٣٠١ ومعه جند فأعاد الحزب الأسود إليها وحل المجلس وألف مجلساً آخر من حزبها فارتفع شأن الحزب الأسود وضعف الحزب الأبيض فحكم المجلس على الحزب الأبيض بالنفى والقتل وأخذوا فى تعذيبهم وقتلهم فى الشوارع أو المنازل وسلب أمتعتهم وأموالهم وحرق منازلهم بغير شفقة. وكان شارل ان رأى نارا يتصاعد دخانها فى بعض أطراف المدينة وسأل ما هذه النار فأجابوه هى زريبة حقيرة لا تستدعى اهتماماً وقد تكون قصراً عظيماً وكان فى جملة المنازل التى لعبت بها النار ونهبتها الأيدى منزل دانتى وكان دانتى اذ ذاك فى رومية ذهب إليها بايعاز الحزب الأبيض لمخابرة البابا بشأن ما يقاسونه من الاضطهاد والظلم فلما علم بالحكم الصادر بالنفى غادرها وصار إلى منفى أصدقاؤه فى اريتسو.

وفى يناير سنة ١٣٠٢ صدر عليه الحكم الخاص بالنفى سنتين وبغرامة قدرها ثمانية آلاف فلورين وانه إذا تأخر فى دفع الغرامة وقع الحجز على

أملاكه. ثم صدر عليه حكم آخر بالاحراق حياً بدعوى انه مرتش وسارق ومراب فلم ير بدا من مهاجرة الوطن. وقد تمكنت علاقاته مع الحزب الأبيض فجعل يطوف البلاد يحرض الجيبلين على مقاومة أعدائهم الجيلف فصار إلى فيرونا ثم إلى توسكانا.

وفى سبتمبر سنة ١٣٠٣م توفى البابا بونيفاشيوش وخلفه البابا بنيديكتس فحاول هذا اصلاحَ ذات البين بين الحزبين فذهب سعيه عبثاً، فظلت فلورنسا محط رجال الثورة فأصابها حريق هائل صحبه هجوم الحزب الأبيض ومن والاهم وتعاظم الخطب حتى كاد يقضى على المدينة.

وكان دانتى لا يزال يجول فى ايطاليا ينتظر فرصة تسنح له للرجوع إلى وطنه فذهب انتظاره ادراج الرياح. فلما تولى هنرى السابع كرسى مملكة جرمانيا تجدد أمله وكان هنرى قد عزم على القدوم إلى ايطاليا للمطالبة بحقوق أسلافه عليها وحزب الجيبلين يستعد للأخذ بناصره فكتب دانتى منشوراً سنة ١٣١٠م إلى الملوك والدوكات وشيوخ روميه وإلى شعوب ايطاليا يبشرهم بالسعادة المنتظر نيلها على يد هنرى ووزرائه فجاء الامبراطور هنرى فى تلك السنة إلى ايطاليا وتتوج فى ميلان ملكاً على لومبارديا وكان دانتى ينتظر قدومه إلى توسكانا بفارغ الصبر لقمع الجيلف واخماد الفتنة فكاتبه بهذا المعنى فجاء هنرى إلى توسكانا ولكنه لم يفذ منهابطائل فصار إلى روميه حيث توجه وفيما هو عائد مات بغتة سنة ١٣١٣م فكانت وفاته صدمة قوية على دانتى فالتجأ إلى فيرونا ثم إلى غيرها. وأخيراً سار إلى رافنا باقى حياته فى حمى جيدو دابولنتا عظيم تلك المدينة وكان جيدو شاعراً محباً للعلم آخذا بناصر العلماء فسر بنزول دانتى عليه على أن دانتى كان يجول فى البلاد مرة بعد أخرى ينظم القصائد ويؤلف الروايات ونفسه تشتاق إلى وطنه ولكنه لم يستطع الرجوع اليه فتوفى فى رافنا سنة ١٣٢١م حزيناً كئيباً وأحرق عظامه انتقاماً منه على هرتقته. ثم لم تمضى على هذه الاحكام عشر سنين حتى شعر الشعب الايطالى بمنزلة هذا الرجل ففى سنة ١٣٥٠م قررت جمهورية فلورنسا أن تدفع مبلغاً من النقود إلى ابنة له راهبة (واسمها بيتريس) وفى سنة ١٣٩٦م قررت أن يبنى له ضريح ويقام له تذكار فى فلورنسا.

أعماله الأدبية

نظراً لاستحالة الوصول إلى تواريخ دقيقة لإنتاج «دانتى» يحسن ان نقسم حياته إلى ثلاث مراحل تمثل تطوره الروحى وان ننسب إلى كل مرحلة أقرب المؤلفات اليها.

تمتد المرحلة الأولى بين سنتى ١٢٨٣و ١٢٩٠ وقد سادتها حمية الشباب والاتجاه الدينى الذى حوله اليه غرامة العظيم ببياتريس مما صوره فى سياق «الحياة الجديدة».

أما المرحلة الثانية فتبدأ بوفاة حبيبته مما بث الأسى واليأس والشك فى حياته وأدى إلى تغلب العقل على العقيدة فترة من الزمن انصرف فيها إلى الفلسفة والعلم والصراع السياسى العنيف والبغضاء والتآمر ومن الممكن ان نعزو الى هذه الفترة من مؤلفاته « الندماء» و«الملكية »و«الرسائل».

وقد انتهت هذه المرحلة فى سنة ١٣١٣م بوفاة الامبراطور هنرى السابع الذى كان دانتى قد عقد عليه آماله ... وبدلا من أن يقضى انهيار هذه الآمال على عزيمته وروحه المعنوية فقد رده الى الناحية الروحية وأعاد اليه الإيمان الذى كان فى صباه وحمله على التعبد متخذا من «بياتريس» -بعد ان خلع عليها القداسة فى خياله -رمزا للخير مما تشهد به كل قصيدة فى «الكوميديا الالهية».

ولقدجمع «دانتى» قصائده الغنائية الأولى وربط بينهابتفسيرات نثرية وشروح فلسفية مطولة فى كتابيه الكبيرين «الحياة الجديدة» و«الندماء» الذى يسمى أحيانا «المأدبة» أو«مأدبة الحب»وتنم لهجة «دانتى» فى تفسير أغانيه وأناشيده فى الحب عن تدرجه فى الانتقال الى تغليب العقل على العقيدة .

وكثيرا ما توصف «الحياة الجديدة» بانها أول قصة توغل فى التحليل النفسى الذى يكشف عن أعماق مشاعر الشاعر وفيها يروى«دانتى»- بخليط من النثر الروائى والشعر الغنائى والتعليقات المسهبة على القصائد - كيف التقى

ببياتريس أول مرة فى عام ١٢٧٤م فكان هذا اللقاء بدايةحياة جديدة له ويتحدث عن جمالها ولطفها وعن أمله وأعجابه وعن عذابه وحزنه البالغ لوفاتها وتساميه تدريجيا من الحب الدنيوى الى الحب القدسى -فأصبح -لاسيما بعد موت بياتريس- يمعن فى رفعها الى مصاف القداسة حتى لم تعد مثالا للمرأة وانما أصبحت طيفا ذا قدسية دينية .

أما الخلط بين دراسته الدنيوية والدراسات الفلسفية العميقة الذي ادي به - فيما بعد - الى شك مستيئس وهويتخبط فى الحيرة بين الصورة الرمزية التى رسمها لبياتريس والغرور والسخط الدنيويين ..هذا الخلط يتبدى فى خير صورة فى «الندماء» فقد جعل أربعة من أناشيده تفسيرا فلسفيا بليغا مليئابالاستعارة والكنابة لحاله تلك فى اسلوب جرى فيه على نسق الدراسات العلمية فى القرون الوسطى ولو انه أكمل هذا الكتاب لجاء موسوعة رائعة لفلسفة القرون الوسطى وأخلاقياتها .

ومن العسير ان يتبين المرء فى أى المواقع من هذين الكتابين كانت «بياتريس» امرأة ذات طهر ملائكى وفى أيها أصبحت رمزا فلسفيا أو تصوفيا .. فأن علاقته فى الحالتين بفتاته «لم يكن قد التقى بها سوى مرات متباعدة وعلى غير اتفاق» لم تكن حبا عاديا وانما كانت تمجيدا وسموا بقيمة الخير والأيمان الذين كان لا يلبث ان يرتد اليهما – بين آن وآخر –بالرغم من الصراع والاضطرابات التى كانت تدور فى نفسه .

والواقع انه فى آخر سطور «الحياة الجديدة» استطاع ان يتمثل ما وراء الحياة ولكنه لم يستطع ان يسجل فوراً الصورة التى تجلت لبصيرته والتى قدر لبياتريس – التى هدته وانتزعته من عقم الفلسفة الدنيوية – أن تكون محورها ومركزها ... بل لقد اضطر إلى أن يقضى سنوات فى الدرس والتفكير والتأمل قبل أن يصبح قادراً على أن يرسم تلك الصورة فى «الكوميديا الالهية» وأن يصف «بياتريس» بما لم توصف به امرأة على الاطلاق.

أما مؤلفاته التى كتبها باللاتينية فى تلك الفترة فكان أهمها «الملكية» الذى

يشرح فيه نظرية الامبراطورية المسيحية - كنظام إلهى ضرورى - ويدعو فيه إلى الفصل بين الكنيسة والدولة وأن يقتصر سلطان البابا على الأمور الروحية.

وقد عرض هذا الكتاب للصراع السياسى الذى كان دائر الرحى والذى ساهم هو نفسه فيه وتجلى فى سياقه انتقاد «دانتى» لتوسع الكنيسة فى بسط نفوذها النيوى وهو انتقاد زاد من قوته وأثره أن «دانتى» كان من أخلص أبناء الكنيسة الرومانية.

وقد تكرر الانتقاد فى «الرسائل» التى دعا فيها إلى توحيد الدول الأوربية تحت تاج الامبراطور هنرى السابع الألمانى لتكوين الامبراطورية المسيحية.

إلى أى العصور ينتمى؟!

ومن العسير الجزم بما اذا كان «دانتى» ينتمى إلى القرون الوسطى أو إلى عصر النهضة فأن أشعاره المتعددة الألوان والتأويلات تبدو متضمنة العصرين فى بعض الأحيان وفى كثير من النواحى يبدو كمن جمع كل مقومات الأدب والفكر فى القرون الوسطى دون أن يتجاوزها إلى التبشير بفجر عهد النهضة وبدلاً من أن يبدو متقدماً عن معاصرة نجده - فى ضوء كثير من الاعتبارات - متخلفاً عنهم متشبثاً بأحلام وآمال كانت تزداد عقماً واندثارا بمضى الزمن ... أحلام توحيد أوروبا فى امبراطورية مسيحية.

وما أوسع الهوة التى تفصل بينه وبين غيره من شعراء القرن الرابع عشر مثل (بوكاشيو) الذى كان يصور نساءه صورة جسدية حسية بعيدة عن الأطياف الروحية والذى كان يمثل الرجل المادى الذى تفتق عنه عصر النهضة، ومع ذلك فلابد أن شعراء النهضة قد شعروا بأنه كان جزءا من عصرهم مع انصرافهم عن النزعات التصوفية والخيال القائم على المعتقدات الدينية ... ذلك ان دانتى ابتكر اسلوباً تعبيرياً واضحاً وأفلح فى أن يكسو ما كان يتمثله من رؤى خيالية لما وراء الحياة الدنيا ثوبا من شعر رائع الأوزان ومن أسلوب لغوى مرن مرونة عجيبة.

كذلك ينتمى «دانتى» إلى العصر الحديث بما أوتى من طاقة عاطفية عارمة خارقة للمألوف. فقد كان فى وسعه أن يحب ويكره وأن يقاتل ويزدرى فى عنف لا يقل عن عنف أولئك الذين أعقبوه فى القرن السادس عشر وكان يضرب بسهم فى كافة نواحى النشاط فكان جندياً وشاعراً وراهباً ودبلوماسياً وعاشقاً ... ولم يكن به أثر من محو الذات الذى اتسمت به القرون الوسطى بل انه أوتى كبرياء وزهوا وترفعاً لا تكون الا لرجل واثق من نفسه متفرد فى حياته وكفاحه ومع ذلك فانه جمع إلى هذه الصفات نظاماً روحياً قاسياً كان يروض نفسه عليه، وزهدا دينياً تصوفياً مما كبح جماح نشاطه ومشاعره فلم يسف فيما أسف فيه شعراء النهضة.

أثره الخالد

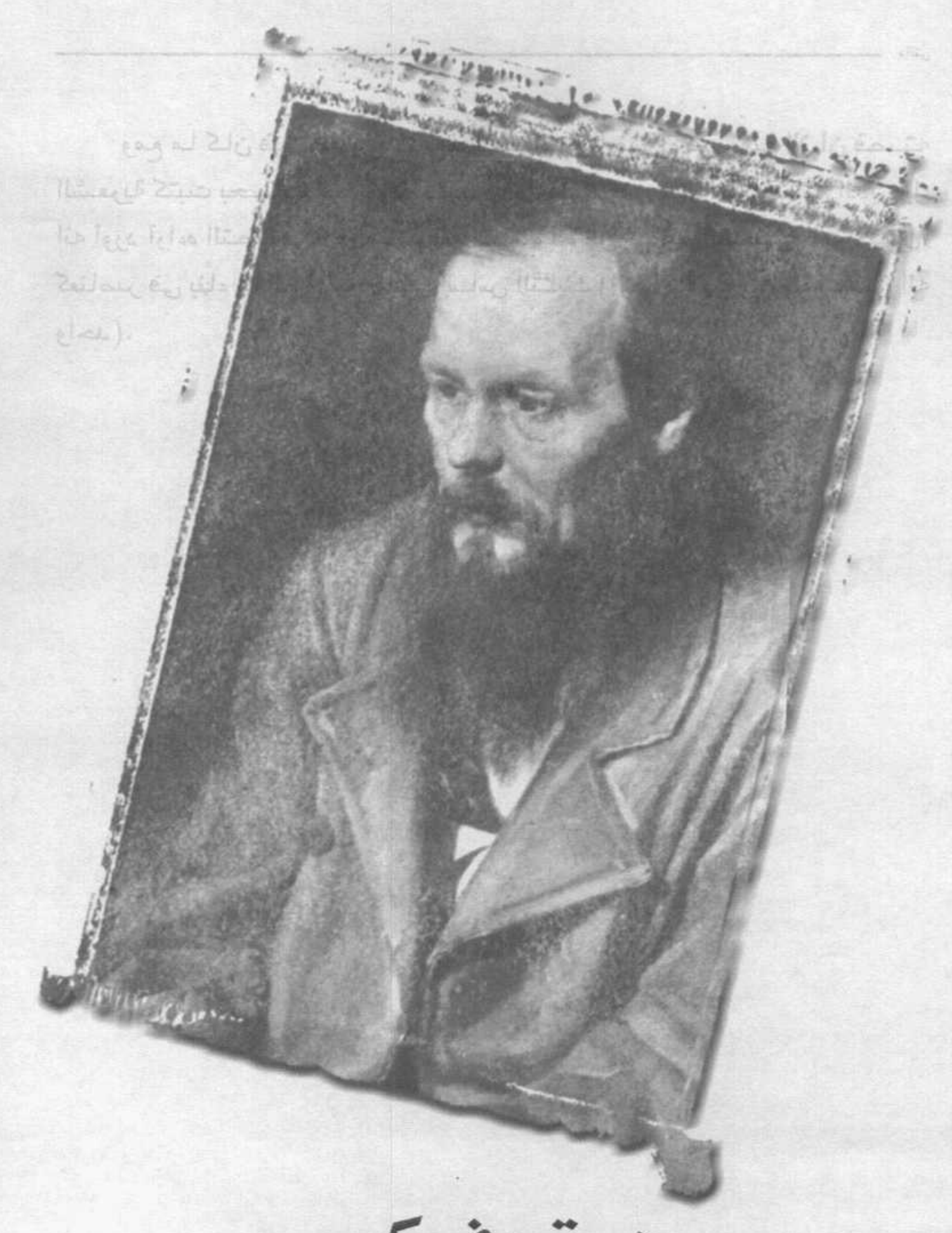
«الكوميديا الإلهية» هى أعظم أعمال «دانتى» الأدبية وأرفع تحف الأدب المسيحى فى القرون الوسطى. ولا سبيل إلى ادراك قيمتها ومغزاها الا فى ضوء التجارب المريرة التى اجتازها المؤلف بعد وفاة حبيبته «بياتريس» حين نبذ الحب الحقيقى الصادق وهام متخبطاً فى ميدان الفلسفة العقيمة ومضمار التآمر السياسى إلى أن قدر له أن يعود إلى الإيمان والالهام اللذين كانا يلازمانه فى صباه.

فلقد شاء «دانتى» أن يبين لنفسه ولمن أعقبهم ممن أضلهم الأثم وأرهقهم الصراع عن جهل أن ثمة مخرجا من هذه الضيق وأن فى وسع الانسان أن ينجو من متاهة الحياة اذا هو استتار بالالهام الالهى واستعان بفضل من السماء واتبع نظاماً روحياً قاسياً لترويض نفسه ... وهذا هو المعنى العميق الذى قامت عليه القصة والذى اثبته «دانتى» بما تصوره من رؤى خيالية لما وراء الحياة مستمداً بعض خطوطه مما ترك «هوميروس» و «فرجيل» و «شيشيرون».

وتجارب «دانتى» فى العوالم الثلاث التى رسمها فيما بعد الحياة الدنيوية - وهى «الجحيم» و «المطهر» و «الفردوس» - والتى تصور انه اجتازها فى عشرة أيام تالية ليوم الجمعة اليتيمة من عام ١٣٠٠م ليست سوى تصوير لسعى الإنسان إلى خالقه ورجوعه إليه وظفره بالخلاص والتوبة والمغفرة.

ومع ما كان فى تصويره لما بعد الحياة من اجتراء فى زمنه الا أن قصته الشعرية كتبت بحساب وتخطيط دقيقين ... فلم يخرج فيها عن تعاليم الدين بل انه أورد آراءه التصوفية ومعتقداته المستمدة من تعاليم القديس «أوجستين» كعناصر فى بناء العالم والروح على أساس التثليث (الأب والابن والروح القدس اله واحد).

***



دستـــوفسكـى

أحد أئمة الرواية الروسية صاحب الطفولة العليلة!!

فيدور دستويفسكي

دوستويفسكى أحد أئمة الرواية الروسية الكلاسيكية، فانتاجه الروائى يشغل مكانة مهمة وخاصة، لا فى تاريخ الرواية الروسية فقط، بل وفى الرواية العالمية أيضا.

تشكل اتجاه دستويفسكى إلى الرواية كفن تحت تأثير التجربة الروائية لكل من بوشكين وجوجول، كما أشار الكثير من الباحثين أيضاً إلى أهمية رواية كل من بلزاك وجورج صاند وفيكتور هوجو وديكنز بالنسبة لروايات دستويفسكى.

برز دستويفسكى فى الساحة الأدبية فى أربعينات القرن الماضى، واتسم انتاجه الروائى منذ أول رواية وهى «المساكين» بالمنهج الفنى الجديد، فنجده يبتعد عن الخط الهجائى المميز لرواية معلمه جوجول الذى كان يجذب اهتمامه وصف الحياة الموضوعية المعيشية بأنماطها المتعددة، واتجه دستويفسكى إلى البحث العميق فى نفس أبطاله، حيث يعطى الكاتب من خلاله صورة للواقع والحياة «الجارية».

كتب دستويفسكى القصة والرواية، وكانت أشهر رواياته:

«المساكين» (١٨٤٥)، «المحقرون والمهانون» (١٨٦١)، «الجريمة والعقاب» (١٨٦٦)، «الأبلة» (١٨٦٩)، «الشياطين» (١٨٧٢)، «المراهق» (١٨٧٥)، و «الاخوة كارمازوف» (١٨٨٠).

ويعتبر وصف حياة فقراء المدينة من أكثر الموضوعات المحببة عند دستويفسكى الروائى وقد اتجه إلى هذا الموضوع فى العديد من رواياته، من ذلك «المساكين» ،«المحقرون والمهانون»و«الجريمة والعقاب». ودستويفسكى فى تصويره

لحياة الفقراء ينحو نحوا جديداً، فهو لا يهتم بتصوير اللوحات المعيشية التى تعكس الفقر والتناقضات الاجتماعية التى تحكم وجود الفقراء، قدر اهتمامه بتصوير العالم الروحى والأخلاقى للفقراء، والذى يبرز فى ارتباط وثيق بوجودهم المادى. فالمشكلة الاجتماعية للفقر تبرز فى روايات دستويفسكى من خلال المشكلة الأخلاقية والنفسية. والعالم الداخلى لفقراء دستويفسكى هو عالم صعب ومعقد، فرغم ما يظهر عليه من غيظ وحنق وأنانية، ورغم ما قد يسيطر عليه من أفكار كاذبة أو وعى مريض، فهو مع ذلك عالم الخير والمشاعر الطاهرة ومبادئ الانسانية والأخوة والضمير الحى والنفس القادرة على التضحية والمعاناة والتصحيح.

حملت روايات دستويفسكى بصمة الواقع المعاصر. فهى تصور الكثير من أحداثه الجارية ومشاكله الملحة كالجريمة، والركض وراء المال، ووقوع الإنسان ضحية الاغراءات والأفكار الشريرة، والانفصام بين الشخصية والمجتمع وبين الطبقات الحاكمة والشعب، وتفكك وسقوط الركائز العائلية التقليدية وأزمة الحياة الاجتماعية المعاصرة ومشكلة وجود الانسان بها وخلافه. كما اهتم دستويفسكى أيضاً فى ستينات وسبعينات القرن الماضى برسم نمط البطل المفكر ذى العقل المتأمل والاتجاه التحميلى تجاه الواقع، وهو الذى برز فى أشهر رواياته (الجريمة والعقاب) و (الاخوة كارمازوف). لكن بطل دستويفسكى هذا - ورغم ما يملكه من امكانات عقلية وفكرية كبيرة - يظهر فريسة للأفكار الكاذبة المضللة ويبدو بعيداً عن الشعب ولا يشارك فى الحركة التحريرية لبلاده، مع أن فكره يتيه فى البحث عن مخرج من أزمة الحياة. وهذا البطل يسيطر عليه شك عميق تجاه المثل الثورية الاشتراكية والليبرالية، ويتأرجح بين الاتجاهات الفوضوية وبين الأفكار الدينية.

*****

ولد «دستويفسكى» لأب جراح، وشهد ضوء الحياة أول ما شهده بين جدران المستشفى الذى كان يعمل فيه أبوه، وكانت طفولته عليلة يتعاودها المرض آنا بعد آن، ولكنه مع ذلك استطاع أن يظفر بنجاح متفوق فى مدرسة المهندسين، لكن

المهندس الناشئ غلبه الأدب فانصرف اليه لأن الهندسة جاءته عن طريق الدرس، أما الأدب فطريقه إليه الطبع الأصيل.

وبدأت حياته الأدبية بداية لا تخلو من فكاهة ومن عبرة فى آن معا، فقد كتب قصة كانت باكورة انتاجه، قصة (الفقراء)، وساقه صديق ناشئ فى الأدب مثله إلى أديب من شيوخ الأدب اذ ذاك يقوم على تحرير مجلة أدبية، هو (نكراسوف)، وقدم الصديق صديقه (دستويفسكى) إل الأديب الشيخ، فاستقبله الأديب الشيخ بنظرة باردة، ولم يدر ناشئنا ماذا يصنع، فقذف بمخطوط قصته قذفاً، وخرج مسرعاً يتلفت يمنة ويسرة خشية أن تراه أعين الرقباء كأنه لص أتى أمرا ادا، وقصد من فوره إلى جماعة من أصدقائه الشبان، فأخذت جماعتهم تقرأ شيئا من أدب (جوجول) حتى انسلخ الليل كله، وعاد (دستويفسكى) إلى داره مع فلق الفجر، ولم يحس رغبة النوم، فجلس إلى نافذته يسرح البصر وما هو الا طارق يدق جرس الباب، فيفتح له وهو دهش لهذا الطارق المبكر. فيجد نفسه محتضناً بين ساعى صاحب المجلة الأدبية (نكراسوف)، فقد شاءت المصادفة أن يزور الأديب الشيخ صديقاً ناقداً، ويذكر له أن شابا لم يره من قبل قذف أمامه قصة لتشر، وقرأ الصديقان معا قصة «الفقراء»فأخذتهمابسحرها، حتى أنفقا الليل كله فى قراءتها، ولما أصبح الصبح لم، يطق «نكراسوف» صبرا على هذا الكشف الجديد، وذهب الى أصدقائه النقاد، يطرق عليهم الأبواب قائلا : جئت لأعلن عن «جوجول»جديد ظهر اليوم فى أفق الأدب !

وفعل التشجيع فى أديبنا الناشىء فعل السحر، فأخذ يعمل فى نشاط متصل عنيف لايعرف الراحة والهدوء فعرض صحته للخطر من جهة . وتعجل الانتاج من جهة اخرى، حتى اصبحت سرعة الانتاج علامة تميزه وتنتقص من أدبه،فاذا عرفت انه كان يكتب عشر قصص فى آن واحد، عرفت بأية سرعة كان ينتج،وبأى مجهود كان يعمل، لكن هذا التيار الدافق وقف ذات يوم فجأة حين أطبقت عليه مغاليق السجن فى بطرسبرج.

أتهم «دستويفسكى» مع جماعة من زملائه بالعمل على الثورة، وزجوا فى

السجن ثمانية أشهر ثم جئ بهم إلى ميدان فى قلب المدينة، حيث أقيمت المشنقة انتظاراً لرقابهم وخلعت عنهم ملابسهم إلا أقلها فى جو كانت حرارته احدى وعشرين درجة تحت الصفر، وقرأ عليهم ما قضى به فى أمرهم وإذا هو الموت، لم يكد يصدق «دستويفسكى» ما سمعته أذناه، لابد أن يكون حلما ما سمعه، إنه لم تنقض إلا أيام قلائل منذ وضع أساساً لأثر أدبى جديد اعتزم انشاءه، واطلع عليه أحد الزملاء فى السجن، وتلفت إلى من وقف بجواره وسأله دهشاً: أصحيح ما يعلنون؟ أصحيح اننا قادمون على الموت؟ لم يجب المسئول بغير اشارة من أصبعه وهو صامت إلى عربة قريبة، طرح عليها غطاء، وبدا كأنما تحت الغطاء شئ كالتوابيت وهبط من أعلن حكم الموت من منصته، وصعد القسيس يحمل الصليب ويطلب من «المجرمين» أن يبوحوا له بما يريدون ان يبثوه من اعتراف، ولم يفعل ذلك سوى واحد منهم، واكتفى الباقون بتقبيل الصليب «لقد شرعوا السيوف فوق رؤسنا، وألبسونا قمصان من يقضى فيهم بالموت، وربطونا ثلاثة ثلاثة، وكنت ثالث الثلاثة فى الصف الأول، فعلمت انه لم يبقى من حياتى إلا دقائق معدودة، ذكرتك عندئذ، وذكرت أطفالك «هذا خطاب كتبه دستويفسكى فيما بعد إلى أخيه» وحاولت أن أقبل زميلى فى الصف قبلة الوداع، ثم ما هى إلا أن نفخت ثلة من الجند فى أبواقها نفخة، وإذا بالأغلال فكت عن أجسادنا، وقعدونا إلى منصة المشنقة، حيث أعلن معلن ان جلالة القيصر قد عفا - فقد استبدل القميص بحكم الموت سجناً يكون فيه العمل الشاق. والعربة التى كان يظن انها كانت تحمل التوابيت لأجسادهم كانت تحتوى على بذلات يلبثها من يصدر عليه مثل هذا الحكم. وألبثه هذه البذلات وسيقوا إلى السجن، حيث قضوا سنوات أربع، أطلق سراحهم بعدها، وعاد أديبنا إلى الحياة من جديد، ولكن كيف؟ عاد من سجنه أسلم بدناً وأهدأ عصباً وأكثر فى عقله اتزاناً!

استأنف «دستويفسكى» حياته الأدبية، فأخرج قصة «المستذل والجريح»، وعقب عليها بـ (ذكريات دار الموتى) وهو يعنى بدار الموتى سجنه الذى قضى فيه أربعة أعوام، تقرأ فيه وصف الحياة فى ذلك المكان كما شاهدها الكاتب، فتنتفض من هولها رعباً، ومما يستحق الذكر هنا أن البؤساء - لفيكتور هيجو - صدر فى

نفس الوقت الذى صدر فيه ذكريات دار الموتى، وقد لا نعدو الحق ان قلنا أن «دستويفسكى» قد بلغ فى كتابه ما لم يبلغه «هيجو» من حيث بساطة التعبير وصدق التصوير، كان «دستويفسكى» سجيناً سياسياً، لكنه لم تكن هنالك تفرقة بين سجين لسبب سياسى وسجين أجرم على نحو آخر، وقد لا يكون فى ذلك شيئاً يثير العجب، لكن العجيب حقاً أن «دستويفسكى» وقد رأى نفسه فرداً من جماعة مجرمة، لم يدر فى خلدة قط انه فى وضع خاطئ، كما أنه لم يدر بخلد أحد من زملائه فى السجن - نعنى مجرمى القانون - أن هذا السجين السياسى يقع فى منزلة فوق منزلة سائر المجرمين، فلئن اعتدى المجرم على قانون من قوانين الدولة فقد اعتدى السجين السياسى على قانون آخر، لهذا لم يحاول «دستويفسكى» فى كتابه هذا أن يخلع على نفسه ثوباً من الشرف ليميز به نفسه عن سواه. انما الذى حاوله، وحاوله بعنف وقوة، هو أن ينظر إلى المجرم - كائناً ما كان إجرامه - نظرة غيظ وحنق، فليست الجريمة خطأ انما هى ضرب من الجد العاثر، لقد أحس «دستويفسكى» العطف على زملائه فى الاجرام، وأعجب ببعضهم اعجاباً شديداً، فقد يكونون غلاظ الظاهر، لكن فى بعضهم صفات طيبة، ما فى ذلك من شك.

وبعدئذ، اكتنفت حياة الكاتب صعاب، من بينها ضيق مالى نتج عن انغماسه فى القمار أوقعه فى دين، لم ينقذه منه بعض الشىء الا قصة عظيمة صادفت نجاحاً عظيماً، هى قصة «الجريمة والعقاب» طريقته فيها - بل طريقته فى قصصه جميعاً على جه الاجمال - هى ألا يحدد لك صفات أشخاصه تحديداً مرتباً، بل هو يسرد لك دقائق حياتهم بالترتيب الذى تقع به فى الحياة، لا بالترتيب المنطقى الذى يسبغه عليها عقل الكاتب، ويتركك تستخلص لنفسك هذه الصورة من تلك الدقائق المبعثرة فى أنحاء القصة هنا وهناك، خذ مثلاً لذلك، ترى المجرم فى القصة يعتزم قتل امرأة عجوز تراه يعتزم ذلك منذ الصفحة الثانية من القصة، ثم تتكاثر عليه الحوادث وتتعرج به الدقائق هنا وهناك حتى إذا ما بلغت نهاية القصة، وجدت هذا المجرم ينشر مقالة فى مجلة يحاول فيها أن يشرح نظرية تبرر مثل تلك الجريمة، لو كان الكاتب يرتب الحوادث ترتيباً منطقياً لذكر لك نبأ هذه المقالة بعد ذكره للجريمة لكنه لم يعبأ بتباعد الحوادث بين الحقيقتين

فى قصته، ما دامت تباعد بينهما فى الحياة، مثل هذه الطريقة فى كتابة القصة من شأنها أن تقتل بعض الشوق فى نفس القارئ وأن تشعره بمجهود عقلى، لأنه يحاول أن يربط الحوادث المتناثرة بعضها ببعض، وقد يستطيع ذلك وقد لا يستطيع، كما هى الحال فى الحياة الواقعة، بعضنا قادر على ربط الحوادث بعضها ببعض وإن باعدت بينها الأيام، على حين يعجز بعضنا عن ذلك، والكاتب هنا لا يعيننا على مثل هذا الربط.

والفن القصص عند «دستويفسكى» له خاصة أخرى، لعلها تميز القصة الروسية كلها، بل لعله تميز الفن الروسى كله بما فى ذلك فن العمارة، وهى أن يتركب الكل من مجموعات تكاد كل مجموعة منها أن تكون كلاً مستقلاً، فالكنيسة التى تبنى على الطراز الروسى - مثلاً - تتألف من عدة أجنحة، يوشك كل جناح منها أن يكون كنيسة قائمة بذاتها، والقصة الروسية تتألف من مجموعة من القصص، لا يصلها إلا خيط رفيع جداً يمكن قطعه والاكتفاء بأى جزء على حده كأنه قصة وحده - هكذا كان فن «دستويفسكى» فى قصة «الجريمة والعقاب».

لكن هذه الخصائص عامة إلى حد ما فى الأدب الروسى كله، أما ما يميز «دستويفسكى» فى انشائه الأدبى - من حيث طريقة الأداء - فهو السرعة فى الانتاج، وقد كان بين الدوافع إليها ضيقه المالى الذى كاد يلازمه، على الرغم من كثرة مكسبه. ولما وجد أن سرعته فى الكتابة أبطأ مما أراد، أستخدم فتاة تكتب الاختزال، لينتج فى اليوم الواحد أضعاف ما كان ينتجه - وقد أصبحت هذه الفتاة زوجة ثانية بعد وفاة زوجته الأولى - وهذا الانتاج الغزير المتلاحق هو ما كان يطمح إليه، ففضلاً عن ضرورته المادية، كان يطمح ألا تنقطع صلته أبداً بجمهور قراءه وأن يظل سلطانه على عقولهم متصلاً دائماً لكن هذه السرعة لابد أن تؤدى إلى نتائجها الطبيعية ن أهمال فى السبق الفنى، حتى لو كان الفنان هو «دستويفسكى».

ونرى هذا الاهمال واضحاً فى قصص جاءت بعد «الجريمة والعقاب» لكنها مع ذلك من آيات الأدب العالمى الخالدة - هى قصص «الأبله» و «الفكرة المتسلطه»

و «الأخوان كرامازوف»، فى قصة «الأبله» يبين أن من يرتكب الشر لعله فى تكوينه العصبى قد يكون أعلا فكراً وأسمى خلقاً من سواه ممن لا يرتكبون شراً مثل شره، ثم هو فى هذه القصة أيضاً يعالج ظواهر الجنون على أنها ظواهرعادية لا شذوذ فيها، تراها شائعة بين الناس، والاختلاف هو فى الدرجة وحدها، وفى «الفكرة المتسلطة» حاول الكاتب أن يتعقب العوامل التى من شأنها أن تقوى حركة «الفوضوية» أو ان شئت فقل الثورة الفكرية التى أدت إلى الشيوعية، هذه العوامل الدافعة يستحيل فى رأيه أن يكون أساسها الآراء المهوشة الغامضة الهزيلة التى تتسلط على من أفقدتهم الحماسة اتزان عقولهم، كما يستحيل كذلك أن يكون أساسها أحزاباً سياسية تهافت بنيانها وشطحت فى خيال وأوهام، بل لابد للانقلاب الاجتماعى من جماعة قويت فيهم العزائم وتحددت فى رؤوسهم الأفكار وصلبت عندهم الارادة، وأما قصته «الأخوان كارامازوف» فهى أشبه بواجهة عظيمة لبناء أعظم، لكن البناء ليس له وجود، وذلك أن الأديب أراد بادئ ذى بدء أن يجعل قصته هذه ذات خمسة أجزاء، ثم قرر أن تكون من جزءين، ثم لم يكتب من الجزءين الا جزءا واحدا، هو هذه القصة، لكنه جزء مؤلف من أربعة مجلدت ضخام حاول الكاتب فيها أن يصور الحركة الفكرية فى منتصف القرن التاسع عشر، بما تضمنته من آراء ثورية وانقلاب فى وجهة النظر، فى الأخوين الكبيرين «ديمترى» و «ايفان» جسد الكاتب جانبين من جوانب عصر الانقلاب الفكرى المشار إليه، جانبين من جوانب الضعف، فـ «ديمترى» يمثل صاحب الارادة الضعيفة والأخلاق المنحلة، و «ايفان» يمثل صاحب العقل الضعيف والفكر المتدهور، وأما ثالث الأخوة «ليوشا» فيمثل الرجل الروسى اتزن فيه العقل والارادة معاً، فهو رجل سليم القوى معا فى الغرائز والميول، يحب ويؤمن ويرق ويكرم، ويقال فى التعليق على هذه القصة أن «دستويفسكى» أراد أن يمثل بالأخوين الكبيرين «ديمرتى» و «ايفان» لروسيا وقد أخذت عناصر المدنية من الغرب ولم تهضمها بعد فانحلت خلقاً، ثم روسيا وقد اكتنفها الجهل فضعفت فكراً، ثم أراد أن يمثل بالأخ الثالث «اليوشا» روسيا المستقبل حين تتسق فى حياتها عناصر المدنية الغربية مع مقومات التثقيف والتعليم، ومهما يكن من أمر هذه القصة

العظيمة الخالدة، فهى ثروة زاخرة بدقة التحليل وصواب الرأى وصدق النظر، هى قاموس شامل لكل معانى النفس البشرية وآلة موسيقية تجمعت فى أوتارها كل نغمة من نغمات القلب الإنسانى، ثم هى وثيقة ناصعة أثبت فيها الكاتب حياة الروسيا المعاصرة، ما خفى منها وما ظهر الروسية فى أخلاقها وتفكيرها وحياتها الاجتماعية على وجه الاطلاق، وهى فى بعض مواضعها بلغت فى روعة الاسلوب وبلاغة التعبير ما لم يبلغة أديب روسى آخر، فمثلاً فى موضع منها يصف المناقشات البيزنطية الفارغة التى يحاول فيها المتناقشون أن يشققوا الشعرة كما يقولون، والتى كانت سائدة فى العصور الوسطى، ولا تزال سائدة فى كل وسط يشبه فى عقليته وتفكيره عقلية تلك العصور وتفكيرها فى هذا الموضع يصور الأديب رجلا من رجال «محاكم التفتيش» التى شاع أمرها فى أروبا منذ قرون، وخصوصاً فى أسبانيا، والتى كانت تحرق الأبرياء حرقاً بحجة الزيغ عن الدين والخروج على العقيدة السليمة والإيمان الصحيح: وفى هذا الموضع نرى المسيح قد عاد إلى الأرض، عاد فى مكان من المدينة نصبت فيه محكمة التفتيش أدوات النار التى سيلقى فيها لمن زاغ - فى رأيها - عن الدين، وعرف جمهور الناس أنه المسيح فاجتمعوا حوله ظرافات، لكن رئيس محكمة التفتيش أمر بالقبض عليه وأرسله إلى السجن، ثم ذهب إليه فى سجنه وأخذ يعنفه على أنه وضع لأتباعه مبدأ يستحيل تطبيقه: «لقد عرض عليك الشيطان أن يحول الصخر خبزاً فأبيت أن تتقبل منه ما عرض، ثم زعمت انك مستطيع أن تحكم قلوب الناس بالحب دون سواه أنظر إلى أية نهاية أدت هذه المبادئ وبنا معهم، انهم يعرضون عن الحب ويصيحون فى طلب الخبز! اننا اذا ما أعطيناهم ما يريدون من خبز، استطعنا أن نصدفهم بالأغلال بعد ذلك عن رضا منهم، سآمر غداً برميك فى النار!».

يحتل «دستويفسكى» من الأدب الروسى مكانة رفيعة، فلا يرتفع عليه فى ذلك الأدب إلا رجل واحد، هو «تولستوى».

*****

ويستشف من أعمال دستويفسكى الأدبية، ووراء كل وجه من وجوه

أشخاصه، ووراء كل طية من حجبه، انه يملك معاً، الظلام والضياء الأبديان، لأن دعوته ومصيره متصلان بشكل لا يقبل الانفصال بجميع أسرار الكائن، وعالمه يتحرك بين الموت والخبل، بين الحلم والحقيقة المشرقة. ومشكلة «الأنا» عنده تلامس دائما مشكلة الإنسانية التى لا تحل وأقل زاوية يسلط عليها الأضواء، لها فى نفسها انعكاس من اللانهاية. انه رجل كاتب روسى، سياسى، نبى. وكيانه يجعل عاطفة الخلود تتألف بيننا.. ليس من طريق توصلنا إليه، ولا يستطيع أى سؤال أن يسبر أعماق قلبه والاعجاب الشديد وحده، يحق له أن يقترب منه متواضعاً خجلاً لأنه لا يقوى على السمو إلى درجة حبه واحترامه لسر الإنسان.

إن حياة دستويفسكى قاسية منحطة كوجهه الخشن المبتذل، فنظن أننا أمام معتوه. فلقد اشتركت جميع آلات التعذيب فى عقاب جسمه الواهن، طوال ستين سنة، وأعملت الحاجة مبررها فحرمت شبابه وشيخوخته من كل عزوبة. الألم الجسمى يرهق أعضائه، والحرمان يتغلغل إلى أعماق حياته وأعصابه تتشنج عبر أعضائه المتأججه المتقددة، ومهماز اللذة يحرك شهواته ولا يروى ظمأها.

وعلى مدى ثلاثين سنة من مهنته ككاتب بقى دستويفسكى فريسة لداء الصرع. وكان هذا المرض ينتابه ابان عمله أو فى الشارع أو ُى أثناء محادثة وفى بعض الأحيان أثناء نومه. فتمسك يد الشيطان المريد، بعنقه وترميه بقوة إلى الأرض فيجرح وهو يقع.

وفى طفولته كان اضطراب الحواس والضبط النفسى أول نزير بالعاصفة، وحين سجن ظهر الألم الدفين. بأعنف قوته..هناك فى السجن انفجر ضغط أعصابه، وبقى هذا المرض أميناً له لا يفارقه طوال حياته كالحرمان والفقر. والغريب فى الأمر أن هذا الشهيد لم يحتج أبداً ضد الأمة. لقد اشتكى بيتهوفن من صممه وبايرون من رجله القصيرة وروسو من مثانته، أما دستويفسكى فلم يشك أبداً من تعاسته. زد على ذلك إنه لم يحاول جدياً أن يشفى من مرضه. ونستطيع أن نؤكد أنه كان يحب مرضه الذى لا يوصف لرزائله وللأخطار التى يتعرض لها.

إن حاجة الكاتب إلى التحليل تروض آلام الرجل، فيتغلب دستويفسكى على الشر بتحليله ودرسه. ويصبح الخطر الدائم الذى يهدده سر فنه العميق، وتولد هذا الحالة جمالاً فريداً. وتنتهى لحظات الشهور هذه إلى نشوة الذات الفكرية أليس الصرع دليلاً على مرض نفسه؟ ذلك المرض الذى لم يكن يخشاه بل كان على العكس يرحب به فى رهبة، فكم من مرة وصف تلك اللحظة الدقيقة السابقة على النوبة حين يتقد ذهنه ويضئ كما تضئ النار فتبدو له حياته واضحة فى جزئياته، وتبدو ذاكرته صاحية صحوا عديداً ثم يتلوها العدم حيث تقف الحياة! ثم بعد ذلك يظل يوما أو يومين وكأن الذاكرة لوح قد محا ما عليه من نقوش ورسوم.

بدت أعراض المرض عند دستويفسكى حين كان يمضى أيامه ولياليه فى الكتابة وهو غارق فيها فلا يجيب على سؤال يوجه إليه إلا متزمتاً، فإذا انقطع عن الكتابة اتخذ مقعداً بجانب الغرفة واستغرق فى القراءة. وقد أثرت هذه الحياة فى صحته وأخذت تظهر عليه أعراض، مرض عصبى، فحدث له مرة أن خرج مع صديقه فى نزهة فسقط فى الطريق. وكانا ذات مرة يسيران ثم انعطفا إلى الشارع فإذا جنازة تقابلهما فما ان شاهدها حتى انتابته نوبة شديدة اضطرت صديقه إلى حمله بمعاونة بعض الناس إلى البيت، وكان يعقب هذا النوبات انقباض يستمر يومين أو ثلاثة فلا يقوى على العمل.

وصرع «دستويفسكى» كما وصف كان تشنجات فى فقدان الوعى والسقوط. والمعلوم انه يسبق نوبة الصرع بحصر المعنى، فى بعض الأحيان ما نسميه انذار الصرع: فالمريض يشعر بحصر حاد ولديه طباع بالغرابة، ويعود الوعى إلى حالته السوية تدريجاً بد الهجمة. ومع ذلك ثمة حالة من الخلق العقلى تتوسط النوبة والعودة إلى الوضع السوى .

من خلال هذا الصرع كتب دستويفسكى العبقرى العظيم أروع أعماله الأدبية، وكان بذلك عالم نفسى كبير بين علماء النفس، وأعماق القلب الإنسانى لها عليه تأثير سحرى، وهذا هو عالمه الحقيقى: اللاوعى والوعى الغامض، وما لا يسبر غوره لقد ارتقى به المرض إلى العاطفة التى لا يستطيع الوصول إليها الناس العاديون.



ديــدرو

ملهم دائرة المعارف العالمية والذى انتابه الجنون الهستيرى!!

ديدرو

عندما يريد الباحث أن يقسم كُتاب القرن الثامن عشر حسب المنهج العادى، وأن يميز بين أنصار العقل واتباع العاطفة، يجد نفسه بازاء «ديدرو» حائرا كل الحيرة، فهو من ناحية، ملهم دائرة المعارف التى هى من أسمى انتاج الفلاسفة العقليين فى ذلك العصر، كما انه من أبرز المفكرين الذين يقدسون الطبيعة. وهو من ناحية أخرى منجم من مناجم الأحاسيس والعواطف. وفوق ذلك فانه منبع من منابع الحماس والحرارة، وطليعة من طلائع الرومانسية الأوربية. وتعتبر شخصيته ملتقى لما يعد عند غيره من المتضادات كالعقل والعاطفة. وكان إلى جانب ذلك كله قوياً قوة لا تغالب وذا عزيمة فولاذية، بل ان فريقاً من الباحثين قد جزم بأن الفضل فى وجود دائرة المعارف راجع فى أكثر نواحيه إلى عزيمة ديدرو، ويعلن ان كل ما عزى اليه من ضعف صحى كان ينمحى أمام شجاعته واصراره على انهاء عمله ومثابرته فى متابعته بلا أدنى توقف أو فتور. وفى الحق انه كان يحمل لرسالته حباً وحرارة لا يتيسران الا للمتنسكين. وأخيراً يمكن القول بأن سلوكه فى ذلك المحيط الموسوعى كان على مستوى ذكائه ومواهبه.

ولد «دينس ديدرو» فى ٥ أكتوبر ١٧١٣ فى مدينة لانجرز من أسرة متواضعة. وكان أبوه يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص فى صنع آلات الجراحة. وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لمائتى سنة خلت. ولم يرث «دينس» عن أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم، ولكنه لم يكف يوماً عن احلاله وحسن تقديره لأمانة أبيه الموسومة بالبساطة واقباله على أعمال البر والخير فى هدوء. وينقل عنه دينس قوله: «أى بنى، أى بنى ان العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنى أجد وثارة وراحة أكثر حين أسند رأسى إلى وسادة الدين والقوانين».

ولما ترعرع «دينس ديدرو» أدخله والده مدرسة اليسوعيين فى مدينته، فنشأ نشأة دينية محافظة من الجانبين، لأن أسرته كانت قد بلغت من التقوى والورع حدا لا تفوقه مدرسة اليسوعيين الا بالأساليب المنمقة، والعبارات المنظمة. ولما أتم دور الدراسة الثانوية ارتحل إلى باريس ليدرس الحقوق فى كليتها العالية. وبعد أن أتم دراسته عرض عليه والده أن يختار أحد أمرين: اما أن يبحث له عن عمل يعيش منه واما أن يعود إلى مسقط رأسه، ليعيش بجانب والده معيشة لا تكلفه تلك النفقات الباهظة التى ينفقها فى باريس. وكان هذا الأمر الأخير مستحيلاً، لأنه قد تعود على أساليب الحياة الباريسية وألف الاختلاف إلى البيئات الثقافية المليئة باحركة والنشاط. فبعث إلى والده رسالة رفض فيها العودة إلى المدينة الصغيرة فلم يكن من الوالد الذى ناء بعبء النفقات الفادحة بالنسبة إلى أمثاله الا أن قطع عن ابنه ما كان يرسله اليه من مال. فلما رأى ديدرو أنه أصبح وحيداً لا عون له ولا سند فى الحياة، وأضحى مرغماً على العمل للقوت، لأنه اما أن يعيش من مجهوده الخاص، واما أن يهوى إلى حضيض البؤس. ولكن هذا الشاب الذكى الممتلئ قوة وحيوية قد انجرفت كبرياؤه وأهين فى عزته واعتبر هذه المعاملة القاسية من والده شائكة لشخصيته، فهب يقدح زناد فكره للخروج من هذا المأزق الذى لحقه منه - وهو لا يزال فى ريعان شبابه - اهانة قاسية. فاهتدى فى النهاية إلى حل ينقذه من هذه الورطة التى أوقعته فيها ظروفه السيئة، وهذا الحل هو أن يحترف الدروس الخاصة يعطيها لصغار الطلاب ويتقاضى عليها أجورا بسيطة، فكان يتكسب من هذا العمل ما يكفى لانفاقه فى باريس بهيئة متوسطة. ولم يكن ديدرو شابا سفيها أو سيئ التصرف حتى ينفق كل ما يصل إلى يده من المال على مظاهره أو على بواعث ملذاته، وانما كان شابا عاقلاً حكيماً يحرم نفسه مباهج الحياة الباريسية الفاخرة بل بعض ضرورياتها ليقتصد مبلغاً من كل شهر ينفقه على تعلم اللغات التى لا قوام لحياته إلا بها. فاتقن الانجليزية والايطالية والاغريقية واللاتينية، ولم يكتف بهذه الدراسة العالية للغات المختلفة، بل أحس فى نفسه بشغف شديد يدفعه إلى التبحر فى الرياضة، فأرضى هذا الشغف فى نفسه وعكف على مواردها المختلفة فقتلها بحثاً وتعمقاً.

ولهذا تعتبر الأعوام العشرة التى تلت وقوع سوء التفاهم بينه وبين والده أرقى سنى حياته وأكثرها خصوبة وتثقيفاً وتحصيلاً وان كانت تعتبر أشد أيامه فقراً وبؤساً وحرماناً من مسرات الحياة.

وبعد ذلك بزمن كتب كتاباً سماه «رسالة عن المكفوفين» أهان فيه صديقاً عزيزاً لأحد الوزراء فانتهز هذا الوزير فرصة ما كان الشعب ما رمى به «ديدرو» من اللاتينية والالحاد، وهما جريمتان شنيعتان فى فرنسا فى ذلك العصر، فاختفى تحت ستار الدين ودبر الوقيعة لديدرو وزج به فى أعماق السجون بجريمة الالحاد، ولكنه فى الواقع كان محنقاً عليه لما وجهه إلى صديقه من اهانات، فلبث فى السجن مائة يوم كانت سبباً فى شهرته وذيوع مجده فى أنحاء الدولة.

ولما كان أحد رجال الحكم اذ ذاك يعلم انه كان قبل سجنه يعمل على رأس فريق من العلماء والجهابذة لاعداد دائرة معارف كبرى ستكون - لو تمت - فخراً لفرنسا، وانه هو روح هذه الجماعة وقلبها الخفاق وانها بدونه ستكون معرضة للفشل، صمم على الافراج عنه ومنحه الحرية ليستطيع أن يؤدى عمله الماجد على الوجه الأكمل المراد وقد فعل، فعاد إلى مهنته واستمر فى اداء واجبه.

تضافرت كل هذه الأحداث على اسطاع كوكبه وتلألئه فى سماء فرنسا فتطلعت البيئات العالية إلى مرآه، واشتاقت المنتديات الفخمة إلى دعوته والتحدث اليه، وكانت هذه المنتديات الأدبية تذكر اسمه إلى جانب اسمى «فولتير» و «جان جاك روسو» ويتلو المجتمعون فيها بعض تعبيراته على انها مختارات أو نماذج ينبغى احتذاؤها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل كان كثيراً من مثقفى العصر يدعونه بالفيلسوف من غير ذكر اسمه. واذا ذكرت هذه الكلمة فى القرن الثامن عشر صحبها الاجلال والتبجيل اللذان لا حد لهما، فقد بلغ ديدرو قمة المجد فى ذلك الوقت.

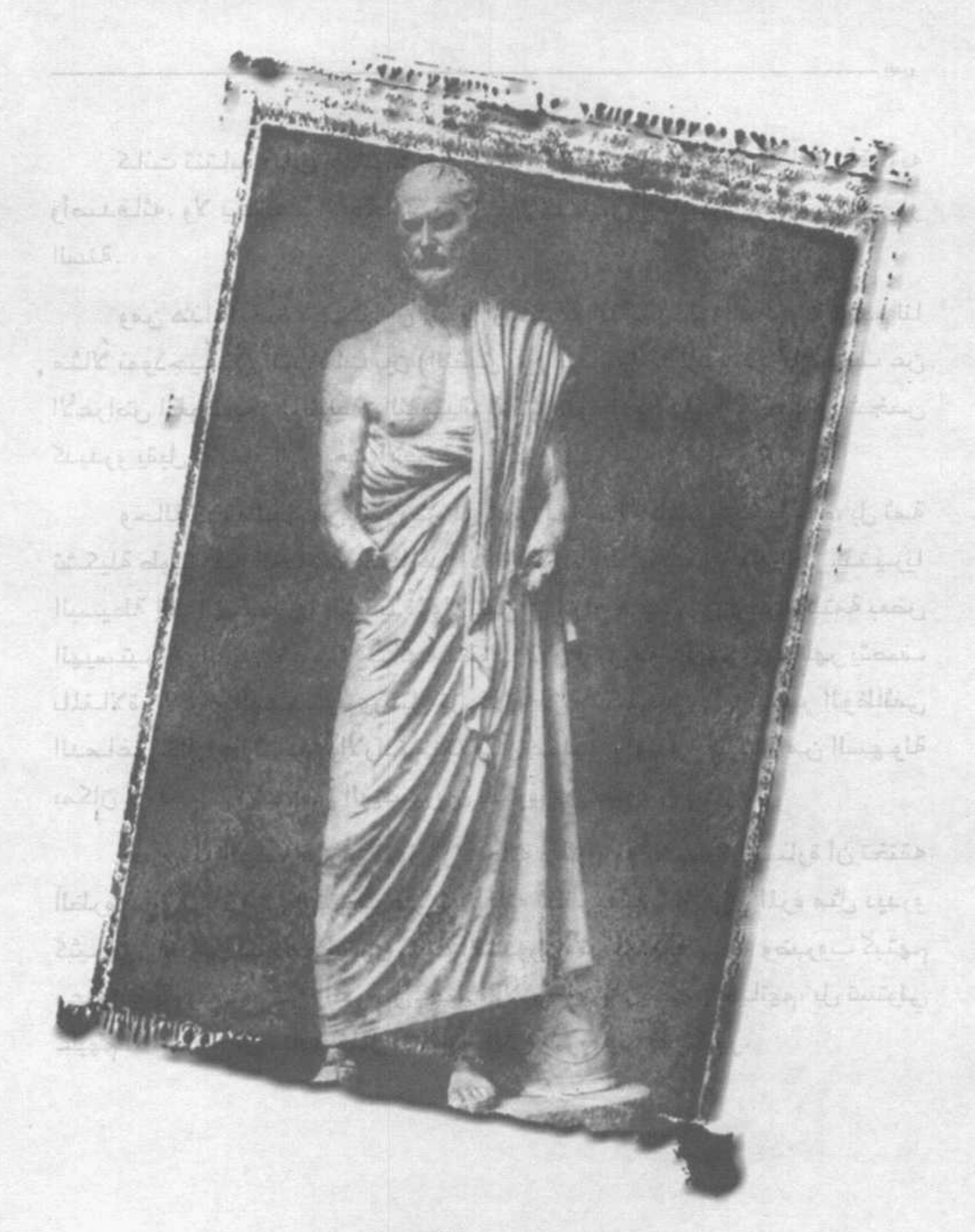
*****

كانت تنتاب ديدرو فترات من الجنون، لا يعرف فيها أحداً من أقاربه وأصدقائه، ولا يستطيع الاجابة اذ سئل عن الساعة أو تاريخ اليوم أو الشهر أو السنة.

ومن هذا الوصف يمكننا ان نقول ان سلطة الدماغ على العضوية تقدم لنا مثالاً نموذجياً عن العلاقات بين (النفس) و (الجسم). فالهيستيريا تكشف عن الأعراض العضوية، العضلية والنفسية، الأكثر تنوعاً. يضاف إلى هذا ان شخص كديدرو يقبل الايماء إلى الحد الأقصى.

وحالة كهذه ليس من المفروض ان تكون لها حالة هيستيرية واحدة، بل ثمة تشكيلة طويلة من الحالات، كما هو الأمر فى كل شئ، تتدرج من الهيستيريا البسيطة إلى الهيستيريا الشديدة. ولا يثير أى مزاج هيستيرى نوبات. فثمة بعض الهيستيريين الذين يقضون حياتهم بطولها دون أن يبدو عليهم أى مظهر يتصف بالمغالاة. والمزاج الهيستيرى قبل كل شئ، مزاج عطوب، وفى السير الوظائفى الدماغى خلل، والشعور والارادة منعدمان عملياً. ولهذا انما كان من السهولة بمكان أن نجعل الاشخاص الهيستيريين يفكرون ويتصرفون بالايحاء.

تستهوينا الرغبة فى أن نقول ازاء حالة ديدرو انه لخسارة..خسارة أن تخنقه الظروف الكثيرة التى اوصدت على امكاناته باباً. خسارة أن يرى المرء مثل ديدرو كثيراً من الناس تقودهم القوى تحت الشعورية، تقودهم عقدهم وضروب كبتهم وعدوانيتهم وبحثهم عن التعويض..هؤلاء الاشخاص لا يحيون حياتهم، بل تستولي عليهم الأحداث. ان مثلهم كمثل الحصاة التي يمر عليها نهر كبير.



ديموستين

خطيب أثينا العظيم الذى تغلب على تلعثمه!!

ديموستين

حياة خطيب أثينا العظيم:

ان تمثال الخطيب العظيم القائم فى متحف الفاتيكان، ليعد من الروائع الفنية الواقعية التى أخرجها العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية، فوجهه يبدو عليه الهم والقلق كأن كل نصر أحرزه فيليب (ملك مقدونيا) قد أحدث غضنا جديداً فى جبهته، والجسم نحيل منهوك ومظهره مظهر الرجل الذى يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها. وتكشف العينان عن حياة قلقة وتتنبآن بموت مدبر.

*****

تعتبر حياة «ديموستين» نموذجاً فريداً للخطيب العبقرى فى كل زمان ومكان. كانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته؛ فكانت خطبه موضوعا لدراسة الخطباء فى الأجيال التى تعاقبت بعده، حتى لقد قال «كونتيليان» ان طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب، بل أن يحفظوها عن ظهر قلب.

ولد «ديموستين» فى أثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد وتوفى أبوه وهو فى السابعة من عمره وترك له ثروة كبيرة ومصنعين أحدهما لصنع الأسلحة؛ ولكن أوصياءه الثلاثة بددوا ثروته، فلما بلغ الثامنة عشر من عمره، طالب برفع الوصاية عنه، كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة ودخل معهم فى نزاع قضائى دام ثلاثة أعوام.

واذا كان «ديموستين» لم يكسب من هذا النزاع مالا كثيراً، فقد اكتسب معرفة بالقانون واجراءات القضاء، وامتلأت نفسه أيضاً كراهية لكل ظلم واعتداء.

أراد أن يدرس القانون لكى يتمكن من مخاصمة أوصيائه ومناقشتهم فتتلمذ على «اسايس» الذى كان من علماء القانون والذى اشتهر بالفصاحة والأسلوب الأنيق.

ولاحظ أثناء مرافعاته الأولى فى قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه فى الكلام، فصمم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيبا قادراً على الكلام والمرافعة. لقد أدخلته أمه المدرسة فى طفولته فنال حظاً من التعليم ثم قرأ كتب التاريخ والأدب وأعجبته فصاحة الخطباء وفتنة ما يحظون به من تصفيق الناس واعجابهم، فتاقت نفسه إلى أن يكون خطيباً، وكانت بلاد اليونان مقسمة فى ذلك التاريخ إلى ولايات ومدن مستقلة وكانت أثينا أعظمها حضارة ومدنية، كما كانت تتمتع بنظام ديمقراطى: فكان لها مجلس للشورى أو «جمعية وطنية» تتألف من خمسمائة عضو من أفراد الشعب، يرجع اليهم الأمر فى شئون الحكم. وكان النظام القضائى يبيح لأى شخص أن يطلب إلى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمراً يستحق عليه العقاب، ويقوم الطالب فى هذه الحالة بمهمة المدعى العام.

وفى ظل هذا النظام تزكوا الخطابة، ويستطيع الخطيب النابغ أن يكون ذا شأن كبير، وانه ليطمح إلى أن يكون خطيبا ليشترك بفصاحته فى ادارة شئون الحكم والسياسة، ولكنه يرى أن محاولاته الأولى لا تبشر بخير فهو ضعيف الصوت قصير النفس مرتبك فى اشارته، وبلسانه لثغة تزيد فى ارتباكه عند الكلام. وفى غمرة يأسه وحيرته صادفه «ساتيروس» الممثل الشهير، الذى اكتشف ما يتمتع به «ديموستين» من عقل يتوقد ذكاء وقلب يشتعل حماسه ونفس تضطرم بالطموح ونفخ فيه من روحه وأعاد اليه الثقة بنفسه، وأقنعه أن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه إلا حسن الالقاء واجادة النطق وهو شئ يكسب بالمران.

ويتحدث الرواة عن الجهود المضنية التى بذلها «ديموستين» فى تذليل ما اعترضه من صعاب، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته طموحه إلى التحليق ولكنها قصت من جناحيه، فصمم على أن يناضل حتى يصل إلى القمة التى يريدها، وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس.

ويروى المؤرخ «بلوتاك» أن «ديموستين» شيد لنفسه حجرة تحت الأرض، كان

ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة وكان يقف أمام المرآة ليتخير الاشارات المناسبة وقت الالقاء، وكان يضع الحصى فى فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ويصعد الجبل عدوا وهو ينشد أبياتا من الشعر بصوت مرتفع أو يقف على ساحل البحر ويرفع صوته بالكلام حتى يطغى على هدير الأمواج وكان يحلق نصف رأسه؛ ليرغم نفسه على ملازمة حجرته بالشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعا إلى دراسته وتمرينه.

وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكلل جهاده بالنجاح ولم يعد يخشى الجمهور، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الاسماع والقلوب ولم يلبث أن أصبح خطيب الجمعية الوطنية بل خطيب أثينا الأعظم!!

ومن عجب أن هذا اللسان الذى كان يثقل فى فمه أصبح لسان أثينا، الذى ينفث السحر ويلهب الحماسة حتى قال عنه «فنيلون» المؤرخ الكبير:

«اننا اذ نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته، فهو يبرق ويرعد وهو سيل يجرف كل شئ يعترض سبيله، فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به؛ لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا».

والواقع أن من يقرأ خطب «ديموستين» اليوم، يشعر فيها بصدق اللهجة والاخلاص الذى يوحى اليه الثقة فى الخطيب، ويروعه منها التدفق وغزارة المادة والمنطق السليم ويجدها مزاجا رائعا من الموضوعية التى تقنع العقل والحماسة التى تثير الشعور. وكانت هذه أخص خصائص أسلوبه الخطابى.

وكانت عبقرية ديموستين متشبعة متعددة الجوانب، مما جعله فريداً فى العالم القديم: فقد جمع فى شخصه بين الوطنى المتحمس والسياسى البعيد النظر والفنان النابغ الذى لا يشق له غبار.

وقد خصص «دايونيسياس» بحثا عنه فقال إنه سما بالنثر اليونانى إلى حد الكمال، بما قام به من مزج رائع بين عناصر كانت لا تزال متفرقة فى ذلك الوقت بل لقد فاق المتخصصين فى كثير من الفنون. فاق مدرسة «انتيفون» فى الوضوح

والصفاء، ومدرسة «ليسياس» فى الحماسة، ومدرسة «ايزوكرات» فى التنوع والقوة والشعور العميق.

هذا هو «ديموستين» وقد نضجت عبقريته واكتملت قوته، فما الدور الذى هيأه له القدر ليلعبه على مسرح الحياة؟

لقد سخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه وقضى حياته كلها مجاهداً فى سبيل مثل أعلى فى السياسة وحكم الشعوب، ومات فى سبيل ذلك كما يموت الأبطال والشهداء.

*****

مراحل الكفاح السياسى:

عندما درس «ديموستين» القانون كان يهدف إلى الانتفاع بذلك فى مباشرة قضيته وشئونه الخاصة، ولكنه لم يلبث أن اتخذه مهنة يتكسب بها، واحترف كتابه الخطب والمرافعات لم يطلبها لالقائها فى المحافل أو أمام المحاكم، ثم نال اجازة رسمية فى الحقوق وطفق يترافع بنفسه فى مجالى القضاء، وجمع ثروة كبيرة.

وأخذ «ديموستين» يهتم بالسياسة وكانت مناقشات المجلس الاثينى العام - وهو البرلمان الشعبى الذى يعقد فى سوق المدينة ويشترك فى مناقشاته كل مواطن حر متمتع بحقوق المدنية - ودراسته لتاريخ أثينا الحافل بالأمجاد تدفعه إلى الاهتمام بشئون السياسة والمشاركة فى مناقشة قضايا وطنه.

وكانت المرحلة الأولى لكفاحه السياسى موجهة إلى النهوض بروح الشعب الأثينى، الذى نبذ تقاليده وخمدت حميته وانغمس فى اللهو. كان يرى أن أثينا هى الزعيمة الطبيعية لمدن اليونان التى يجب أن تعيش فى تعاون فلا تعتدى احداها على الآخر، ولكى تضطلع أثينا بهذا الدور يجب أولاً أن تكون جديرة به، ولهذا قدم ديموستين برنامجا عمليا لاصلاح الأنظمة السائدة بصورة تعزز الديموقراطية وتزيد فى ثروة الدولة وتضاعف قوتها العسكرية، وأخذ يطالب

باصلاح القوانين واجراءات التقاضى ويهاجم محترفى السياسة والمتطفلين على التشريع، وينادى بأن تنتصر أثينا لكل مدينة يعتدى عليها حتى تسود العدالة السياسية ويزول الظلم والطغيان. ومن كلماته قوله: «ان الظلم والخداع ونقض العهود لا يمكن أبدا أن تؤدى إلى قوة حقيقية، انها قد تؤدى إلى سيادة وقتية؛ ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شيدته من أحلام وكما أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكن قوية متينة، كذلك يجب أن تقوم كل سياسة على دعائم من الصدق والشرف..».

الخطب الفيلبية:

لكن جهاد «ديمستين» الأكبر الذى وقف عليه حياته ومات فى سبيله، كان فى تنبيه الأثينيين إلى خطر «فيليب» ملك مقدونيا، وحثهم على الاستعداد للقائه ثم تحريضهم بعد ذلك على مقاتلته.

كان «فيليب» والد الاسكندر الأكبر ملكا لمقاطعة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان، وكان يريد أن يبسط نفوذه على بلاد اليونان كلها؛ فهب ديموستين واتخذ من فصاحته سلاحا شهره فى وجه فيليب ليصده عن سلب الاغريق حريتهم واستقلاله، وقضى بقية حياته يستفز شعب أثينا للقتال ويحث شعب الاغريق على الثبات والنضال، وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيلبية أو الفيلبيات.

فلنسمع اليه فى خطبة الفيلبية الأولى يحاول أن يشعل الحماسة والوطنية فى شعب أثينا فيقول:

«يا رجال أثينا:

ربما كان فيكم من تهوله عظمة فيليب ويرى ما هو عليه من ضخامة الملك، وقوة الجيش وكثرة البطش فيظنه لا يقهر، فاذكروا أثينا وانه أتى عليها عهد كانت فيه أيضا عزيزة الجانب، وكان لها من سعة السلطان ورفعة الشأن مثل ما له الآن. وهذه الأمم المنضمة اليوم تحت لواء فيليب كانت حرة تؤثر التحالف معنا عليه.

فلو أن فيليب فكر يومئذ كما نفكر نحن اليوم وقال فى نفسه لا طاقة لى على محاربة الأثينيين وقد ملأوا البسيطة عدة وعديدا، لما أقدم على عمل ولكنه لم يدع لهذا الفكر ممرا بباله ولا معلقا بخاطره، بل عرف أن الفوز للجسور دون سواه.

فاذا كنتم أيها الأثينيون تريدون أن تقدموا اليوم بما قصرتم عنه أمس، اذا كنتم قد عزمتم العزم الأكيد أن تستقلوا غير متواكلين ولا متخاذلين فقد فزتم باذن الله وأصلحتم حالكم واسترجعتم مالكم. لا تحسبوا فيليب هذا إلها لا ينال، ان هو إلا هدف دائم للبغض والحسد والخوف لا يأمن حتى أقرب المخلصين له فإن من حوله بشر مثلكم لهم أهواؤهم وشهواتهم وعواطفهم المتباينة ولكنهم فى حاجة إلى نصير. تلك الأهواء والشهوات قد ضغط عليها الخمول كما ضغط عليكم وهذا ما أسألكم أن تنفضوه عنكم.

إلام يا رجال أثينا تظلون «غرضا يرمى وفيئا ينهب؟» ما الذى تنتظرون؟ الساعة الموافقة؟ وحق جوبتر لا أعرف ساعة أنسب لتحريك الهمم فى النفوس الحرة من ساعة الذل والهوان.. أتريدون أن تطوى أعماركم وأنتم تتساءلون ماذا من جديد؟ ترحاً لكم وهل من جديد مثل هذا المقدونى قاهر أثينا ومخضع الأغريق. تعللون النفس بالآمال ترقبون موت فيليب أو اعتلاله، وتنسون أن ذلك لا يبدل من حالكم شيئا؛ لأن ما يساوركم من الخمول والعجز والضعة لا ينفع لديكم إلا أن يسلط (فيليب) آخر عليكم.»

وله من خطبة أخرى:

أيها الأثينيون.

«رب معترض فيكم يظن افحامى اذا سأل: ماذا نفعل اذن؟ أما أنا فأجيب، لا تفعلوا شيئا مما تفعلون الآن وافعلوا كل ما لم تفعلوه، على أنى سأزيدكم بيانا، على الذين سارعوا إلى السؤال أن يسارعوا إلى العمل فاذكروا أيها الأثينيون ان فيليب نكث عهده معكم وكان البادئ بالعدوان ثم اذكروا أن فيليب هو عدو أثينا الألد، عدوها الذى يكره أرضها وسماءها بل يكره منكم حتى أولئك الذين يغتبطون بأنهم نالوا حظوة عنده.

ان أبغض ما يبغضه فيليب وأخوف ما يتخوفه هو حريتنا هو نظامنا الديمقراطى وفى سبيل القضاء على هذه الحرية وهذا النظام ما فتئ ينصب الشراك ويدبر المكائد. هو يعرف حق المعرفة أنه لو أخضع بلاد الاغريق بأسرها وبسط عليها سلطانه من أقصاها إلى أقصاها، لما جعله ذلك منها فى جناح آمن ما دامت ديمقراطيتكم سالمة، وهو يعرف أيضا أنه اذا خانته الأقدار يوما وقلب الدهر له ظهر المجن، فكل هذه الشعوب التى أخضعها عنوة تبادر إلى خلع نيره والانضواء تحت لوائكم.

أفى العالم ظلم يجب دفعه؟ هاكم أثينا! أفى العالم أمة مقهورة تطلب نصيرا هاكم أثينا أفتعجبون بعد هذا اذا كان فيليب لا يطيق صبرا على هذه الحرية التى تقف منه موقف الرقيب على جرائمه المحاسب على آثامه..!»

وله خطب أخرى، منها:

«أيها الأثينيون. حتى متى سكونكم واخلادكم إلى التوانى؟ متى تدب الحياة فى عروقكم ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم؟ ماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء؟ أى دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب أقوى من تهديد بالزوال وشرفها بالتمزق وكلمتها بالتفرق؟ انه لعار لن يفارقكم ولن يمحوه الموت يوم يواريكم فى قبوركم.

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضا عما جاءه من أنباء فيليب، فيقول واحد انه مات ويقول الآخر بل هو مريض!! يا عجبا ..!! عجبا يمزق القلب أى نبأ هناك غير أن مقدونيا يسعى لقهر أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعا؟ ماذا عسى أن تصيبوا من المغانم لو مرض فيليب أو مات أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء؟ وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون هذا فى الشدة عليكم. فان فيليب ما قوى اليوم إلا بضعفكم ولا تحرك الا بسكونكم.»

ثم يستنكر ديموستين فكرة الاعتماد على الجنود المرتزقة المأجورين فيقول:

«لا تقولوا المرتزقة. نريد رجالا أحراراً أنبتتهم تربة أثينا يرون سعادتهم فى عزها وشقاءهم فى ذلها، ومن أرضها كانت بدايتهم وفى أرضها نهايتهم، منها خلقوا واليها يعودون كرة أخرى أولئك هم أباة الضيم الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى».

ثم يحذرهم من الحرب المباغتة ويدعو إلى الاستعداد لها قبل وقوعها ويقول:

« ان الحروب لا ضابط لها ولا قانون. فهل تريدون الانتظار حتى يأتيكم نبأ الاغارة المفاجئة؛ فيضيع الوقت فى المشاورة وحشد الجيوش وتدبير نفقاتها حتى تفوت الفرصة وتسقط المواقع التى نريد الدفاع عنها فى يد أعدائنا قبل أن نخف لنجدتها. اذا كنا فعلنا ذلك فيما مضى فلأنه لم تكن لنا تجارب ولم نكن قد ابتلينا بمثله. أما الآن وقد عظم الخطب وتفاقم الأمر وأصبح فيليب على أبوابنا، فقد وجبت علينا المبادرة إلى تغيير هذه الخطة الخرقاء ».

وقد كانت الخطبة وتهيؤ فيليب للاستيلاء على حصن للأثينيين بالقرب من بيزنطة باعثا لهم أثينا، فأصدرت قرارا بتجهيز عدة أساطيل لحماية ذلك الحصن فعدل فيليب عن عزمه، ولكنه هاجم بعد ذلك «أولنتوس» وهى المدينة الوحيدة من دون بحر ايجه التى بقى فى وسعها أن توقف زحفه، فاستنجدت بأثينا فأسرع ديموستين إلى المنبر يدعو إلى نجدتها، ويصف سياسة فيليب ويرميه بالنفاق ويؤكد لأهل أثينا أن مصلحتهم تقضى عليهم بمقاومة طغيان فيليب فيقول:

« انكم لا يمكن أن تكونوا أخطأتم أيها الأثينيون اذا أخذتم على عاتقكم عبء القتال من أجل الحرية والسلام للجميع. لا وحق أبنائنا الأولين الذين قابلوا العدو عند (ماراثون) لا وحق بحارة «سالاميس» لا وحق أولئك الأبطال من الرجال الشجعان الذين ترقد عظامهم فى أرض الوطن والذين كللوا هاماتنا بالمجد. أقسم بهم جميعا وبكل من مات فى سبيل البلاد ... ».

وقد استجابت أثينا لندائه وأرسلت حملة عسكرية تضم ثلاثين سفينة وألفين من الجنود والمرتزقة. غير أن سلوك القواد أضاع فائدة هذا المدد،وبذل «فيليب» الأموال لقضاة «أولنثوس» ففتحوا له أبوابها وسلموا المدينة؛ فأباحها

للنهب والسلب وباع أهلها بيع السلع وأقام حفلات فخمة حضرها كثيرون من أنحاء اليونان فأحسن لقاءهم وملك قلوبهم بالمال والعطاء وعادوا إلى بلادهم؛ فكانوا دعاة للهزيمة وأعواناً لفيليب.

وبسقوط أولنثوس وفشل أثينا في انقاذها، قوى في أثينا الحزب الذى يدعو إلى مسالمة فيليب، والذى يضم خليطاً من الزعماء منهم المخلص ومنهم الخائن مثل «ديمادس» الذى كان صنيعة فيليب.

وكان ديموستين قد انتخب عضوا فى مجلس الخمسمائة وأخذ يعلن فيه آراءه السياسية التى فرضتها عليه الأوضاع الجديدة، واضطر إلى مسايرة دعاة السلم فأرسلت أثينا وفدا للصلح مع فيليب، وقد نص اتفاق الصلح على أن يكف الطرفان عن الحرب مع احتفاظ كل منهما بما تحت يده من البلاد.

ولكن هذا الصلح ما كان ليدوم ما دام فيليب لا يعدل عن أطماعه، فقد أخذ يعمل لعزل أثينا عن باقى المدن الاغريقية، وعاد ديموستين يجوب أنحاء اليونان ليكشف عن نيات فيليب، ويحث المدن اليونانية على التحالف مع أثينا ويحرض الأثينيين على الاستعداد والتأهب للقتال ويقول لهم:

«ان الصداقة التى تعقد بين الجمهوريات وبين الطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التى يركن اليها. ماذا تريدون؟ الحرية؟ الا ترون اذن أن ألقاب فيليب نفسها هى انكار لهذه الحرية التى تنشدونها؟ ان كل حاكم مستبد هو عدو للحرية وعدو للقانون انكم تحاولون تجنب الحرب، ولكننى أخشى أن تقودكم هذه المحاولة إلى الوقوع تحت نير الاستبعاد..»

ومضى «ديموستين» يخطب ويخطب ومهما حاولنا نقل بعض ما جاء في خطبة، فستظل كلماتها رمادا متخلفا عن نار الحياة وحرارتها بعد أن قام بينها وبين العالم ستار الموت والخلود، وسيظل الحجاب قائماً بيننا وبين الخطيب ومنصته، والجمهور وحماسته، والزعيم وحرارته.

شهادة من عدو!!

هذا هو ديموستين يرسم لأهل أثينا سياسة عملية من خطبة له فى المجلس:

«ان منكم يا أهل أثينا من يعتقد أنه يحرج الخطيب اذا سأل فماذا نفعل؟ ولكنى أتلقف هذا السؤال وأجيب عليه فأقول لكم: لا تفعلوا شيئا مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شئ لم تفعلوه وانه لجواب حق وصدق ولكنى سأزيد لكم الأمر ايضاحاً ولعل أولئك الذين سارعوا إلى السؤال يسارعون أيضا إلى العمل. اذكروا أولا أن فيليب قد نقض عهدكم وهذه حقيقة لا مراء فيها ولا محل للخلاف عليها، ثم اذكروا أيضا أنه عدو أثينا الألد عدوها الذى يكره أرضها وأسوارها بل ويكره أولئك الذين يظنون منكم أنهم نالوا حظوة لديه. ان أعظم ما يخشاه فيليب ويمقته هو حريتنا ونظامنا الديمقراطى وانه ليهيئ أشراكه لكى يقضى على هذه الحرية وهذاالنظلم، لأنه يعلم جيداً أنه لو أخضع جميع بلاد الاغريق، فسوف يظل غير آمن ما دامت ديمقراطيتكم سليمة لم تمس. وهو يعلم أنه لو أصابته الأقدار بهزيمة، فإن جميع هذه البلاد التى قهرها سوف تسارع إلى الانضمام اليكم لاستعادة حريتها. ان فيليب لا يطيق الصبر على هذه الحرية الأثينية التى تقف موقف الجاسوس يرقب شروره وآثامه فهو يعبئ جيوشه وينصب أشراكه لقتالنا.

والآن ماذا يجب أن تفعلوا؟ يجب أن يسارع كل منكم إلى التبرع بنسبة ما يملك ثم انهضوا بالجيش واحتفظوا بقوات مسلحة قوية، حتى اذا تهيأ فيليب لغزو الاغريق وجدتم الجيش اللازم وامداد حلفائكم. لا تحدثونى عما يحتاج اليه هذا العمل من نفقات ومتاعب، فانى لست أنكرها ولكنها تهون كلها اذا نظرنا إلى الخطر الذى يهددنا.

هل تظنون أن فيليب لن ينالكم بأذى اذا ظللتم وادعين لا تحفلون بما يعمل؟ لو أكد ذلك أحد الآلهة فانى لا أشير به عليكم! أجل .. انه لخير لى أن أهلك من أن أشير عليكم بهذا، فليشر به من يشاء غيرى واستمعوا لأقواله اذا أردتم، أما اذا كنتم تشعرون بما أشعر به وترون معى أنه كلما امتدت فتوحات فيليب، كان فى

ذلك تقوية له وسند يشد أزره علينا حين نضطر إلى مكافحته .. اذا كنتم ترون ذلك فلم ترددون؟ وماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون حتى تقع الواقعة ويضيع الشرف؟ هل تنتظرون حتى تشاهدوا رجال فيليب فى طرقات أثينا يلقونكم بالصفع والجلد؟ ألا لا قدرت الآلهة .. فان مجرد النطق بهذه الكلمات ذل ومهانة ..».

بهذه الكلمات التى تتقد حماسة واخلاصا، كان ديموستين يدعو الأثينيين إلى القتال ولم تكن هذه الخطب مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين، ولكنها كانت تحوى من أدلة الاقناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين: «انى لأعطيه صوتى ليعلن الحرب على بلادى وأسلمه قيادة الجيوش ..».

وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفاً لسهام بلاغته والفضل ما شهدت به الأعداء!!

*****

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل ما كان من نزاع وحروب بين مقدونيا وأثينا، وحسبنا أن نذكر أن الحوادث كانت تجد ديموستين دائماً فى انتظارها، وأن الخطوب كانت تلقاه مترصدا لها يلقاها أقوى ما يكون ايمانا وأثبت جنانا، وأفصح لسانا لا يخشى العدو الظافر الذى كان يكتسح من حوله، بل كان لذلك ايمانا بصحة فكرته وصدق دعوته. وعبثاً حاول «فيليب» أن يشتريه بالمال كما اشترى غيره من زعماء أثينا وخطبائها.

وقد جرد فيليب الحملات على تراقيا واحتل كثيرا من مدنها، ولما رأت بلاد الفرس تقدم «فيليب» وتوغله عملت على محاربته، فقام ديموستين يحث أثينا فى الخطبة الفيلبية الأخيرة على انتهاز الفرصة وتخليص بيرنثوس وبيزنطة من فيليب: فسيرت أثينا اليها أسطولا ضخما تبرع ديموستين بشراء وتجهيز احدى سفنه من ماله الخاص، فلم ينجح فيليب فى الاستيلاء على بيزنطة واضطر إلى رفع الحصار عنها والعودة خائبا. وارتفعت مكانة ديموستين فى أعين أهل أثينا فأهدوه تاجا من الذهب اعترافا بفضله وتقديرا لجهاده.

ولكن فيليب عاد فاستولى على بعض المدن التى تفتح أمامه الطريق لجنوب اليونان وهدد بذلك أثينا، فدعا ديموستين إلى الحرب وسافر إلى بيوثيا، وحملها بسحره على التحالف مع أثينا والتقى الجيشان ولكن فيليب هزمها هزيمة نكراء، وان كان قد قتل بيد أحد ضباطه وهو يحتفل بانتصاره وخلفه ابنه الاسكندر الأكبر.

وعندما ذاع خبر قتل «فيليب» عمت الفرحة بلاد اليونان وحمل أهل أثينا ديموستين على الأعناق وأدخلوه إلى المجلس العام، وعلى رأسه اكليل من الزهر، فهاجم سياسة مقدونيا ودعا مواطنيه إلى الثورة على الاسكندر. وأرسلت أثينا بناء على نصيحة ديموستين سفراءها إلى البلاد اليونانية تدعوها إلى مقاومة خليفة «فيليب» والثورة عليه؛ فتمردت مدينة «ثيبا» وأعلنت العصيان.

ولكن الاسكندر أسرع بالعودة من آسيا الصغرى؛ لاخماد حركات التمرد وزحف على «ثيبا» وسحق ثورتها ونكل بأهلها ودمر جميع منازلها، ولم يبق منها غير منزل واحد هو منزل الشاعر «بيندار».

وبدأت «أثينا» تستعد للحصار وقد عصف بها الرعب ولكن الاسكندر لم يزحف اليها، واكتفى بارسال وفد يطلب باسمه تسليم عدد من الزعماء والقواد اعتبرهم مسئولين عن الحركات المعادية له وكان فى طليعتهم ديموستين.

واستولت الحيرة على أثينا بشأن هذا الطلب وتناقش فيه مجلسها واشترك ديموستين فى المناقشة وروى قصة قال فيها ان الذئاب عاهدت الرعاة مرة على ألا تهاجم القطيع اذا سلموها كلاب الحراسة فقبل الرعاة، ولكن الذئاب عندما رأت الحظيرة بعد ذلك خالية من كلاب الحراسة هاجمت القطيع وفتكت به.

ورفض المجلس طلب تسليم الزعماء والقواد، وأرسل إلى الاسكندر وفدا يلتمس منه العفو عن خصومة، فنجح الوفد فى مسعاه وتم الصلح بين أثينا والاسكندر المقدونى.

واندفع الاسكندر يتابع سياسة أبيه وحقق انتصارات كبيرة فى كل مكان ثم انحدر بجيشه الظافر حتى بلغ الهند.

وكان «ديموستين» فى خلال ذلك يتبع سياسة الحذر حتى لا يعرض أثينا لما تعرضت له «ثيبا» من دمار. وامتزجت حياة ديموستين فى هذه الفترة بقصة غريبة. ذلك أن «هاربال» الذى كان وزيراً لمالية الاسكندر تمرد عليه وانتهز فرصة انشغاله بالحرب فى آسيا، فاستولى على مبلغ طائل من أمواله وجهز أسطولا من ثلاثين سفينة وجيشاً من المرتزقة وهرب إلى شاطئ أثينا ليشعل الثورة على الاسكندر؛ ولكن أثينا رفضت قبوله بنصيحة ديموستين فذهب «هاربال» بمفرده إلى «أثينا» وأعلن فى مجلسها العام أنه يضع نفسه وأمواله وجنوده ومراكبه تحت تصرفها، موهما اياها أن قواد الاسكندر يتحفزون للتمرد عليه وانقسم أهل أثينا إلى فريقين: فكان فريق يرى التعاون مع «هاربال» واعلان الحرب على الاسكندر الذى كان مشغولا بحربه فى آسيا، بينما رأى فريق آخر على رأسه ديموستين ابعاد «هاربال»وعدم الزج بأثينا فى حرب لا تملك فيها من القوى ما يؤهلها لمواجهة قوة الاسكندر، التى بلغ من تعاظمها أنها أطمعت صاحبها فى غزو العالم كله. وفى غمرة الحيرة أرسلت أم الاسكندر والقائد المقدونى «أنتيباتر» الوصيين على مقدونيا وفدا إلى المجلس الأثينى العام يطلبان منه تسليم «هاربال» والمال الذى فى حوزته، واقترح «ديموستين» القبض على «هاربال» وحراسته حتى يعود الاسكندر وحفظ المال الذى معه فى الاكربول فوافق المجلس على الاقتراح، ولكن (هاربال) هرب بعد ذلك من المعتقل، وتبين أن نصف المال الذى كان مودعا فى الأكربول قد اختفى. ولما كان المال محفوظا تحت اشراف لجنة يرأسها ديموستين، فقد اتهمه خصومه بالاهمال الجسيم فى مراقبة الحراس. وأثاروا الشك حوله فطلب ديموستين من المجلس تكليف لجنة للتحقيق فى الموضوع، وأعلن أنه يقبل حكم الموت اذا تبين أنه أخذ شيئا من هذا المال، وانتهى التحقيق بادانة ديموستين دون تقديم دليل مادى على هذه الادانة، فحكم عليه بأن يدفع غرامة قدرها خمسون وزنة.

ولكن ديموستين هرب إلى احدى الجزر حيث قام فى منفاه بعيداً عن أثينا.

ولم تمض شهور على مغادرة ديموستين وطنه، حتى توفى الاسكندر فى

مدينة بابل عام ٣٢٣ق.م بتأثير الحمى وهبت أثينا مرة أخرى للتخلص من النفوذ المقدونى وانهارت مكانه صنائع مقدونيا، وأصدر المجلس العام قرارا بدعوة ديموستين للعودة إلى بلاده؛ فعاد إلى أثينا كما يعود الأبطال الظافرون وخرج لاستقباله الأهالى يتقدمهم القضاه والحكام والكهان.

وبهذا الاستقبال سقطت عن ديموستين العقوبة المعنوية ولجأ المجلس العام إلى نوع من الحيلة؛ لاعفائه من الغرامة الضخمةالتى حكم بها عليه والتى لم يكن يجيز القانون الغاءها: فقد كان من المعتاد أن يمنح الرجل الذى يقدم الضحية لمذبح الاله «زيوس» مبلغا من المال، فعهد المجلس إلى ديموستين القيام بهذه المهمة فى مقابل «خمسين وزنة» وهى قيمة الغرامة.

وكانت الحرب قد اشتعلت بين انتيباتر، الذى خلف الاسكندر على حكم مقدونيا واليونان وبين البلاد الاغريقية الثائرة على حكمه وعلى رأسها أثينا وحققت البلاد الثائرة بعض الانتصارات اللامعة فى أول الأمر؛ ولكنها لم تلبث أن هزمت فى موقعة كرانون سنة ٣٢٢ق.م واقتربت الجيوش المنتصرة من أثينا.

وبدأت البلاد المحاربة ترسل وفودها إلى القائد المقدونى لمفاوضته فى الصلح واستعاد الحزب الموالى لمقدونيا فى أثينا نفوذه القديم؛ فأرسلت أثينا تطلب الهدنة من انتيباتر.

وأعلن أنتيباتر استعداده للتوقف عن مهاجمة أثينا، بشرط أن تخضع لمطالبة ومنها تسليم عدد من الزعماء الوطنيين فى مقدمتهم ديموستين.

واستطاع «ديماس» أكبر خصوم ديموتسين أن يحمل المجلس على قبول شروط القائد المنتصر.

وأدرك الخطيب العظيم أنها النهاية فهرب إلى جزيرة كالوريا، ولجأ إلى معبد الاله «بوسيدن» الذى كان حرما يقدسه أهل اليونان.

وكان «انتيباتر» قد أرسل عملاقا من أتباعه يدعى «أركياس» الذى بدأ حياته ممثلا للقبض على ديموستين، فحاصر المعبد مع فرقة من فرسان تراقيا وحاول أن يحمل ديموستين على الخروج من المعبد المقدس فأخذ يؤكد له أن القائد المقدونى سيعفو عنه لوسلم نفسه.

وجلس ديموستين صامتا يحدق فى الأرض وكأنما كان يدبر فى رأسه أمرا ثم نظر إلى أركياس وقال له متهكما:

ـ انك يا أركياس لم تستطيع يوما أن تؤثر فىّ بتمثيلك ولن تستطيع اليوم أن تؤثر فى بوعودك!

فغضب أركياس وبدأ يهدد ويتوعد فقال له ديموستين:

– انك تتكلم الآن كمقدونى أما قبل ذلك فقد كنت ممثلا زائفا. ولمعت عينا ديموستين بعزم رهيب فقال لرسول انتيباتر:

– انتظر حتى أكتب لأصدقائى.

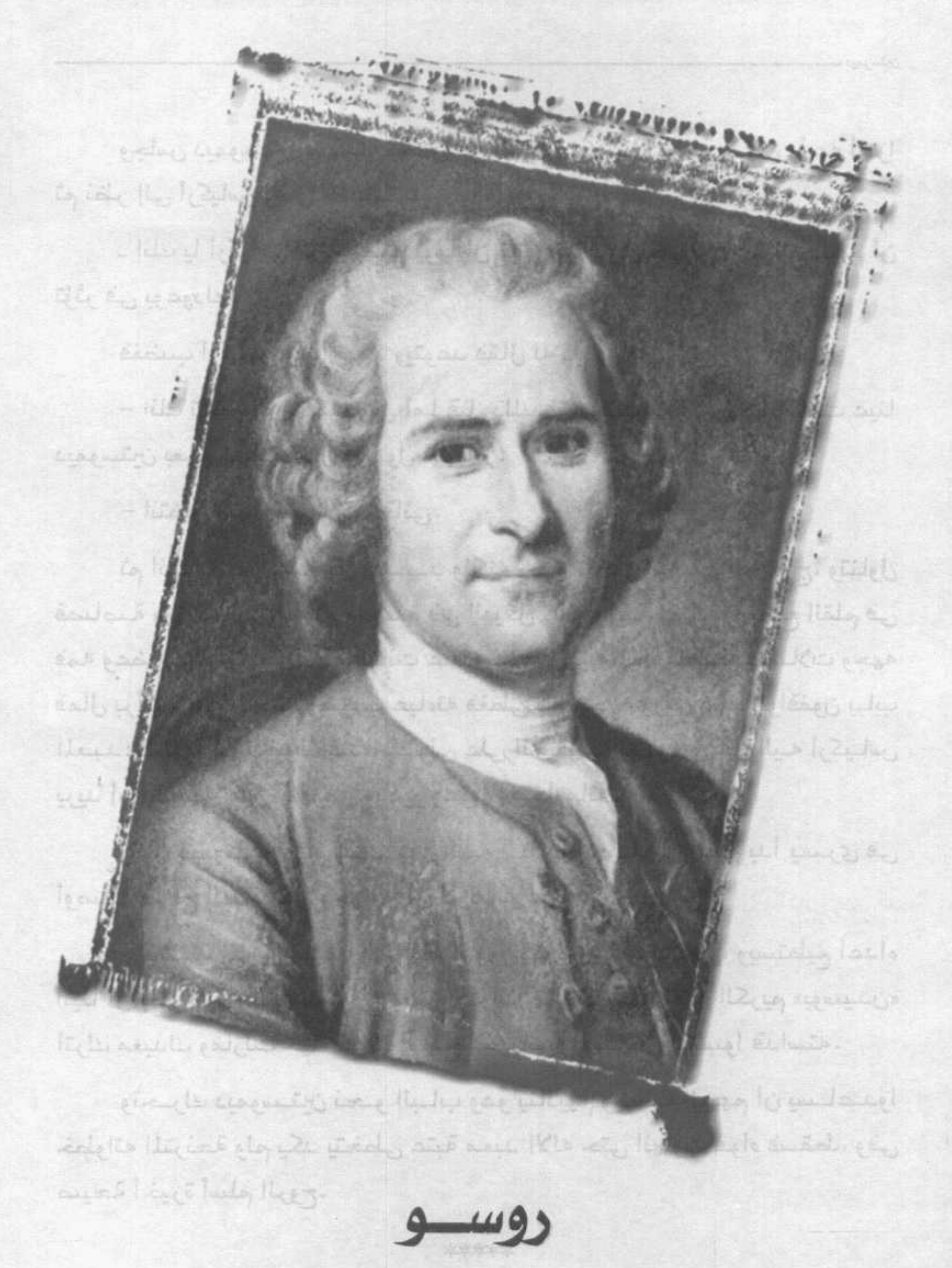
ثم انسحب إلى داخل المعبد ولكنه كان ظاهرا لمن فى الخارج، وتناول قصاصة ورق ثم جلس أمام منضدة فى الهيكل كأنه يريد الكتابة، ووضع القلم فى فمه وعض عليه بأسنانه، كما كانت عادته عند الكتابة، ثم تقلصت عضلات وجهه فمال برأسه إلى الخلف وسحب عباءته فغطى بها وجهه ورأى ذلك الواقفون بباب المعبد؛ فظنوا أن الخوف قد استولى على الخطيب العظيم ودخل اليه أركياس يريد أن يشجعه على النهوض ويكرر وعوده ومساوماته.

وكان ديموستين قد شعر بأن السم الذى امتصه من القلم بدأ يسرى فى أوصاله فأزاح العباءة عن وجهه وقال لأركياس:

– يمكنك الآن أن تلعب فى المأساة دور «كريون» كما تشتهى، ويستطيع أعداء أثينا أن يطرحوا جثتى للجوارح بغير اكتراث؛ ولكننى أيها الاله الكريم «بوسيدن» أترك معبدك ومازلت حيا، كى لا أسمح لانتيباتر ورجاله أن يدنسوا قداسته.

وتحرك ديموستين نحو الباب وهو يناديهم ويطلب اليهم أن يساعدوا خطواته المترنحة ولم يكد يتخطى عتبة معبد الاله حتى انهارت قواه فسقط، وفى صيحة أخيرة أسلم الروح.

*****



روســو

أديب فرنسا وفيلسوفها الذى غالب الشيزوفرنيا !!

جان جاك روسو

هناك علماء وأدباء ومفكرون أحدثت آراؤهم دوياً فى العالم، وكانت الأسباب الرئيسية فى حدوث ثورات وتغيرات عنيفة فى حقول السياسة والاجتماع. ويأتى على رأس هؤلاء المفكر الفرنسى المعوف جان جاك روسو.

واذا كانت سير الرجال العظام هى مراحل التاريخ الذى صنعوه وصورة الأزمنة التى عاشوا فيها، فلابد من البدء بعرض حياة فيلسوف فرنسا كما سطرها فى اعترافاته التى لم يسبقه اليها أديب من قبل لما فيها من جرأة نادرة وصراحة غريبة، وكما سجلها عشرات بل مئات الباحثين الذين كتبوا عنه. واذا كان علينا أن نجمل حياته فى كلمات، فاننا نستعير قول «رومان رولان» فيه: «ان حياة روسو وكتاباته تمثل فى ميدان التاريخ الأوربى حالة ربما كانت فريدة لرجل عبقرى هبطت عليه العبقرية على منشوده وخلافا لارادته».

والحق أن روسو كان ربيب الشوارع وخليل الأشقياء! تعلم فى مدرسة التجارب الكبرى، مدرسة الحياة، وحين كان الآخرون يتعلمون ويتثقفون كان هو يحيا ويتأمل!

سيرة حياته

نشأ جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau فى أسرة بروتستانتية من أصل فرنسى، وقد ولد فى جنيف يوم ٢٨ يونيو ١٧١٢. وتوفيت أمه فى أثناء ولادته، فتعهده أبوه، ايزاك روسو، الساعاتى، بالتربية، وبعد طفولة أحيطت بقدر كبير من الحرية عهد به إلى الراعى لامبرسييه، الذى علمه اللاتينية. وفى عام ١٧٢٧م، التحق تلميذا لدى حفار معروف، كان يقسو فى معاملته، ولم يكن الشاب المراهق راضياً عن هذا الوضع، وكان يفضل القراءة والنزهة فى حقول جنيف. وفى ذات مساء من شهر مارس ١٧٢٨م قرر الا يعود لمعلمه، وهرب سيرا على قدميه فى طرقات سافوى، فآوته مدام «دى وارن» وهى من الأتباع الذين تحولوا إلي الكاثوليكية، وأوفدته الى تورين لكى يعتنق هو الآخر نفس المذهب .

وبعد حياة غير مستقرة، زاول خلالها العديد من المهن عاد الى مدام دى وارن فى شارميت سنة ١٧٣٢م، وهناك قضى روسو فترة سعيدة حتى عام ١٧٤٠م وأتم تعليمه وهو عند تلك السيدة التى طفق يناديها بأمه. ثم غادر شارميت فى عام ١٧٤٢م قاصدا باريس.

وظل روسو طوال عشر سنوات مختلطا بالحياة الاجتماعية وهو يحلم بالشهرة،عمل أولا معلما،ثم مدرسا للموسيقى، ثم سكرتيرا بسفارة فينيسيا. وسرعان ما عزل من وظيفته، ولكنه ظل يحتفظ بذكرى مريرة لاتصالاته الأولى بالمجتمع، وفى عام١٧٤٣م حاول أن يلفت اليه الأنظار، فقدم الى أكاديمية العلوم مشروعا ثوريا عن العلامات الموسيقية على أسس حسابية، ولكن المشروع لم يلق نجاحا، ثم كتب باليه «أشعار الغزل» عام ١٧٤٥م، وتعاون مع ديدرو فى كتابة الموسوعة.

وذات عصر مشمس من أكتوبر ١٧٤٩م لفت نظره اعلان من أكاديمية ديجون يقول ان المؤسسة خصصت وساما ذهبيا لأفضل بحث فى الموضوع الآتى: هل أدى التقدم فى الآداب والعلوم الى تنقية الأخلاق أم الى افسادها؟».

للحال تراءى له انه يقف وجها لوجه أمام السؤال الذى ما انفك منذ طفولته يستعد للاجابة عنه. والتمعت فى ذهنه الأفكار كما يسقط الوحى .

وكتب لاحقا يصف ذلك «لقد تجمهرت الأفكار فى رأسى، تحفز احداها الأخرى». أما الفكرة الرئيسية فكانت الآتية: «الانسان صالح بطبيعته، والمؤسسات الاجتماعية وحدها التى أفسدته» وجاءت ثمرة أفكاره مقالا بعنوان: «مبحث فى العلوم والآداب»، لم تقتصر نتيجته على نيل الجائزة، بل لقد كان نقطة تحول فى الفكر السياسى الغربى. وهو كذلك، أطلق كاتبه جان جاك روسو إلى طليعة الفلاسفة الأوربيين.

وكان مرض روسو النفسى كان هوس الاضهاد، وهو يرتبط فى الغالب بفكرة العظمة. فإذا كان المريض يعلم كل شئ، وكان قوياً وواضحاً على وجه الاطلاق، أليس من مصلحة البعض أن يقتل؟

وقد تبدو الهلوسات فى أغلب الأحيان بأن يسمع المريض أصواتاً تشتمه وتهدده. ويزعم أحياناً أن ثمة من حطم دماغه ليستولى على تفكيره أو يوجه أفكاره. فمن الطبيعى اذن أن يشعر هذا المريض بحصر شديد لايفتأ يعزز هذيانه. ويدعى أحياناً أن الناس يضطهدونه دون أن يضيف أى توضيح. ولكنه يشير فى بعض الأحيان إلى شخص معين، إلى تجمع سياسى، إلى طائفة دينية، وتعلم دوائر الشرطة والسلطات القضائية شيئاً من ذلك.

إن الفكرة الهذيانية التى اخذت ايضاً بروسو هى عبارة عن فكرة خاطئة غير قابلة للتحول يتمسك بها المريض ويؤكدها فى اعتقاد جازم برغم وجود عوامل أخرى تدحضها ومجموعة هذه الأفكار تكون هذيان المريض وهى تنقسم إلى ثلاثة أنواع: أفكار التعالى (مركب العظمة) وأفكار الاضطهاد والأفكار السوداء بسبب الخسارة المالية أو الاحتقار أو التجاهل أو الاتهام.

وهذه الأفكار كثيراً ماتمتزج بالهلوسة وهى التى تسبب الاضطرابات فى علاقات من يصاب بها بنى جنسه والعالم الخارجى وتبين مدى الفرق بين المصاب والسليم. ويمكن أن تترجم الأفكار الهذيانية بأعمال خارجية تدل عليها.

فالمضطهد على ذلك يتحول إلى مضطهد حين ينهض للدفاع عن نفسه بمهاجمة مضطهديه، وهو هنا يصبح خطراً على المجتمع. وفى ذلك كثيراً ما يكتفى بالتعبير اللفظى عن أفكاره وان كان يكتمها فى نفسه فى أحيان كثيرة.

أما عن اصابة روسو بالشيزوفرينا فمن خلال اعترافاته نرى انه كان يحس من كل تصرفات من حوله اضطهاداً يستهدفون من ورائه أذاه؟

إذا كانت الشيزوفرينا عنت الاضطراب العقلى المبكر الذى يصيب الشاب ثم يأخذ فى التزايد حتى يفقده قواه العقلية، فقد قصد البعض اضطراب نفسانى مظاهره عدم الانسجام وضعف الترابط فى التفكير. وبهذا عمم اصطلاح الشيزوفرينا بعد ذلك حتى شمل حالات عديدة منها الحالة التى يكون فيها انساناً ما خاضعاً لتأثير عناصر حياته الداخلية اكثر من خضوعه لتأثير حياته الخارجية ومنها الهلوسة وهى حالة احساس المريض الذى يقوم على أمر وهمى ومنها أفكار الهذيان وهى الاضطراب النفسى الشديد الناشئ عن الانفعالات.

على ضوء ما ذكرناه فإن روسو كان مصاباً بهذه الأمراض النفسية. ولعل العلاقة المميزة لاضطرابه النفسى هى البساطة التى كان يضع بها أقرب أصدقائة موضع الشك ولم تسلم كثرتهم من ذلك، ولذا كان أصدقاؤه المقربون يتجددون باستمرار. ولكن، برغم ما كان روسو يعانيه من اضطراب نفسى وذهنى، وبرغم ما عناه كذلك من تقلبات الزمن معه، فإن ذلك كله لم يؤثر على كتاباته عموماً.

***



سقراط

أكثر الرجال حكمة.. صاحب المأساة!!

سقراط

● يعد سقراط من كبار الفلاسفة وشيوخ الحكمة الذين أثروا فى تطور الفكر لبشرى، وتقدم الفلسفة رغم انه لم يكتب شيئا، وليست له مؤلفات يرجع إليها ويعتمد فى تحديد مواقفه الفكرية عليها، ولكن ما خلفه تلاميذه اللذين أخذوا عنه، واقتدوا به، يعد من أنفس الآثار الفلسفية، وأبقاها على الدهر، وقد قدم سقراط للعالم مثلاً نادراً فى سمو التعاليم، والوقوف إلى جانب ما اعتقد أنه حق، والتضحية بالذات فى سبيل حرية الرأى، والاستهانة بالأختار الراصدة والمخاوف المحدقة.

ولم تتعرض شخصية سقراط للشك الذى تعرضت له بعض الشخصيات التاريخية، فحياته فى أثينا من المسائل المسلم بصحتها، ولكن الآراء مع ذلك مختلفة فى تحديد معالم شخصيته، ووصف مواقفه، وتحرى أخبار حياته ونشأته. وفى مدى علمنا انه يمكن القول بأن البحث التاريخى لم يصل بعد إلى نتائج حاسمة ومقررات نهائية لا يعتورها الشك فى هذا الصدد، وتسمو على المراجعة والتفنيد. والمحاكمة التى ختمت بها مأساة حياته تعد من المحاكمات التاريخية التى طالما غنى بها المفكرون، وشغل بها الناس، مثل محاكمة جان دارك وغيرها من المحاكمات التاريخية المأثورة.

وأهم المراجع التى يعتمد عليها فى تعرف أخبار سقراط ومطالعة آراءه هى «المحاورات» الخيالية التى كتبها أفلاطون، أعظم تلاميذه وأبعدهم شهرة، وأسماهم مكانة فى عالم الفكر، وكذلك ما كتبه عنه اكسانوفون، وان قصر عن مدى أفلاطون ولم يبلغ مبلغه فى الدقة وصحة الفهم، وأفلاطون فى محاوراته يوضح لنا الجوانب المختلفة فى شخصية سقراط وحقيقة أن هذه المحاورات

خيالية، ولكن أفلاطون كتبها فى عهد قوم عاصروا سقراط وعرفوا الكثير عن حياته واتجاهاته الفكرية، فإذا كان اعجابه الشديد بأستاذه قد دفعه إلى تجميل الصورة ونسبة بعض أفكاره الخاصة إلى أفكار سقراط فإنه مع ذلك يمكن إلى حد ما التحقق من صدق الصورة وصحة الآراء بشئ من الرجوع إلى ما كتبه اكسانوفون وما رواه بعض المعاصرين عن سقراط، وإذا كان أصدقاء سقراط وتلامذته قد غالوا فى الاشادة بمزاياه وفضائله فإن خصومه قد بالغوا كذلك فى تسفيه آراءه، وانتقاص قدره وعلى رأسهم شاعر الملهاة الكبير أرستوفانيس Aris-toPhanes فقد قدم لنا صورة فى مسرحية السحب، ملأى بالسخرية من سقراط، واهدار مكانته، وتشويه آراءه. وقد كان سقراط مثل الكثيرين من عظماء الرجال وأفزاز الإنسانية يبعث الحب والاعجاب والتقدير فى قلوب بعض الناس ويثير العداوة الصماء والحقد الشديد فى قلوب فريق آخر منهم. وكان أرستوفانيس من هؤلاء اللذين أساؤا فهم سقراط، ولم يستطيعوا أن يتبينوا حقيقة رسالته، وخالوه من السفسطائيين اللذين حفل بهم عصره.

مولد سقراط
أكثر الرجال حكمة

وقد ولد سقراط سنة ٤٦٩ قبل الميلاد على مقربة من أثينا بعد موقعة سلامير بعشرة أعوام، وهى الموقعة التى انتصر فيها الأثينيون بمساعدة اسبرطة وقضت على قوة اكسرسيز الفارسى، وفى أكثر الروايات أن آباه سوسوفر وينيساكس Sophronisus كان مثالا، وأن والدته فيناريت Phaenarete كانت قابلة. ويروى انه هو نفسه بدأ حياته باتخاذ صفة أبيه، وانه نحت تمثالا لهيرمس وآخر لربات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الأكروبوليس، وكان من الفكاهات التى لا ينفك ينطق بها عن نفسه قوله أنه لم يفعل أكثر لمواصلة حرفة أمه، ولكنه نقلها إلى مجال الأفكار فكان يساعد غيره من الناس على أن يخرجوا للعالم أفكاهم الكامنة فى بواطن نفوسهم.

وفى أكثر الروايات أنه كان فقيراً، وقد عنى عناية كبيرة بصحة جسمه، وكان فى أغلب أيامه قوى البنية، جيد الصحة، وتجلت شجاعته وقوة صبره واحتماله فى أثناء حرب البلوبنيز، وقد حارب فى بوتيديا سنة ٤٣٢ وفى ديليوم سنة ٤٢٤ وفى أمفبوليس سنة ٤٢٢. وأنقذ فى بوتيديا حياة السبياديز وهو من الشخصيات اللامعة فى تاريخ أثينا ومن أشهر تلاميذ سقراط اللذين أساؤا إلى سمعته وكانوا من أسباب محاكمته ونكبته، وقد نزل له سقراط عن جائزة الشجاعة، وقد بز سقراط الجميع فى قوة الاحتمال والصبر على المتاعب دون أن يشكو، ولم يكن سقراط كلفا بالأسفار والرحلات ولذلك لم يترك أثينا آلا فى الحملات الحرَبية وأوقات الجهاد.

وكان سقراط يقنع بثوب بسيط رث طوال السنة، ويؤثر أن يسير بغير حذاء أو خف، وكان مثلا شرودا فى امتلاك زمام النفس، والسيطرة على الأهواء، والقناعة والزهد، وبرغم ذلك لم يسلك فى حياته مسلك القديسين، ولم يحرم على نفسه طيبات الدنيا . وكان يستطيع أن يتناول الشراب كما يفعل أى رجل مثقف دون أن يفقد أتزان عقله وحسن خلقه، وكان لا يأبى الدعوة الى ولائم الاثرياء، ولكن دون أن يفرط فى كرامته، أو أن ينزل عن آرائه. وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك. ولم يكن يفارق ميله الى الدعابة ورقة الحاشية، قال عنه افلاطون «كان بحق اعقل واعدل واحسن من عرفت من الناس فى حياتى كلها»

وقد كان سقراط بطبيعته ميالا الى النقاش والجدل، وقد عمد الى دراسة الفلسفة، وأعجب حينا ما بالسفسطائيين الذين تكاثروا فى أثينا أيام شبابه، وقد التقى فى الأغلب بيارمنيدس ويرونا غوراس وغورغياس وغيرهم من فلاسفة عصره، وليس ببعيد ان يكون قد رأى زينون حينما زار أثينا حوالى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد، ويرجع انه عرف انكساغورس .

وقد تحول من علم الطبيعة الذى مال اليه فى مطلع حياته الى علم الأخلاق، وأخذ يختبر معتقدات الناس ليرى الأسس التى قامت عليها هذه المعتقدات، وكان يطلب ممن يوجه اليهم الأسئلة اجابات دقيقة محددة لا يشوبها

التناقض، ويخيف من يعجز ان يكون واضحا فى تفكيره . منطقيا فى حديثه. وكان يصارح الناس بانه لا يعرف شيئا، وانه ليس سوى هاو من هواة الفلسفة، وحينما سأل صاحبه كريفون عرافة دلفى عن من هو أكثر رجال أثينا حكمة، قالت العرافة انه ليس هناك من هو أكثر حكمة من سقراط. وقد عزا سقراط وصفه بالحكمة الى انه كان لا يعرف شيئا و يجهر بذلك، والفرق بينه وبين غيره من الناس انه يعلم جهله، وهم يظنون أنفسهم عقلاء وحكماء، ويعرفون كل شىء.

وما قالته الكاهنة بعث سقراط على التفكير العميق، وعده شبه أمر له ليعمل به ويقوم بتنفيذه. وهكذا صار سقراط، الفقير الذى لا مال له ولا جاه ولا سيطرة سوى نفوذ بعض أصدقائه من معاصريه الممتازين، صار يعتقد ان له رسالة مقدسة. وكان الرجل يؤمن بالله وبالقيم الروحية، وكان بطبيعته دينى النزعة، ولكنه كان لا يؤمن بحرفية الأساطير الشائعة، ويعتقد انها وليدة أخيلة الشعراء، ولا يرى مع ذلك بأسا فى انتقالها من جيل الى جيل. وصار سقراط يعتقد ان عمله فى حياته هو ان يختبر ويحلل ويكشف اذا استلزم الامر حكمة غيره المزعومة، وكان هذا بدء المتاعب !

فاخوانه المواطنون لم يستريحوا لهذا الكشف الذى يظهر تهافت أفكارهم، وأصبح سقراط فى رأيهم رجلا مولعا بالأسئلة المعقدة ليشبع حب الاستطلاع الذى سيطر على نفسه، فما هدفه ؟ انه لا يعمل شيئا، ولا يقدم جوابا، وانما يثير شكوك الناس فى آرائهم، ولا يستطيع احد أن يجاريه فى ميدان الجدل والنقاش.

وعرف سقراط انه سيثير عداء الكثيرين، ولكن هذا لم يثن عزمه، وحاول فى بادىء الأمر ان يجرى تجربته على احد السياسيين البارزين فى عصره، وكان هذا السياسى يخال نفسه غاية فى سداد الرأى وحسن السياسة، ولم يجد سقراط عند هذا السياسى صحة المعرفة واتساق الآراء وتماسك المنطق، وأدرك انه الأحسن منه حالا لأن هذا السياسى لا يعرف شيئا ويحسب أنه يعرف كل شئ، فى حين أن سقراط يقر بجهله وقلة معرفته. وقد صار هذا السياسى يمقت سقراط أشد المقت لأنه أربكه وأوقعه فى حيرة من أمره.

وكان هذا هو حال الكثيرين ممن حاول سقراط أن يبدو علمهم، ويختبر حكمتهم، وكشف بعد ذلك سطحية آرائهم، وتفاهة تفكيرهم. وبرغم كراهة بعض معاصريه له وتحاملهم عليه فقد أدركوا انه رجل ثاقب الفكر، ولم يكن هو يريد ذلك، مما سبب له الحيرة، وكان سامعوه يعدونه حكيما، وهو يعتقد أن الله وحده هو الذى تفرد بالعلم والحكمة وأما نحن البشر فخير ما نعلمه ان نعرف اننا لا نعرف شيئا!

ولسنا نعرف التاريخ الذى بدأ فيه سقراط يشعر بصوت وحى داخلى أشبه بصوت الضمير بل أقوى منه سيطرة، وهو كثير الاشارة إلى هذا الهاتف الداخلى، وقد تعود طاعته والخضوع لنواهيه، وكان هذا الهاتف سلبيا يخبره بما يمسك عن فعله لا بما يمكن ان يفعله.

اتهام سقراط والحكم باعدامه

ولم يكن سقراط يميل إلى المشاركة فى الاتجاهات السياسية، ولا يتطلع إلى المناصب الادارية، وقد شاء القدر أن يكون عضوا فى مجلس الخمسمائة من سنة ٤٠٦ إلى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد، وكان دائماً فى مواقفه السياسية يتحرى جانب الاعتدال والرفق، وكان هو الوحيد الذى دافع عن القواد المنتصرين فى معركة أرجنوسى البحرية، فقد أتهم ثمانية من هؤلاء القواد المنتصرين بأنهم تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التى أغرقها العدو يموتون غرقا على أثر عاصفة بحرية ولم يعملوا على انقاذهم، وحكم عليهم بالاعدام، ولم تجد معارضة سقراط، ونفذ الحكم فى ستة من هؤلاء القواد.

واستولى بعد ذلك على الحكم فى أثينا ثلاثون من الالجاركيين، وكان حكمهم ارهابياً، فصادروا أموال الكثيرين من أغنياء التجار، ونفوا من المدينة الكثيرين من الديموقراطيين، وأعدموا ألفا وخمسمائة آخرين ولم يتورعوا عن قتل من خالفهم ومن كانوا غير راضيين عنهم سواء لأسباب سياسية أو لدوافع شخصية محضة، وقضوا على حرية الاجتماع، وحرموا أكريتاس - الذى كان يوما

ما من تلاميذ سقراط - على سقراط مواصلة أحاديثه فى الأسواق والأماكن العامة. وأراد الثلاثون أن يعرضوا الفيلسوف للشبهات ويشركوه فى آثامهم، فأمروه بالذهاب مع أربعة آخرين للقبض على التاجر الديموقراطى ليون، فأطاع الأربعة الأمر، وأبى سقراط الاشتراك لذلك معرضا نفسه للانتقام والأخذ بالشدة.

وازدادت جرائم الألجاكيين، وأمعنوا فى الاضطهاد والطغيان مما أدى إلى سقوط حكمهم وزوال دولتهم. وعاد الحكم الديموقراطى إلى أثينا فى سنة ٤٠٣ق.م، وسارت الجمعية التى تولت الحكم سيرا معتدلاً، فلم يصدر حكم بالاعدام إلا على بعض زعماء الثورة على النظام الديموقراطى، وسمح لهم بالنجاة من هذا الحكم بطريق تيسير الخروج من المدينة، وأعلن بعد ذلك العفو العام عن جميع من ساعد الألجاكيين من غير هؤلاء الزعماء، وكان من شأن هذه السياسة الحكيمة أن تعيد إلى أثينا الاستقرار والأمن والسلام الذى كانت فى أشد الحاجة إليه بعد الحروب الدامية وعواصف الخلافات العاتية.

ولكن هذه الديموقراطية السمحة لم تلبث أن تورطت فى خطأ من أكبر الأخطاء التى تورطت فيها حكومة من الحكومات، وهذا الخطأ البالغ هو محاكمة الفيلسوف سقراط بعد نيف على السبعين وأصدار الحكم بأعدامه.

وكانت التهمة الأولى التى وجهت إلى سقراط هى أنه لا يؤمن بآلهة المدينة، ويدعو إلى عبادة غيرها من الآلهة. وكانت التهمة الثانية هى أنه أفسد أخلاق الشباب، وجرأهم على الاستهانة بالتقاليد والخروج على طاعة آبائهم.

وكان من زعماء الحزب المنتصر «أنيتوس» وكان شديد الحقد على سقراط لاعتقاده أنه أفسد عليه أبنه، ولم يشفع لسقراط عند أنيتوس أنه أبى أن يطيع أمر الطغاة الثلاثين فى ابان سطوتهم، وعلو كلمتهم. وأخذ مليتوس وليكون وأنينوس على عاتقهم رفع الدعوى على سقراط، وأحيلت القضية على محكمة مشكلة من قضاة منتخبين من عامة الشعب بطريق الاقتراع، وليس للكثير منهم نصيب من الثقافة أو المعرفة المستفيضة، وكان عددهم خمسمائة وبعضهم من النوتية والتجار وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن المختلفة.

وقد أكد سقراط للمحكمة أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر، وأظهر لمتهميه تناقضهم فى اتهامه قائلا لهم: «انكم تقولون أولا انى لا أومن بالآلهة ثم تتبعون ذلك بقولكم انى أومن بانصاف الآلهة..ان مثلكم هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير».

وأشار إلى اتهام أرستوفانيس له بالمروق وتأثير هذا الاتهام فى نفوس قضاته، وقال لهم أنه مكلف بالقيام بأعباء رسالة الهية مضمونها أرشاد الناس إلى الحياة الصالحة، وانه لا يثنيه شئ عن القيام بما تتطلبه هذه الرسالة، وانه لا يخشى الموت فى سبيل أدائها. وصارحهم قائلاً «إذا قلتم لى، يا سقراط، أنا سنعفو عنك الآن، ولا نشترط عليك إلا أن نكف من هذه الساعة عن متابعة البحث والتفكير على هذا النمط، فأننى سأجيبكم قائلاً إنى أحبكم يا أهل أثينا وأحبكم، ولكنى سأطيع الله ولا أطيعكم، ولن أمتنع ما دمت حياً وما دامت لدى قوه عن الاشتغال بالفلسفة، وتعليمها للناس، وعن القيام بوعظ كل ما ألقاه على طريقتى الخاصة».

وساء ذلك القضاة بطبيعة الحال ورأوا فيه ما يمس كرامتهم، وينال من كبريائهم، فأمروا بأن يكف عن الاسترسال فيما رأوا فيه استهانة بشأنهم، ولكنه مضى فى دفاعه غير عابئ بما أظهروه من الضيق والتبرم واسترسل قائلاً: «أحب أن تعرفوا أنكم إذا أقدمتم على قتل رجل مثلى أسأتم إلى أنفسكم أكثر من اساءتكم لى..لأنكم إن قضيتم على لن يتيسر لكم أن تجدوا رجل آخر مثلى، فأنا إذا سمح لى أن الجأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف كذبابة بعثها الله إلى الدولة، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم بطئ الحركة لضخامة جسمه، وهو فى حاجة إلى ما يبعث فيه الحياة.. وإذا كنتم لن تجدوا مثلى فنصيحتى لكم أن تبقوا علىّ».

وفوض أمره لقضاؤه بعد أن أكد لهم انه يأبى أن يستعطفهم ويستلين قلوبهم. ويتلمس منهم الرحمة، ولم يعجب القضاة هذا الترفع والاباء، وعدوه لونا من ألوان التحدى لهم والاستهانة بهم.

وأعلنت نتيجة المحاكمة بعد اجراء الاقتراع فإذا بالأغلبية تقرر ادانته وتعده مذنباً، وكان القانون يخول له حق مناقشة العقوبة المطلوبة، واختيار العقوبة التى يرضاها لنفسه، ولكن سقراط أصر على رفض أى نوع من أنواع العقوبة لأن قبوله أى عقوبة يتضمن الاعتراف بالذنب، وهو بحسب تقديره برئ من الذنوب، ومن حقه أن يثاب على ما يبذل من النصيحة وحسن التوجيه، ومن حقه على الدولة أن يعيش على نفقتها. وألح عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء أن يقبل تأدية غرامه فى نظير العقوبة وتكفل أفلاطون وسائر الأصدقاء والأتباع بأن يضمنوا تعهده، ولكنه كان قد أغضب القضاة، وأثار نقمتهم عليه، فلما أخذ الرأى للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا بأعدامه!!

حينئذ .. عمل تلاميذه على أن يمهدوا له السبيل للفرار .. والراجح أن قضاته كانوا يؤملون أن ينتهى الأمر على هذا النحو، لأن هدفهم الأصيل كان ابعاده عن أثينا والتخلص منه، ولكنه أبى الفرار وعده نوعاً من الخروج على قوانين بلاده التى يحترمها، وقد نشأ وعاش فى ظل تلك القوانين فكيف يرضى لنفسه أن يستهين بها ويخرج عليها؟ وجائته زوجته باكية وبين زراعيها أصغر أطفالها فأخذ يواسيها وطلب إلى أكريتون أن يصحبها إلى دارها، ولما قال لها أحد تلاميذه المتحمسين «انك لا تستحق هذه الميتة» أجابه سقراط: «وهل تريد أن أستحقها؟».

ولما حان موعد الأجل، وبكر تلاميذه بالحضور. واتفقا أن أفلاطون كان مريضا فى ذلك اليوم فلم يستطع الحضور، وكان سقراط يبدو منشرح الصدر، مطمئن النفس، واثقاً كل الثقة أن الموت انتقال من عالم الدثور والفناء إلى عالم الخلود والبقاء. ودار حديث بينه وبين بعض أصدقائه من الشبان أبدوا فيه ما خالجهم من الشكوك عن بقاء الروح بعد فناء الجسد، فأكد لهم أن الروح لا تولد مع الجسد ولا تفنى بفناؤه وانما تشارك فى الأبدية الحق والخير.

وعند غروب الشمس ودعهم حاكم السجن وهو يبكى لأنه لم يجد فى حياته سجينا أرق منه حاشية وأثبت جنانا. وجاء الحارس الذى يحمل جرعة السم،

فتناول سقراط الكأس فى هدوء وشرب كل ما فيها دون أن يبدى أى تردد أو تقزز، وهكذا كانت خاتمة هذا الفيلسوف الكبير الذى ظل أسمه على كل لسان منذ خمسة وعشرين قرنا من الزمان، يضرب به المثل فى الحكمة والمعرفة.

الحوار السقراطى

اعرف نفسك

المأثور أن سقراط لم يتناول أجر على التعليم لأن نظريته تذهب إلى أن المعرفة موجودة فى النفس يستطيع المرء أن يستنبطها بالتوليد، فكيف يأخذ المعلم أجرا على شئ ليس فى ملكه، قد يكون الأجر جائز فى حالة تعليم الحرف والصناعات، أما فى تعليم الفضائل فهذا لا يجوز.

ومع ذلك فنحن نرى أرستوفانيس، شاعر الملهاة المشهور، يصوره فى تمثيلية السحب صاحب مدرسة، لها باب يقفل عليها، ويتجه إليها الطلبة للتعلم، وقد كتبت هذه التمثيلية ولعبت بالفعل قبل وفاة سقراط بعشرين عاماً، ويقال أنها كانت من جملة الأسباب التى أشاعت عن سقراط تهمة أفساد الشباب. والمقصود بذلك تحويل آراء الشباب واثارتهم على العادات الجارية والتقاليد الموروثة. وحقا كان سقراط يغشى الشباب ويغير أفكاهم. ولكنه لم يكن صاحب مدرسة ولا يتناول أجراً على التعليم، كما لم يعلمهم التغلب بقوة البيان لو كانت الغلبة فى سبيل الباطن، فقد كان هدفه على الدوام بلوغ الحقيقة.

وقد بدأ سقراط فيلسوفا طبيعيا، ففى محاورة فيدون انه قرأ كتاب انكساجوراسى فى العلم الطبيعى ولم يعجبه، لأن صاحبه يصف الواقع كما هو عليه ويبين الأسباب الآلية للظواهر ولا يتعرض لأسبابهاالغائية. ولذلك هجر مذهب فيلسوف العقل فى العلم الطبيعى، وطور قوله بالعقل علة للأمور الانسانية. لقد كان الاتجاه فى الفلسفة قبل سقراط نحو البحث فى الطبيعة، أى فى العالم الخارجى، سواء أكان عالم السماء أم عالم الأرض جاء حتى سقراط،

فوجه هذا الاتجاه نحو البحث فى الإنسان، وفى أخلاقه، وفى نفسه، وهو الذى تمثل بالحكمة المشهورة التى كانت مدونة على باب معهد دلفى: «اعرف نفسك». ولذلك قيل ان سقراط هو الذى أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، بمعنى تحويل الفلسفة نحو البحث فى عالم الانسان لا عالم الطبيعة. ولا شك ان البحث الطبيعى شئ يختلف عن البحث فى الإنسان، فللبحث الأول منهج يناسبه وهو الملاحظة الخارجية والتجربة، وللبحث الثانى منهج آخر، هو التأمل، أو التفكير، أو الجدل أو الحوار. وكان الحوار بوجه خاص هو المنهج الذى اتبعه سقراط، وهو عبارة عن مناقشة تدور بين شخصين أو أكثر، فى هيئة سؤال وجواب، وقد يكون السؤال سؤال استنكار أو تهكم أو استفسار أو تسليم، فإن سلم المستفسر بما يقال ترتبت على ذلك أمور، وان سلم بما يناقضها ترتبت أمور أخرى. ولكن لابد من التسليم بأحدهما على أية حال. وهذا النوع من الحوار كان يستخدمه السفسطائيون، وهو صالح للبحث فى الأمور الانسانية من تقاليد وأخلاق وعقائد دينية وتشريعات دنيوية ومصالح سياسية. ويبدو أنه كان مستخدما فى أكاديمية أفلاطون، إلى ان أبطله أرسطو بمنهجه فى القياس المنطقى والبرهان.

والحوار السقراطى من هذا القبيل غير أنه اتخذ طابعا معينا تميز به، من حيث ان سؤاله تهكم يوقع محاوره، أو خصمه فى الارتباك، ولا يبادر سقراط بالجواب، ولكنه يستخرجه من محاورة نفسه، أو بعبارة أخرى «يولده» من هنا سمى منهجه بالتهكم والتوليد. والنماذج من المحاورات التى كتبها أفلاطون كثيرة. بل ان أحد الموازين التى بها تميز المحاورة السقراطية التى تمثل آراء سقراط من المحاورة الأفلاطونية التى تعكس فكر أفلاطون هو اتباع هذا المنهج. ان وجد واضحا كانت المحاورة سقراطية، مثل محاورة أوطيفرون وأقريطون وبروتاجوراس وغيرها، وان اختفى هذا المنهج وحل محله السرد، والرواية المتصلة كما هى الحال فى «القوانين»، كانت المحاورة أفلاطونية. هذا المنهج اذن يدعو إلى أن يفكر الانسان بنفسه فى نفسه، وأن ينعم النظر فى الآراء والمعتقدات ولا يأخذها قضايا مسلمة، فإن فعل المرء ذلك ذهبت القداسة التى تخلع على العادات والتقاليد والآراء الذائعة والمعتقدات الموروثة، وتبين للمرء أن بعضها صحيح وبعضها الآخر

فاسد، وانها ليست كلها حقا بل بعضها باطل، والقول بأن قوانين الدولة ومعتقداتها باطلة يعد «ثورة» عليها، وأكثر من يتأثر بهذة التعاليم السقراطية هم الشباب، لأن الشيوخ بعد اتباعهم التقاليد الجارية طول عمرهم يجمدون عليها ويصعب عليهم تغييرها أو الثورة عليها. فلما أخذ يثير التفكير، ويسعى وراء الحق، ويبتعد عن الباطل، اتهمه أصحاب المصالح السياسية بأنه يؤلب الشباب ويفسده وانه كما جاء فى عريضة الاتهام مصدر متاعب للدولة ..

ومن الموازين التى يعتمد عليها النقاد فى الفصل بين المحاورة السقراطية والمحاورة الأفلاطونية، ان الأولى لا تنتهى إلى نتيجة حاسمة، وانما تظل المناقشة مفتوحة الأبواب. حقيقى ان المنهج السقراطى باعتباره الطريق الفلسفى لا يمكن أن يصل إلى نتيجة، وانما يستمر فى البحث حتى آخر حياة المفكر، ولا يزال المفكرون منذ سقراط إلى الوقت الحاضر يقلبون الأنظار فى هذه المسائل الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والجمالية.

على هذا الأساس اعتبر المؤرخون محاورات هيباس، وأيون، وخرميدس، ولاخس، وليسيسى، وجورجاس، وبروتاجوراسى، وأطيفرون، والدفاع، وأقريطون، من المحاورات السقراطية. ولم يعدوا فيدون كذلك. غير ان القدماء رتبوا المحاورات ترتيباً آخر. فجمعوا كل أربع منها بحسب موضوع متقارب فى «رابوع»، وأول هذه المجموعات أوطيفرون والدفاع وأقريطون وفيدون، وهى تدور حول اتهام سقراط بانكارالآلهة، ودفاعه عن نفسه فى المحكمة، وسجنه ورفضه الهرب وفى معنى الشجاعة، ثم فيدون وتبحث فى خلود النفس.

ولما كان أرسطو قد اعتبر أن فلسفة سقراط تدور حول أمرين، طلب الحد الكلى، وأن الفضيلة علم، فجدير بنا النظر فى هذين الأمرين، بالإضافة إلى محاكمته لأهميتها فلسفياً.

والحد هو التعريف. والأصل فى الحد أنه يضع نهاية حول شئ معين فلا يكون هذا الشئ مبهماً غامضا، ومن أجل ذلك، سمى الحد تعريفاً، وليس المقصود بالتحديد وضع حدود رياضية كالخطوط أو الدوائر التى تبين معالم الأشياء

المادية بل التحديد الذهنى للمعانى. فنحن نستخدم فى حديثنا ألفاظا كثيرة، تشير إلى مسميات، ولها بلاغات ذهنية. والأصل أننا ندرك الأشياء الحسية فيكون لها صورة ذهنية موازية للكائن الحسى الموجود خارج الذهن، ولكن الإنسان بعد أن تحضر وتقدم لم يقف عند ادراك المحسوسات بل ارتفع إلى المعانى الكلية التى يصف بعضها الأنواع والأجناس للموجودات الطبيعية مثل الإنسان والفرس والطائر وغير ذلك، ويصف بعضها الآخر معانى مجردة، وبخاصة المعانى الخلقية، كالعفة والشجاعة والصداقة وغير ذلك. ولكن تحديد الكائنات الطبيعية أو الرياضية، أمر سهل، لأن الصفات المحددة للنوع واضحة المعالم. خذ مثالا لذلك لفظ «المثلث» فهو «معنى كلى» ينطبق على آلاف بل ملايين المثلثات. وبحكم تعريف المثلث من أنه سطح مستوى محوط بثلاثة أضلاع لا نجد عسرا فى تطبيق هذا التعريف على الأشكال الهندسية ومعرفة ما ينطبق عليها. ولوضوح الأمور الرياضية ضرب بها المثل دائما. وبخاصة فى الزمن القديم عند اليونانيين، وبوجه خاص عند سقراط وأفلاطون. وهل يغيب عن بالنا أن أفلاطون كتب على باب مدرسته: من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا؟!.

الجمال والحق

تبحث محاورة هبياس الكبرى فى الجمال ما هو، على حين تبحث هبياس الصغرى فى الحق والباطل وقد اختلف النقاد فى صحتها والأرجح أن الكبرى صحيحة النسبة لسقراط، ويعد هبياس مثالا للسفسطائى، فهو غريب عن أثينا من مدينة «اليس» حسن المظهر، يجيد صناعة البيان كما يجيد كثيراً من الصناعات الأخرى. أنه ماهر بكل شئ. يسأله سقراط عن الجميل ما هو، وهذه اللفظة فى اللغة اليونانية تصف الشئ المادى والمعنوى معاً فنحن نسمى فعلاً ما من أفعال الشجاعة انه فعل «جميل» وكذلك الفعل العادل نسميه جميلاً، ففى الحالتين توجد «صورة» واحدة تنطبق عليهما معاً اذا ما هى هذه الصورة الجميلة التى تعد الماهية الحقيقية لما نسميه الجمال؟، يجيب هبياس الفتاة الجميلة،

والفرس الجميلة، والآلة الموسيقية والآنية وغير ذلك. ولكن الفتاة الجميلة، فإن جمالها نسبى وليس مطلقا وذلك بالإضافة إلى جمال الآلهة. يقول هبياس أن كل شئ «ذهبى» جميل، ولكن سقراط يعترض بأن الملعقة الذهبية لا تناسب شرب الحساء الساخن، بل الملعقة الخشبية، وكذلك فأن فيدياس لم يصنع تماثيله من الذهب، وهو الفنان الأصيل.

فالجميل اذا هو المناسب أو الملائم. وينتقل البحث بعد ذلك إلى المجال الأخلاقى، فمن الجميل أن يعيش المرء فى صحة، وثروة، وشرف، وأن يدفن أبويه بما يليق بهما. غير أن هذه الأمثلة كلها لا تحدد التعريف الصحيح الجامع المانع. والواقع أن الدرس الذى نستخلصه من هذه المحاورة وغيرها من المحاورات السقراطية. هو كيفية امتحان التعريف ومحاولة الوصول إليه. وليس الأمر كذلك فى التعاريف الرياضية. فالمساواة مثلاً كما تعرض فى محاورة فيدون لا خلاف عليها، بل هى فى الواقع بديهية موجودة فى النفس بالفطرة بحيث يستطيع المرء أن يحكم على الأشياء لأنها متساوية فيما بينها بمقتضى «مثال» المساواة فإذا كانت الرياضيات قائمة على البديهيات والمسلمات والتعريفات، فإن المعانى الإنسانية ليست كذلك، ويصعب جداً الوصول إلى تعريف متفق عليه بشأنها، بحيث ينطبق على جميع الأحوال، وهذا الطريق هو الذى سار فيه سقراط، محاولاً أن ينتهى فيه إلى غاية الشوط.

وقد جرت عادة بعض المؤرخين أن يقسموا المحاورات السقراطية قسمين، الصغيرة من مثل هبياس الكبرى والصغرى وايون ومنكسنيوس وخرميدس وليسيس، ثم المحاورات السقراطية الكبيرة، يقصدون بها المعبرة عن مذهبه، وهى جورجياس ومينوس وأوطيفرون والدفاع وأقريطون، ويضيف بعض المؤرخين الكتب الثلاثة الأولى من الجمهورية وهى الباحثة فى معنى العدالة. مهما يكن من شئ فالخلاف حول تحديد المحاورات السقراطية والأفلاطونية شديد.

الفضيلة علم .. والرزيلة جهل!!

ومحاورة جورجياس من أطول المحاورات وأهمها. وجورجياس سفسطائى مشهور، وخطيب ذائع الصيت، أصلة من ليونتينى وذهب إلى أثينا واكتسب ثروة كبيرة من صناعة الخطابة. وحيث أن سقراط كان يعارض السفسطائيين، فلا جرم تعد هذه المحاورة من أهم المحاورات لأنها توضح بين فلسفتين احداهما تقوم على العدل والحق والحكمة، والأخرى تستند إلى القوة، وهذان المبدأن موجودان منذ أن وجد الإنسان، بل أن الإنسانية الحقة هى السمو على شريعة الغاب وعلى سلاح القوة كما يسود الجماعات الحيوانية فلما سما الحيوان الناطق على حيوانيته، ابتكر صفات انسانية جديدة كالعدل والحكمة والحق وهى معان تحقق للإنسان انسانيته بمعنى الكلمة وهذا ما فعله سقراط ودافع عنه..جاء جورجياس إلى أثينا يحمل معه أسلوبا جديداً فى الحياة هو فرض القوة، وفى المدينة تتجلى هذه القوة فى الخطابة، الخطابة هى فى الاقناع. ونهض سقراط يدافع عن أسلوب آخر هو طلب الخير لذاته، الذى يخضع للعدل والاعتدال، لا للقوة وشريعة الغاب، فالقوة هى الخير الأسمى. ومن هنا كان السلاح الذى ينبغى أن يتسلح به حاكم المدينة ليسيطر على أتباعه ويخضع خصومة هو القوة، وقوة الاقناع بوجه خاص. وليس من المهم الوصول إلى الحق فى ذاته بمقدار ما يصل الخطيب إلى أقناع الجمهور بأن ما يقوله هو الحق. ينبغى اذا أن يحسن الخطيب استخدام الأسلحة التى تفيده فى تحقيق أغراضه والرجل القوى هو الذى يعرف كيف يسوس المدينة. ولكن لكى يبلغ الحاكم السلطان على الجماهير، ينبغى أن يكون صاحب سلطان على نفسه أولاً، فالقوة الحقيقية هى كبح جماح النفس وأن يسيطر عليها ويحسن توجيهها.

لم يكن جورجياس مموها يبغى التزييف والمغالطة، كما انتهت اليه السفسطة فيما بعد، وانما كان مؤمنا بمذهب معين،وأسلوب فى الحياة يؤمن به، هو ان حياة الإنسان تتوقف على ارادته وكفاحه، والقوى هو الأصلح للحياة، وهذا

المذهب كان موجوداً من قديم وتجدد على أيدى فلاسفة القرن التاسع عشر مثل نيتشه وشوبنهور. وفى مقابل حياة الكفاح والعمل والارادة، يقف سقراط فى الجانب الآخر وهو الحياة الفلسفية التى تعتمد على العقل والحكمة والاعتدال، على حين تستند الحياة التى ينادى بها جورجياس إلى السعى وطلب اللذة.

وقد كانت نظرية جورجياس سائدة فى أثينا يأخذ بها كثير من الناس، حتى انه فى أول الجمهورية عند تعريف العدالة نجد من جملةالتعريفات أن العدالة هى مصلحة الأقوى. ولكن سقراط يرفض هذا التعريف، كما يرفض تعريفات أخرى، ثم يمضى أفلاطون بعد ذلك فيحل مشكلة العدل فى نظرية شاملة للمجتمع بأسره. وذلك فى باقى أجزاء محاورة الجمهورية، ويعدل أفلاطون أيضا عن نظريته التى بسطها فى الجمهورية والتى كانت توفر العدل بوحى من الضمير الحى والتربية والتعليم ووضع كل امرئ فى مكانه الصحيح من المجتمع، إلى المناداة بنظرية جديدة فى محاورة القوانين، تستند إلى وجوب احترام القانون.

وفى القدر الذى ذكرناه عن محاولة سقراط بلوغ الحد الكلى ومناقشة التعريفات للمعانى الأخلاقية والسياسية والاجتماعية ما يكفى.

وننتقل إلى الموضوع الثانى الذى وصف به أرسطو فلسفة سقراط وهو نظريته الأخلاقية.

الفضيلة علم، والرزيلة جهل، هذه هى نظرية سقراط.

لو علم الإنسان ماهية الفضيلة، فلا شك سيعمل بها، ولو علم ماهية الرزيلة فلا جرم يتجنبها. وانما سادت الرزائل لجهل الناس بها وحقيقتها. ويكفى أن يكون المرء عالما بالفضائل والرذائل العلم الصحيح حتى يقبل على الفضائل ويتجنب الرذائل.

ويترتب على ذلك عدة أمور، على رأسها وجوب البحث عن الفضائل ومعرفتها، وهذا ما فعله سقراط، وتجلى فى المحاورات. وكذلك النظر فى الفضائل هل اذا كانت علما يمكن تعليمها كما تعلم الحرف والصناعات. ثم بعد ذلك هل الفضيلة جنس واحد له وجوه مختلفة، أم هناك فضائل مختلفة كل منها يباين الفضيلة الأخرى.

المأساة السقراطية

بقى ان نبحث المحاورات الثلاث التى تعد ذروة المأساة السقراطية، اتهامه ودفاعه عن نفسه وامتناعه عن الهرب من السجن، وهى المعروفة باسم أوطيفرون والدفاع وأقريطون. وقد جرت العادة ان يضاف اليها محاورة رابعة هى فيدون تبحث عن خلود النفس، ولكن كثيراً من النقاد يعدها محاورة أفلاطونية لا سقراطية، ولو انه من العسير فصلها عن الثلاث الأولى، من وجهة انها تكملة طبيعية لهذه المأساة.

يلتقى سقراط بأوطيفرون فى دهليز المحكمة، حيث جاء أوطيفرون يتهم أباه بالقتل، وجاء سقراط ليدفع عن نفسه تهمة الالحاد وافساد الشباب ويدور البحث فى هذه المحاورة حول الدين ما هو، وما طبيعته، وما الالحاد، وما التقوى، وما الفجور. وللمحاورة صلة قوية بالأخلاق لأن الرجل الصالح هو الذى يفعل ما يرضى الآلهة. وهنا تدخل المحاورة فى بحث الدين والآلهة اليونانية، وهل ينبغى أن نصدق ما يروى عنهم من أساطير. وتدور مناقشه حول التقوى، فيسأل سقراط على طريقته التهكمية ويجيب أوطيفرون، وتتغدد الاجابات. الجواب الأول أن التقوى ان يصنع المرء كما فعل أوطيفرون بأن يتهم أباه بالقتل، وكما نجد فى أساطير الآلهة أنفسهم .. والجواب الثانى ان التقوى. هى فعل ما يحبه الآلهة، والفجور فعل ما يبغضونه ولا يرضون عنه، غير انه لما كان الالهه مختلفين فيما بينهم، فقد يسخط بعضهم عن أمر، ويرضى بعضهم الآخر عنه، وبذلك لا يكون التعريف صحيحاً. وعندئذ يجرى تعديل للتعريف بحيث ينص على اجماع الالهة على حب الشئ، وهذه هى التقوى. ويتضح تناقض هذا العريف على أساس وجود مرحلتين للتقوى، الأولى محبة الآلهة للشئ، والثانية ان يكون مقدسا لديهم. فهل يحب الآلهة الشئ لأنه مقدس، أم يقدسونه ومن أجل ذلك يحبونه بعبارة أخرى هل التقوى فعل ما يحبه الآلهة أم يقدسونه؟

تنتقل المحاورة بعد ذلك إلى شئ من السخرية والفكاهة، حين يسلم

أوطيفرون ان كل تقى عادل، وينكر أن كل عادل تقى، ثم يسأل عن أى أجزاء العدل، فيجيب بأنها خدمة الآلهة، وذلك بقديم القرابين واقامة الصلوات، بعبارة أخرى، التقوى علم الأخذ والعطاء، انها لون من «التجارة» بين الناس والآلهة، فالناس يقدمون الصلوات والقرابين للآلهة، ويأخذون فى مقابل ذلك رضاهم. ولا شك ان مناقشة سقراط تنتهى إلى زعزعة الثقة بالأفكار السائدة عن الدين وعن الآلهة ومن هنا جزع أصحاب السلطان والدولة على انهيار الأسس التى يقوم عليها المجتمع، والدين أساس مهم جداً أو دعامة قوية لاستمرار الجماعة.

اتهم سقراط بتهم ثلاث، انكار آلهة اليونان، والمناداة بآلهة جديدة، وافساد الشباب. وليس دفاع سقراط أمام القضاة من اختراع أفلاطون فأن زينوفون يتحدث فى مذكراته عن هذا الدفاع، ولكن المحاورة الأفلاطونية فيها صبغة فن أفلاطون، وتعد من أقدم ما كتبه. وقد صور فيها سقراط، فيلسوفا متهكما، ساخرا، حتى فى هذا الموقف الذى يوشك فيه أن يحكم عليه بالأعدام. وكان القضاة على استعداد ان يصدروا حكمهم بالعفو، لو ان سقراط تذلل لهم، وأظهر الندم، ولكنه لم يبال وهو فى سن الشيخوخة أن يخون عهد الفلسفة، وهى طلب الحقيقة واعلان الحق والجرأة فى اعلان الرأى، والصراحة فى ابداء ما يؤمن به المرء ويعتقده، لأن المداهنة والرياء مدعاة إلى افساد الدولة، والتعامى عن الحقيقة يبعد عن رقى الانسانية. وكان سقراط يعتقد فى نفسه انه مكلف برسالة إلهية عليه أن يبلغها للناس، مثله فى ذلك مثل الأنبياء والرسل. وبالفعل صور سقراط فى محاورات أخرى انه يستمع إلى هاتف باطنى يتلقى منه ما يشبه الوحى السماوى. ولذلك انبرى يكذب فى دفاعه ما شاع عنه من تهمة هو منها براء، ذلك ان شريفون أحد تلاميذه المخلصين ذهب إلى كاهنة معبد دلفى وسألها من أحكم رجل فى أثينا، فأجابته انه سقراط. ولكن سقراط بأسلوبه الساخر نفى عن نفسه أن يكون حكيماً لأن الحكمة صفة من صفات الآلهة، أما هو فإنه مؤثر للحكمة وصديق لها، وهذا هو معنى الفيلسوف فى اللغة اليونانية، فإن «سوفوس» تدل على الحكيم، على حين أن «فيلوسوفوس» تعنى محب الحكمة، فالآلهة حكماء، أما البشر فإنهم مهما تبلغ معرفتهم فلن يبلغوا مرتبة الآلهة.

ولقد قيل فى معرض الاتهام ان سقراط يعلم شباب أثينا أن الشمس والقمر قطعتان من حجر، وليسا إلهين كما يعتقد الأثينيون. ويجيب سقراط أن هذه المقالة تنسب إلى انكساجوراس، دونها فى كتابه، وكان انكساجوراس يعيش فى بلاط بركليس، وكان بركليس يحميه بنفوذه وسلطانه، ومع ذلك هرب انكساجوراس من أثينا، ويقال ان بركليس سهل له سبيل الهرب حتى لا يحاكم وينفذ فيه حكم الاعدام.

رفض سقراط استرحام القضاة، ورفض أن يتقدم بعض تلاميذه بدفع غرامة عنه بدلا من الحكم بالاعدام، وأقبل على الموت راضيا، لأن الفيلسوف هو الذى يطلب الموت ليخلد فى الآخرة، ولكى تتخلص النفس من سجن البدن، وتنعم بالمعرفة فى عالم المثل.

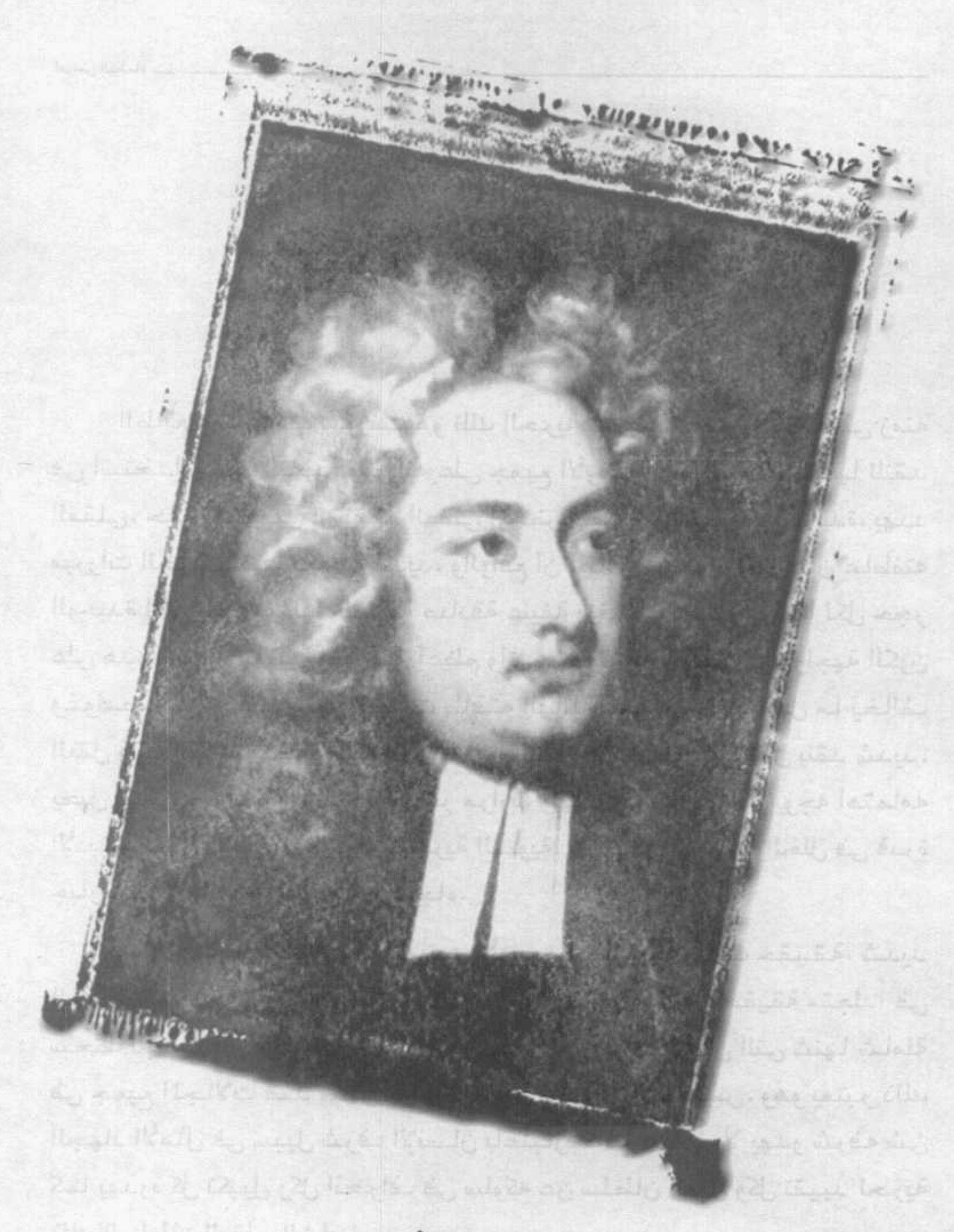
والفصل الثالث فى مأساة المحاكمة، هو وضع سقراط فى السجن حتى تحين ساعة تنفيذ الحكم، حيث بقى حوالى شهر حتى تعود السفينة المقدسة من رحلتها إلى معبد ديلوس، وهو شهر حرام لا يعدم فيه مجرم. وجاء أقريطون قبل الفجر يغرى سقراط بالهرب من السجن. غير أنه رفض الهرب، اذ فى نظره أن الخضوع لقوانين الدولة حتى لو كانت ظالمة أفضل من الهرب منها انقاذ لمصلحة الفرد. لقد عاش سقراط طيلة حياته ينادى باصلاح الدولة، وايثار مصلحتها على مصالح الفرد، وتمجيد القوانين التى بها تستقر الأمور فى المجتمع، والدعوة إلى احترام القانون واتباع النظام، وبهما يتوفر العدل. ذلك ان الخير والشر هما فى الواقع أمران نسبيان بالاضافة للمجتمع، فالخير خير اذا عادت فائدته على المجتمع، وتعود فائدته فترجع على الفرد، والشر شر إذا أساء إلى المجتمع وعندئذ يصاب الفرد بالضرر. وهذه هى النظرية التى نماها أفلاطون فى الجمهورية، حين أجاب على السؤال الذى بدأه فى تلك المحاورة عن العدالة ما هى، فجاء الجواب بأن الدولة كلها ينبغى اصلاحها بجميع اجزائها، وان يوضع كل فرد الموضع اللائق به. فالعدالة لا تتحقق فرديا بل اجتماعيا، ولذلك سميت جمهورية أفلاطون بأنها شيوعية، أو اشتراكية والحقيقة أن أفلاطون يعد هو المبشر الأول

بالاشتراكية من قديم، بتقديم مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد.

ولو أن سقراط قبل الهرب لكان موقفه متعارضا تماماً مع فلسفته التى استمر على التبشير بها واذاعتها فى تلاميذه. وكيف يهرب وقد رفض فى المحكمة أن يخضع لشتى الاغراءات التى قدمت له لتفادى الحكم المحتوم. ومن هذا يتضح أن فلسفته تتلخص فى انقاذ المدينة من الفساد، والابقاء عليها خشية الانهيار. وقد ارتفع شأن أثينا فى زمانها، وبقيت خالدة على مر العصور، بتمسكها بهذه التعاليم التى نادى بها سقراط، من حرية ابداء الرأى، والدعوة إلى الديمقراطية فى مقابل حكومة الطغيان والاستبداد، والدعوة إلى الفضيلة والخير، لأن الأخلاق الفاضلة هى الأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه الدولة.

وقد كانت محاكمة سقراط، ودفاعه عن نفسه، وامتناعه عن الهرب، وموته، كل ذلك مثالا حيا على التفانى فى سبيل العقيدة الفلسفية الصحيحة.

***



سـويفت

صاحب الرحلات الخيالية.. واهن الجسم!!

سويفت

الطابع العام لأدب سويفت هو تلك الحرية الشديدة غير المألوفة فى زمنه فى استخدام فكره النافذ، وجرأته على جميع الأوضاع والقيم واخضاعها للنقد العقلى. حتى لقد قيل ان نقده العقلى المحض للقيم الراسخة والسائدة، يهدد مبررات الحياة نفسها بعطب شديد، والواقع أن اطلاق سلطان العقل كان عاطفته الوحيدة التى يتحمس لها حماسة صادقة عنيفة ويغضب غضباً جائحا لكل حجر على هذه الحرية العقلية التى هى أعظم وأثمن ما يمتلكه البشر فى مواجهة الكون وغوامضه. ومن هذا المنبع تفجرت طاقته الهائلة على السخرية بكل ما يخالف العقل والبداهة السديدة ويحارب هذه الرواسب والقيم المنافية للعقل بنقد شديد، يخيل للناس فى أحيان كثيرة أنه يقتر مرارة. ولهذا السبب أيضا لا يوجه أهتمامه الأدبى والفكرى لمظاهر الحياة البشرية السوية، بل لموطن التعفن والخلل فى قدرة جبارة على التشريح والتجريح والهجاء.

وخلاصة جهاد يوناثان سويفت الأدبى والفكرى أنه طالب حقيقة، شديد الحماسة مصر على تدمير سائر التمويهات الزائفة المضللة للحقيقة متجلداً فى سخط لجميع الويلات التى تصيبة فى هذه الحرب الضروس التى شنها شاملة فى جميع المجالات ضد سائر أنواع التضليل والتحيز والتدليس. وهو يعتبر ذلك الجهاد الأمثل فى سبيل شرف الإنسان باعتباره كائنا عاقلاً، لا يهدر شرفه شئ كما يهدره كل تكبيل وكل انحراف فى سلوكه عن سلطان العقل وكل تقييد لحرية ذلك السلطان العقلى الشامخ.

وفى كل مجال من المجالات يتخذ الكتاب الواحد من كتب يوناثان سويفت هدفا معينا وموضوعا محدداً ولا يخرج على هذه القاعدة إلا فى كتاب واحد هو

«رحلات جليفر» ففيه يتسع هدف سويفت أتساعا غير مألوف لديه فهو دراسة السلوك البشرى من طرفية المتناقضين ضالة وضخامة. وتبدو فيه فلسفة سويفت متداخلة فى نسيج العمل الأدبى مع شئ كثير من السخرية التى لا تبتعد عن صميم الواقع وهى تحلق فى عالم الأسطورة والخرافة متناولا بالنقد والهجاء السلوك الاقتصادى والتفكير العلمى ومناهج البحث عن الحقيقة والتقدم الآلى وطموح البشر بجميع أنواعة.

ومن أطراف عناصر رحلات جليفر بلا شك تصويره الساخر لعالم السياسة والملأ الأعلى من رجال السلطة والحكم وسيداته، واللوالب الخفية الحقيرة غالبا التى تختفى وراء مظاهر الأبهة والشعارات الطنانة والمعارك السياسية الجادة. فإذا به يعرى أمجاد ذوى البأس والسلطان من طيالسها الخادعة؛ ليعرضها لأنظار الناس هزيلة غير جديرة إلا بالرثاء والازدراء.

ولا يعفى من مبضعه الحاد وانواره الكاشفة الفضاحة النظام الملكى عموما فى كل زمان ومكان، وما يكتنفه من حياة الفساد والنفاق والدسائس فى البلاط وخيوط خفية تتصل فى نهايتها بأحط الشهوات وأرخصها متمثلة فى المحظيات والعشيقات. والى وسائل الرشوة والتحاسد والصغار فى الخصومة. وكيف يكتسى كل هذا الفساد الوبيل أمام الشعب المخدوع ببهارج براقة من المبادىء والخطب الرنانة فى المحافل ومنتديات الأحزاب ومجالس النواب.

وكى يصل يوناثان سويفت الى هدفه العريض هذا، ينقلنا بين عالمين متناقضين: عالم الأقزام وعالم العمالقة، وبهذا التغيير الهائل في «مستوى النظر» يتغير «المنظور» تغيرا شاملا، وهو أذ يبدأ بعالم الأقزام، يمكننا من أن نرى أنفسنا فرادى وجماعات وقد تجردت التقاليد المرعية من قداستها المكتسبة فاذا هى على حقيقتها وهؤلاء الأقزام يمارسونها، شىء سخيف مفرط فى السخف نستغرق منه الضحك وهو بعينه ما درجنا عليه فى حياتنا العادية ناظرين اليه بما يناقض الاستنكار والاستهجان .

وحين ينتقل بنا الى دنيا العمالقة يكشف لنا عن همجيتنا ووحشيتنا، كما

يكشف لنا أيضا عن ضآلتنا وغرورنا فيخرج المرء من الرحلتين وقد امتلأت نفسه بتفاهة شأن الانسان وتفاهة كل تلك النظم التي يستهول أمرها ويتناحر حولها .وهوشعور يملأ الجوانح أسى اشفاقا وأسفا.

ويضع جليفرأمام أنظار الإنسان القدوة الجديرة به لا فى عالم من أقزام البشر ولا في عالم من عمالقتهم بل فى أرض «الخيول الفيلسوفة»، حيث نرى حياة الحيوان مثلا يحتذى للكائنات العاقلة المعقولة فهناك نجد السلوك السوى الذى نشدناه عبثا فى ممالك البشر على اختلاف أنواعها .

فهذه الدواب ذوات الأربع تنظر الى جنسنا البشرى باحتقار وترى تصرفاته غير مفهومة ولامعقولة: لأنها تصرفات خالية من الحكمة وليست لها غايات سديدة من مطالب الحياة الطبيعية. فحضارتنا البراقة بكل ما فيها من تقدم شيء جنونى لا تفقهه هذه الكائنات الحكيمة.

حياة سويفت

تجلى تفوق عقله حين بلغ الثالثة من العمر. وتجلى وهن جسمه فى نفس السن تقريبا فهو من بداية طفولته مصاب بدوار مسئم يعاوده.

كانت حياته كلها فى الواقع خليطا من المتناقضات وبدأت هذه المتناقضات مع ميلاده - فمع أنه ولد لأبوين انجليزيين، فقد ولد فى أيرلندا وقضي هناك معظم حياته. وبدا فى أخلاقه ذلك الأثر المزدوج: أثر اسلافه وأثر بيئته. فقد شب انجليزى العقل أيرلندى القلب. فقد أباه وسنه ستة شهور فاذا كان شهره الثانى عشر اختطفته حاضنته. فهى لا تكاد تسمع بموت عم لهما أخلفهما تراثا فى انجلترا حتى تبحر فى سفينة دون أن تخطر سيدتها وأخذت معها على ظهر السفينة طفل سيدتها. ولم يعد جوناثان الى أمه الابعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث، وكان الطفل قد قوى فيه حب كبير للانجيل وكلف شيطانى باللهووالمزاح. و فى السادسة التحق بمدرسة كلنكى والتحق فى الرابعة عشرة بكلية ترنيتى

بدبلن وهنا أظهر شغفا بالمطالعة وانتقاضا على النظام. ولم ينل البكالوريس الا بشق الأنفس ولكن حيل بينه وبين درجة الأستاذية لخلافه مع مساعد العميد فعاد الى بلدته يجلله العار.

ولكنه وفق رغم ذلك فى الحصول على منصب سكرتير لسير وليم تمبل. وهو من أوساط الأدباء. وكان مستشارا مقربا الى ملك انجلترا وكان فيما يتناقل من لغط حاقد مريب الأب الطبيعى لجوناثان نفسه. واتاح له المنصب عشرين جنيها فى السنة ومكانا على المائدة الثانية مع الخدم. ففنى السكرتير الألمعى جيبا واضمحل شأنا. فأقام ينسخ أفكار سيده الشيخ غير الألمعى. فاذا فرغ لنفسه- وقليلا ما كان يحدث ذلك- نسخ خواطره بالشعر غالبا.

سويفت أشهر نكرة فى عصره !!

ثم تغير عمل جوناثان سويفت. فقد رسم قسيسا فى قلعة دبلن. وسر القسيس الشاب بهذا الشرف الروحى. ولكنه ضاق بالمركز المادى فهو حين قرر العمل فى الكنيسة كان يتوق الى بلوغ قمة الكنيسة الأنجليزية لا أن يكون فننا على فرعها الأيرلندى. ولكن أمنيته هذه العزيزة الوحيدة وهى بلوغ منصب مهم فى كنيسة انجلترا. كانت الشىء الوحيد الذى ينكره عليه رؤساءه أشد الانكار. فذلك القسيس المجنون كما كانوا يدعونه له عقل زاخر بالمفاجآت وقلم ينبو عن التقاليد المرعبة، فهو لا يصلح زعيما من زعماء العقيدة المتعارف عليها فقد يلقى بأية قنبلة فى أية لحظة على عقيدة اخوانه فى الكنيسة. وكان الجميع وقتئذ يعرفون أنه قد كتب سخرية ببعض الطقوس الدينية فى أوربا، وان لم يجرؤ على نشر ما كتب وقد أطلق على هذه السخرية «قصة البرميل».

وهذا العنوان كما ذكر فى المقدمة مأخوذ من بعض تقاليد البحارة فهم اذا قابلوا حوتا، ألقوا بقارب خاو ليصرفوا الحوت عن مهاجمة السفينة وانه ليتبع نفس التقاليد فيلقى بهذه القصة ليصرف الكفار عن مهاجمةالكنيسة. ثم يمضى فى الكتاب فيبين كيف انحرفت المسيحية عن دين المسيح ويوضح رأيه بصورة

رمزية لأب خلف ثلاثة معاطف متساوية القيمة لأبنائه الثلاثة بطرس «الكنيسة الكاثوليكية» ومارتن «كنيسة انجلترا» وجاك«الكنيسة الكلوينية» وقال لهم الأب: هذه المعاطف ستحفظ عليكم جدتكم وصحتكم ما حييتم فارتدوها الآن وأكثروا من العناية بها. كذلك إوصى بأن تعيشوا جميعا فى منزل واحد كما يعيش الأخوة. فانكم بذلك تستيقنون النجاح وتتقون الفشل.

وأخذ الاخوة الثلاثة معاطفهم- كما يقول سويفت- وسرعان ما نسوا وصية أبيهم وأخذ كل منهم يعدل فى شكل معطفه مرات حسب تغير النظر الى شكل الأزياء.

وأخيرا نرى بطرس وقد زَين معطفه بحشايا للكتفين وأشرطة ذهبية ورفوف مزركشة حتى اختفت معالم المعطف وصار الناظر اليه لايتبين فيه المعطف الذى أعطاه اياه أبوه، ثم يفترض بطرس بعد ذلك أنه - دون شريك- صاحب المعطف الحقيقى الوحيد، ويعلن فوق ذلك أنه وحده يملك بيت أبيه. وسرعان ما يقذف بأخويه الى العراء.

يقول سويفت: وعندئذ أعاد الأخوان الطريدان فحص وصية أبيهما «الانجيل» وحاولا أن يردا معطفيهما الى بساطتهما الأصلية المعقولة.

ثم يختتم سويفت قوله بأن مارتن قد نجح فى المحاولة نجاحا لا بأس به: فقد انتزع من المعطف كل شىء لا ضرورة له، ولم يحرص الا على استيفاء تلك الحلى التى تغنى فى تقوية الثوب أوأخفاء عيبه. وأما جاك فاندفع متحمسا فى تبسيط المعطف بحيث مزقه وأحاله خرقة. فاذا أتى الناس ينظرون اليها ويضحكون منها.. كفى فان البقية لأغلظ من أن يسيغها الذوق الحديث.

ولم تنشر قصة البرميل الا بعد ان مضت على كتابتها عدة سنوات ونشرت بغير اسم المؤلف. وهذه القصة وان يكن المقصود بها أن تقدم تشبيها يظهر منه المؤلف فضل كنيسة انجلترا على غيرها، فانها قد فشلت مع ذلك فى ارضاء مطارنة كنيسة انجلترا وكبار أساقفتها، لقد ضحكوا من سخر سويفت بعيوب الكنائس الأخرى. لكنهم استشاطوا غضبا من اشاراته الى عيوب كنيسته. وقرروا أن هذا القسيس الشاب ستجنى عليه مهارته وأنه بحاجة الى أن يدارى والى أن يراقب.

و يلقى سويفت فى شيخوخته نظرة ذات يوم على بضع صفحات من قصة البرميل ثم يهمهم قائلا «يا الهى يا لها من عبقرية تطامنت لى حين ألفت ذلك الكتاب !». فهذه هى مأساتهالتى جلبت عليه النحس. ان عبقريته أجل من أن يفهمها معاصروه فأوجست العقول الصغيرة خيفة من العقل الكبير وعمدت الى ابقائه أسيرا فى منصب مغمور بعد منصب مغمور: من كنيسة دبلن الى ابرشية ريفية فى لاراكور ومن كنيسة لاراكور يعاد الى كاتدرائية سانت باتريك بدبلن. ولكنه لا يمنح وظيفة مطران فى انجلترا أو حتى ايرلندا ولم يجرؤوا على أن يجاوزوا به وظيفة أسقف. لقد نال الدكتوراه فى اللاهوت وكسب صداقة أعظم الانجليز نفوذا .وتعشى مع رئيس الوزراء ولعب الورق مع وزير المالية. كل هذا ولا جدوى. وكلما طلب أن يعين فى أحد المراكز الهامة بالكنيسة قوبل طلبه برفض مهذب. لقد أوغل قلبه فى الضنى والضرم. وأرسل ملتمسه ذات مرة الى الملكة مباشرة.. وكانت نفس النتيجة السلبية. وظل سويفت أشهر نكرة فى عصره.

ولكنه يحتفظ فى ذلك كله بمظهر البشر وتمتلىء أيامه بالنكات والضحك فيما خلا الدوار الذى كان يختلف اليه دائما. وكان يحب الناس فرادى وان أبغضهم جماعات.

رجل يعلو محياه البشر، ويضطرب صدره غضبا كأنه الأتون. فهو يدرك تفوقه على زعماء زمانه. لكن كتب أن يمثل فى حضرتهم دور التابع. لقد قدم الى لندن فى وفد جاء يدافع عن شعب أيرلندا «ويدافع هو عن ترقيته» فقابل أكبر رجلين من ساسة انجلترا هما بولنجروك وهارلى. حاول جهده أن ينال لديهما مكانه فالمرء فى لندن يجب أن يتسلق بأطرافه الأربعة ؛ ولكنه ظل نديمهما الأثير وأن كان يهرج بلا مقابل ويكتب لهارلى نشرات سياسية كما قد فعل ديفو من قبل، ولكنه يفترق فى أنه يرفض أن ينال جزاء مما كتب .. وصافحه هارلى ذات مرة فتمكن من أن يدس فى يده خمسين جنيها. فألقى الكاتب الثائر بالورقة فى وجه هارلى وغادر الحجرة مغضبا ورفض أن يرى هارلى مرة أخرى حتى زاره هارلى فى منزله ليعتذر له بنفسه.

أن سويفت لا يبغى بعمله مالا. بل يبغى وظيفة كبيرة. وهذا ما عجز دائما عن بلوغه سواء من هارلى أومن سواه، غير أن اقامته بلندن وان فشلت سياسيا فقد كانت نصرا فكريا، فغدا سويفت الفارس المعلم فى مشارب لندن التى تجتمع فيها ألمع عقول لندن يوميا للتبارز باللسان وكان «الأسقف العجوز» أمهر المتبارزين جميعا. وان لم يكن أكيسهم دائما. كان يضرب ضربات عميقة حادة فاصلة، وكان حديثه يخلومن كل بلسم ملطف حين يقصد الى الايلام حقا. قال أحد كتاب سيرته: لم يتطامن لأحد ما تهيأ لسويفت من عظم حظه من العقل. وقلة حظه من المرونة والكياسة.

كان ذهنه فذا فى الأذهان ولا يتلطف فى تمزيقه ذلك الطلاء الزائف الذى يخفى قبح الحياة.. وكان ساخرا قاسيا ينزل برواء الخيال الى سخف الواقع.

كذلك كان العميد سويفت ذلك المتهكم الوديع الرشيق العابس ذلك الأديب الذى يصفق لعبقريته والواعظ الذى يزدرى لصراحته والمعلم الذى يستشهد بأقواله فى كل مكان ولا يفهمه أحد . عاد من انجلترا محملا بالتكريم دون أن يمنح منصبا . انه لجبار عملاق مقيد بالأغلال فى أرض الأقزام.

أصبح العميد سويفت لا يؤدى من الطقوس فى أيام ميلاده غير قراءة ذلك الفصل من الانجيل الذى يلعن فيه أيوب يوم ميلاده . انه ليزيد كل يوم زراية بالأنسان وخدمة لبنى جنسه. فهو يتحمس لتخيف أعباء الأيرلنديين وهو يصلبهم بلسانه حربا ويعانقهم بذراعيه حبا وغدت آلام ايرلندا شغله الشاغل فى شيخوخته وصار مطمحه الذى غلبه على كل مطمح هو أن يخفف هذه الآلام. حدث مرة أن اقترحت الحكومة النجليزية قانونا جائرا بالايرلنديين: فتحدى الظلم بسلسلة من الخطابات الشديدة المفحمة؛ فاضطرت الحكومة الى سحب الاقتراح وهذه هى الخطابات التى أمهرها سويفت بتوقيع م. ب درابير صاحب حانوت لبيع البضائع الايرلندية والتى كسبت لسويفت شكران الايرلنديين وعرفاتهم على مر الزمن.

وأصبح ذلك من مصادر مضايقته دائما فهو لا يحب تملق الجماهير لقد ساعدهم -كما قال -لا حبا لهم بل كراهة منه للعبودية. انه يعرف تلون الدهماء

فهم مستعدون لأن يهللوا لجرأته فى النضال عنهم. لكن أتراهم يحركون اصبعا لانقاذه من مغبة جرأته؟ وهو يروى قصة لتوضيح هذه الفكرة. كان أسبانى يهودى يسير الى الخازوق ومن ورائه جمهور متحمس من الأتباع ويخشى الصبية أن يحرموا المتعة أذا هو أنكر التهمة فهم يربتونه على ظهره صائحين مشجعين:«موسى أقم على ثباتك».

وظل سويفت على ثباته رغم الصبية الطائشين والفضوليين الوحشيين فى العالم، شديد الازدراء لوحشية الجنس البشرى فى حنثه بايمانه وانفعالاته وسخافاته واحتياله وحربه. كان يذهله عدم انسانية الانسان نحوالانسان.

***

بلغ سويفت الآن أعوام الحكمة البصيرة وقرر أن يضمن حكمته تلك الرحلات الخيالية، رحلات جليفر، وبعث بمخطوط القصة فى ٨ أغسطس سنة ١٧٢٦م إلى الناشر «بنيامين موت» وأرسل مع المخطوط خطابا بتوقيع ريتشاد سمبسون، زعم فيه انه ابن خال لمويل جلفر وقال : لقد أئتمننى مستر جلفر منذ بضع سنين على هذا المخطوط فى وصف رحلاته.. وقد تحسب اذا قرأت بعض أجزائها أن هناك شيئا من التهكم فى موضوع أو موضوعين. ولكن الرأى متفق على أنها لا تجرح أحدا. ثم يمضى مستر سيمبسون فى خطابه فيعرض مائتى جنيه ثمنا للمخطوط فاذا لم يف المبيع من الكتاب بهذا المبلغ رد باقى المبلغ الى الناشر.

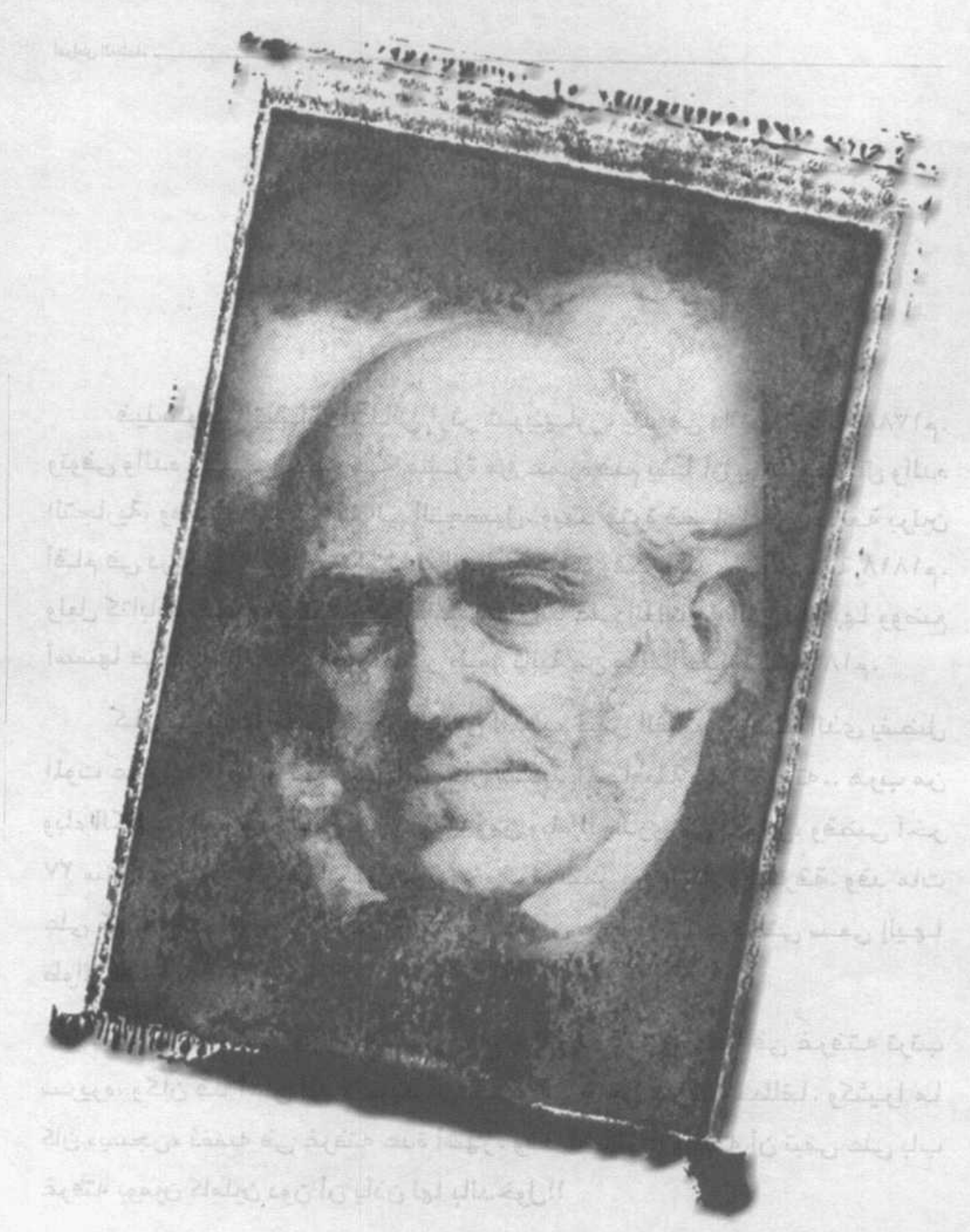
ونشر الكتاب فى خريف عام ١٧٢٦م ونفدت الطبعة الأولى فى أسبوع وضحك الجميع من ذلك الهجوم المرير الذى شنه جلفر على غباء الجنس البشرى الهمجى. فقد حسب كل امرىء أنه ليس المعنى بهجوم الكاتب انما المعنى جاره. فوصل ألم الكاتب ذروة لم يبلغها من قبل. لقد فشل فى تحقيق ما هدف اليه «أردت أن أغيظ الناس واستثيرهم، لا أن أرفه عنهم وأسليهم» وقصة رحلات جلفر هى مغامرات رجل عاقل فى عالم مخبول ملىء بالباطل والزهو. ألا ليت العالم بدل أن يستمتع بعقلائه قد أتاح لهم أن يحكموه. اذن لقل الجشع وزادت

الدماثة. وقلت الثروة الشخصية وزادت الأخوة بين الناس. وقلت القسوة وزادت الرحمة وقل البهرج وزاد المجد. وقلت الوقاحة وزادت الحكمة. كتب سويفت الى اسكندر بوب يقول: حاولت أن أنشىء صداقة بين عقلاء الناس جميعا. وهم قل أن يزيدوا على ثلاثة أو أربعة فى كل جيل ولو أمكن اتحادهم لساقوا العالم أمامهم سوقا.

وقبل وفاته عام ١٧٤٥م كتب دعاء وجد بعد موته فى أوراقه التى لم تنشر «اللهم انك تهب نعمتك وتصب نقمتك كما يشاء عدلك ورحمتك اللذان وسعا كل شىء... فوجه اللهم أفكارنا الى ما نصبوا اليه من نعيم واصرفها عن ذلك البوار الذى يفوق الوصف والذى نوشك أن نمنى به».

كان دائم التفكير فى هناء الانسان .. ذلك الساخر الذى واجه بنى الانسان بالعواء والشحناء.

*****



شوبنهور

فيلسوف التشاؤم!!

شوبنهور

فيلسوف التشائم الألمانى أرثر شوبنهاور. ولد فى دانتزيغ سنة ١٧٨٨م. وتوفى والده وهو فى السادسة عشرة من عمره فلم يشأ أن يتابع أعمال والده التجارية، وفضل الانصراف الى التحصيل. وبعد فترة قضاها فى جامعة برلين أقام فى دريزدن حيث وضع كتابه العالم كأرادة وفكرة الذى ظهر سنة ١٨١٨م. ولعل كتابات شوبنهور فيما بعد كانت تعليقات على الفلسفة التى قال بها ووضع أسسها فى ذلك الوقت . وقد أصدر طبعة ثانية من مؤلفه هذا سنة ١٨٤٤م.

كان شوبنهور يعتقد أن «الرجل العظيم ليس الفاتح بل ذاك الذى يفضل الموت على البقاء.» ولكنه، مع ذلك، كان شديد المحافظة على حياته.. هرب من وباء الكوليرا عندما تفشى فى برلين، ومن وباء الجدرى فى نابولى، وقضى آخر ٢٧ سنة من عمره فى فرانكفورت فى خوف مستمر من القتل والسرقة. وقد مات على مائدة الفطور فى ٢١أيلول ١٨٦٠م بعد أن عرف الشهرة التى سعى إليها طوال حياته.

ويروى عن شوبنهور أنه كسر ذراع خادمته لأنه وجدها فى غرفته ترتب سريره، وكان قد أعلن أنه لا يريد أى إنسان أن يدخل غرفته مطلقا. وكثيرا ما كان «يسجن» نفسه فى غرفته عدة أشهر. وقد اضطرت والدته أن تبقى على باب غرفته يومين كاملين دون أن يأذن لها بالدخول!!

ومما عرف عنه أنه كان يتحدث إلى نفسه بصوت عال أثناء سيره فى الطريق.

ولعل ارثر شوبنهور الفيلسوف الألمانى الكبير لم يكن مسؤولا عن نفسيته الشاذة و تصرفه الجنونى، فقد كان الجنون منتشرا فى أسرته والمقربين اليه فى

عدة أجيال. ومن أعراض جنونه انه كان يقضى عدة أسابيع منعزلا، عاكفا منطويا على نفسه، لا يحادث أحدا، ويشير بأصبعه وذراعيه و كأنه يخاطب صديقا فى موضوع غاية فى الخطورة.

إن السمة التى اتصف بها هذا الفيلسوف هى التشاؤم والمرض السوداوى، فهو قد عاش وحيدا بلا ام ولا زوجة ولا ولد، ولا أسرة ولا وطن ولا صديق. لقد كان ابوه تاجرا امتاز بالمقدرة وحدة الطبع، واستقلال الشخصية وحب الحرية، وقد غادر مدينة دانزغ التى ولد فيها ابنه عام ١٧٨٨م على اثر ضمها الى بولندا عام ١٧٩٣م. وعلى الرغم من انه هجر حياة التجارة التى دفعه والده إليها، فقد تركت اثرها فى نفسه وطبعت نظرته إلى الحياة بطابع الواقعية فى التفكير ومعرفة بطبيعة الناس، ومات والده منتحرا على الأرجح فى عام ١٨٠٥م، وتوفيت جدته وهى مصابة بالجنون.

إذن عائلة شوبنهور لم تكن فى تمام سلامتها العقلية، ولكن لنتابع قصته مع امه حيث هناك جانب آخر لمرضه النفسى ولسوداويته.

وفيما كتبه شوبنهور نلمس مدى التشاؤم واضطرابه السوداوى، وعلى الأخص كتابه العالم كارادة حيث يقول: إن الحياة شر لانه لا يكاد الانسان يشعر براحة من الألم و الحاجة حتى يتملكه شعور بالسآمة والملل مما يدفعه الى البحث عن شىء يعوضه شعوره بالملل والسآمة، ويبدأ فى مواجهة المزيد من الألم،وحتى لو تحققت احلام الاشتراكيين فى اقامة المدينة الفاضلة فسيبقى من الشرورما لا يحصيه العد، لان بعضها كالكفاح مثلا امر ضرورى للحياة. واذا تمكنا من القضاء على كل شر، ووضعنا حدا للكفاح فى هذه الحياة اصبحت السآمة عبثا لا يحتمل كالألم سواء بسواء، وهكذا نجد الحياة تتأرجح الى الأمام والخلف بين الألم والسأم.. وبعد أن قلب الانسان آلامه وعذابه إلى فكرة الجحيم، لم يبق لديه شىء عن الجنة سوى الملل. اننا كلما ازددنا فى الحياة نجاحا ازددنا مللا، وكما ان الحاجة هى السوط الذى يلهب ظهور الناس، فكذلك السآمة هى السوط الذى

يلهب ظهر العالم الحديث. إن صورة الحياة فى مجملها مؤلمة جدا اذا تأملناها، وهى تعتمد على جهلنا بها.

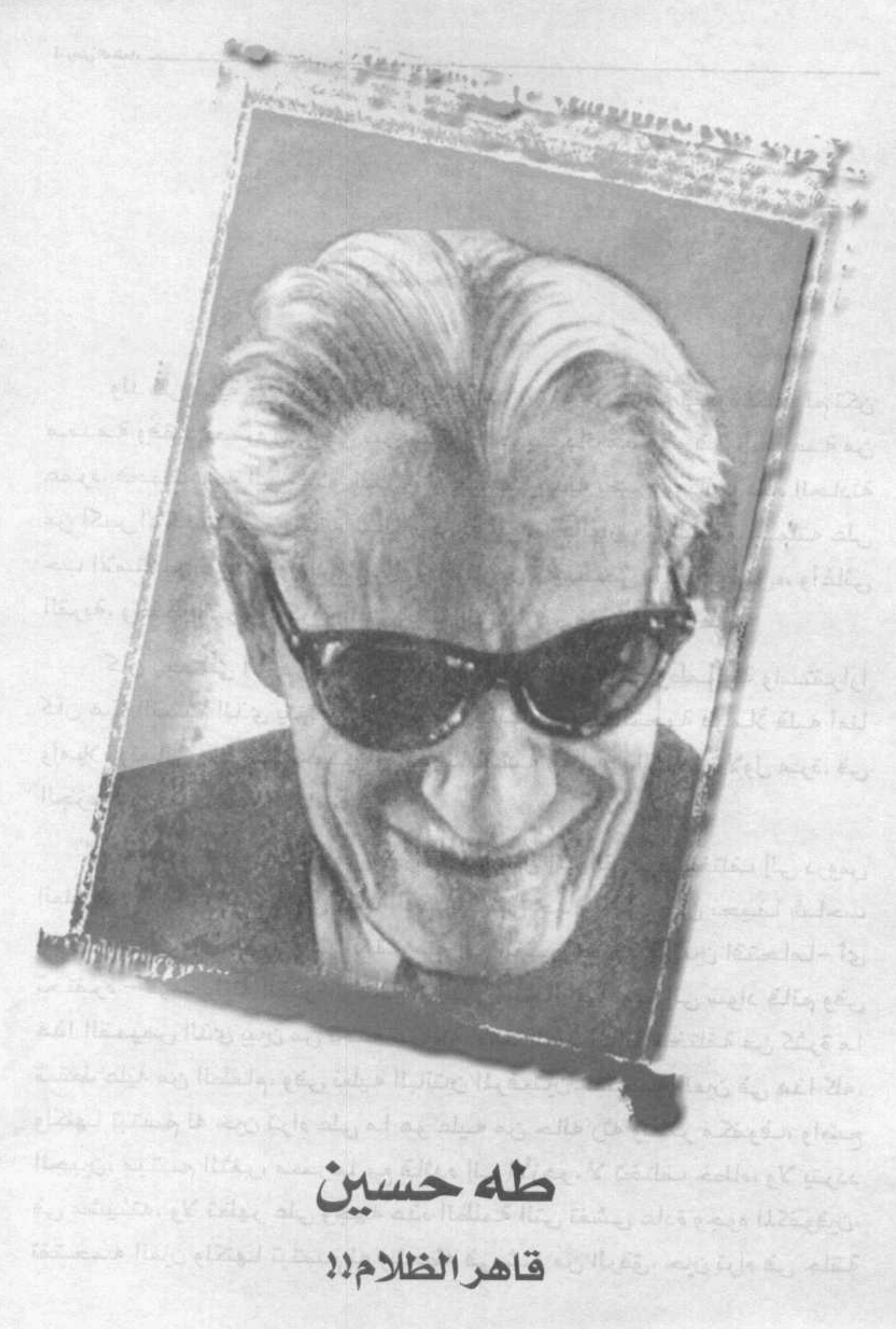
*****

قلنا ان شوبنهور كان مصابا بالمرض السوداوى ومن أعراضه الكآبة العميقة والخوف والقنوط واللوم الذاتى والتشاؤم وطلب الموت بالحاح والشعور الفاسد بأن كل ما يحيط بالشخص وهمى لا حقيقة له. وكثيرا ما يلجأ المريض الى الانتحار تخلصا من حاله. وقد لوحظ أن الشخص الذى يكون أكثر عرضة من غيره للنوبات السوداوية يكون فى العادة مرهف الحس، أنانى المنشأ، موجها اهتمامه نحو تحليل حالاته الشعورية، متذبذبا فى أعماله وتصرفاته وهو لا يقوى على تحمل ما قد يصيبه من متاعب ونوائب ويعترف سريعا بالهزيمة والخيبة. ويمكن اعتبار النوبة السوداوية بحق دليلا على انهزام الشخص فى معترك الحياة.

ويعتقد أن المرض السوداوى من الأمراض المجبولة فى طبيعة من يصاب بها .غير أنه لا يتحتم مطلقا أن تنمو الاستعدادات الفطرية - اذا كان هناك فعلا استعدادات فطرية للأعراض السوداوية - مهما اختلفت ظروف البيئة والتربية. فمن نزعاته الأنانية وتهذيب عواطفه ومنعه من التذمر والتأنن.

ربما كان هذا الأمر واقعا فى حالة شوبنهور؟

*****



طه حسين

قاهر الظلام!!

طه حسين

ولد فى قرية من قرى مصر العليا عام ١٨٨٩م من عائلة فقيرة لكنها لم تكن معدمة وفقد بصره وهو فى سن مبكرة. أصيب بالرمد وهو فى السادسة من عمره، فحملته أمه الى حلاق القرية ليفقد على يديه بصره. وكانت هذه الحادثة من أكبر الأحداث فى حياته شأنا. حادثة أخذته بألوان من الشدة، حملته على حب الاستماع إلى أخبار «الهلاليين» و«الزناتيين»، وقصص «المعلم جرس»، وأغانى القرية، وحفظ القرآن الكريم الذى حمله إلى الأزهر فى قلب القاهرة.

كان يجد فى الأزهر كما يقول فى «الأيام» راحة وأمنا وطمأنينة واستقرارا كأن هذا النسيم الذى يترقرق فى صحن يتلقى وجهه بالتحية فيملأ قلبه أمنا وأملا. وتعال نسمع طه حسين يقدم لنا نفسه وهو فى القاهرة لاول مرة، فى الجزء الاول من رائعة «الأيام»:

❖ « عرفته فى الثالثة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم فى الازهر، ان كان فى ذلك الوقت لصبى جد وعمل. كان نحيفا شاحب اللون، مهمل الزى، أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى، تقتحمه العين اقتحاما- أى تحتقره - فى عباءته القذرة، وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم وفى هذا القميص الذى يبين من تحته عباءته، وقد اتخذ ألوانا مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام، وفى نعليه البالتين المرقعتين. تقتحمه العين فى هذا كله، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حاله رثه وبصر مكفوف، واضح الجبين، مبتسم الثغر، مسرعا مع قائده إلى الأزهر، لا تختلف خطاه، ولا يتردد فى مشيئته، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين، تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه فى شئ من الرفق، حين تراه فى حلقة

الدرس مصغيا كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاما، مبتسما مع ذلك لا متألما ولا متبرما ولا مظهرا ميلا إلى لهو، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشرئبون إلى اللهو..

هكذا يصف لنا عميد الأدب العبى حياة الصبا وكيف جاء إلى القاهرة ليدرس فى الأزهر؟ ويشرح لنا بعد ذلك ما تحمله فى سبيل الدرس والعلم من حرمان فيقول فى موضع آخر:

❖ «عرفته ينفق اليوم والاسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لونا واحد، يأخذ منه حظه فى الصباح، ويأخذ منه حظه فى المساء، لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجلداً ولا مفكراً فى حاله خليقة بالشكوى .. لقد كان ينفق الاسبوع والشهر لا يعيش إلا على خبز الازهر، وويل للازهريين من خبز الازهر. إن كانوا ليجدوا فيه ضروبا من القش وألوانا من الحصى وفنونا من الحشرات .. وكان ينفق الاسبوع والشهر والاشهر لا يغمس هذا الخبز الا فى العسل الاسود .. »

كان الشيخ طه سعيدا بحياته فى القاهرة ودراسته فى الازهر على الرغم من الحرمان والمضايقات الكثيرة، وكان جادا مبتسما للحياة والدروس، بل كان يريد أن يلقى نفسه فى هذا البحر فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ثم يموت فيه غرقا، وعلى حد قوله فى الجزء الثانى من الأيام:

❖ «أى موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذى يأتيه من العلم ويأتيه وهو غرق فى العلم!.. »

بدا الازهر يصقل شخصية صاحبنا، وفطن إلى بعض المفاهيم الدينية الخاطئة فى الريف، وتمضى الأيام طويلة حافلة، وتتراكم الأحداث على الجرح حتى تغطيه، أو تنسيه فاذا بشيخ من شيوخ الازهر.. يغضب إذ يجادله طه حسين فى العلم فيقول للفتى فى حدة ساخرة : «اسكت يا أعمى ما أنت وذاك». ويرد عليه بقوله : «إن طول اللسان لم يثبت قط حقا ولم يصبح باطلا».

ولم تدخل البهجة إلى قلبه إلا عندما رقى من «رواق الغشيتة» إلى «رواق

الحنفية» حيث كان ينال رغيفين فى كل يوم، وكثر الخبز فى الغرفة، وفرحت الأسرة فى الريف. ونال أكثر من هذا، خزانة فى الرواق يحفظ فيها نعليه ورغيفه أو أحدهما، وليس هذا بالشىء القليل الشأن فقد كانت النعال لها جاذبية خاصة فى الأزهر، حتى أصبحت سرقتها من الأمور المألوفة الشائعة.

عشق طه الأدب وأحب العلم واستولت على نفسه طموحات كثيرة وأخذ يحلم بأن يكمل دراسته فى الخارج، وماذا يمنعه من ذلك ؟ وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية حتى يطل منها على أدب فرنسا ويقرأ للأسماء اللامعة التى طالما داعبت خياله وفكره.«لامارتين» «الفريد دى موسيه».. «شاتوبريان».. «الفريد دى فينى» وغيرهم. واستطاع طه ان يفهم اللغة الفرنسية عن طريق صديق له يدعى محمود سليمان، والطريف أن طه تعلم الفرنسية على يد صديقه هذا مجانا مقابل أن يعلمه طه قواعد اللغة العربية فكانت المنفعة متبادلة وأشبه بالمقايضة التى كان الناس يمارسونها فى التجارة ذاك الوقت.

وفى ذات يوم قرأ صاحبنا اعلانا فى الصحف من الجامعة عن وجود بعثتين للدراسة فى فرنسا فى موضوعين هما: التاريخ والجغرافيا.. وشعر أن الفرصة جاءته وانه لابد أن يكون واحدا من الاثنين، وكتب الى الجامعة المصرية خطابا يعبر فيه عن حرصه وأمنيته أن يسافر الى فرنسا لدراسة التاريخ، وعلى الرغم من الصعوبات التى قابلته إلا أنه فاز بالبعثة وحقق أمنيته فى السفر الى اوربا وبخاصة فرنسا بلاد النور والمعرفة فى ١٩١٤م.

لم تكن الحياة فى فرنسا بعامة والدراسة بخاصة أمرا سهلا ميسورا فأن صاحبنا طه عانى فى البداية من صعوبات كثيرة، أهمها عدم اتقانه للغة الفرنسية، وضعف امكاناته المادية، وشعوره بأنه كالطائر الحبيس، وعندما قدم اول أبحاثه وكان عن الحياة الحزبية فى فرنسا بعد سقوط نابليون قال له أستاذه:

-ان البحث سطحى لا يستحق النقد مما أحزن طه وضايقه، وأهتم طه بأتقان الفرنسية حتى أجادها، وكان يفضل السماع على القراءة عن طريق اصابعه وهى المعروفة بطريقة «برايل» ولذلك احتاج لمن يقرأ له ويوفر عليه الوقت، وهيأ له

قدره السعيد فتاة تقرأ له ما يريد، وعندما سمعها تقرأ عليه شيئا من شعر راسين، أحس كأنه خلق خلقا جديدا، ومنذ تلك الساعة التى سمع فيها ذلك الصوت العذب لم يعرف اليأس الى نفسه سبيلا، فقد ملاء مثله الأعلى أبو العلاء المعرى نفسه باليأس والبؤس والقنوط، ولكن هذا الصوت بدد ذلك البؤس واليأس، وحوله الى أمل وحب للحياة.. انها سوزان رفيقة طه حسين التى قال عنها فى رائعته «الايام»...

❖ «.. جعلت شقاءه سعادة، وضيقه سعة، وبؤسه نعيما وظلمته نورا، وأخذت ثقته بنفسه تثوب اليه، وأخذ ينجلى عنه الشعور بالغربة والضيق بالوحدة والسأم من العزلة.

فى فرنسا تخلص من جلبابه المعتاد، وبدأ يرتدى الملابس الاوربية، ولكن الشىء الذى أتعبه رباط العنق فلم يستطع أن يتعلم لفه وربطه الا بعد حين، كذلك وضع على عينيه نظارة سوداء، حفاظا على مظهره وبدأ يتقبل الحياة، بل ويقبل عليها بعد أن كان يعرض عنها، ويحاول الاختفاء ليعيش فى الظل.. تغيرت حياته تماما. وبعد أن أتقن اللغة الفرنسية، تعلم اللاتينية وأقبل على الحياة فى فرنسا وكأنه فرنسى الجنسية وصادق المفكرين والادباء.. دور كايم مؤسس علم الاجتماع الحديث.. اندريه جيد.. جان بول سارتر.. ماسينيون..

فى عام ١٩١٧ استطاع طه الحصول على درجة الليسانس فى الآداب من السوربون، وفى العام التالى ١٩١٨ نوقشت رسالة الدكتوراه التى تقدم بها عن فلسفة ابن خلدون وقد كتبها باللغة الفرنسية مما يدل على مدى تمكنه منها والتعمق فى الفكر والثقافة الفرنسية، وفى عام ١٩١٩ عاد الدكتور طه حسين إلى مصر - ولم يعد وحده بل عاد مع زوجته سوزان وثمرة حبه لها ابنتهما أمينه.. عاد ومعه درجة الدكتوراه من السوربون التى كانت مطمح آماله.. وأهم من ذلك أنه عاد الى وطنه مؤمنا بالثورة على الجهل والفساد والظلم وعرف أن دوره مع العلماء والمثقفين هو تزعم وقيادة هذه الثورة.. ألم يعيش فى باريس بلاد النور ويعاش التقدم والحضارة ؟ ويستمع الى فيلسوف «سان سيمون» يؤكد له ولكل

المثقفين والعلماء أن دورهم هو العمل على رقى الشعب فى شتى المجالات؟

وبعد عودته إلى مصر عام ١٩١٩ عين أستاذا للتاريخ القديم فى الجامعة، ثم استاذا لتاريخ الادب العربى فى كلية الآداب. وهى المرحلة التى أصدر فيها كتابه «فى الشعر الجاهلى» الذى أحدث ضجة أذاعت اسمه فى العلم العربى والإسلامى لدرجة اضطرت النيابة العامة إلى إصدار قرار مصادرة الكتاب من السوق.

لم تتوقف معركته هنا، إذ عندما عين عميدا لكلية الآداب « ١٩٢٨» أثار هذا التعيين أزمة سياسية، وحاربه وزير المعارف وطالبه بالاستقالة، ولكنه أبى أن يستجيب حتى يعين أولا، فكان له ما أراد، وعين يوما واحدا، وقع فى نهاره بعض الأوراق، وقدم فى مسائه استقالته. وأتى من جديد ميشو الفرنسى عميدا. ثم عين عميدا عام ١٩٣٠، وبعد يومين طلب إليه أن يستقيل ويعمل رئيسا لتحرير جريدة «الشعب» فرفض هذه المرة، طلبوا منه أن يمنح الدكتوراه الفخرية من الجامعة لبعض السياسين وهم : على ماهر، إبراهيم يحيى، عبد العزيز فهمى، توفيق رفعت... فقاومهم وقال «إسمحوا لى بالدكتوراه أن ترتخص وتمنح الهوى » وكان الثمن إحالته على التقاعد، فذهب إلى جريدة «السياسة» ليكتب فيها مجانا، وكان يتولى رئاسة تحريرها فى غياب رئيس التحرير الأصلى الدكتور محمد حسين هيكل صاحب أول رواية مصرية فى هذا القرن «زينب» وقد حملته الصحافة من جديد إلى عمادة الآداب، إلا أنه سرعان ما أجبر على الاستقالة . وقد أفادته الاستقالة الثالثة حيث عين وزيرا للمعارف فى وزارة نجيب الهلالى «١٩٤٣»، لكن سرعان ما أبعد وأحيل على التقاعد، إلى أن جاء عام «١٩٥٠»وعين مرة ثانية وزيرا للمعارف حيث نفذ انقلابه هذه المرة، وأعلن مجانية التعليم الثانوى والفنى والجامعى الأمر الذى أغضب الملك فاروق، لكنه قال: «إنى كنت سعيدا حين تعلمت على حساب الدولة ومن الحق على أن أتيح بعض هذه السعادة لأكبر عدد ممكن من شباب مصر، ولو استطعت لأتيحها لهم جميعا «جنة الحيوان ص٩٧». ثم خرج طه حسين من الحياة السياسية وهو وزير فى ٢٦ كانون الثانى

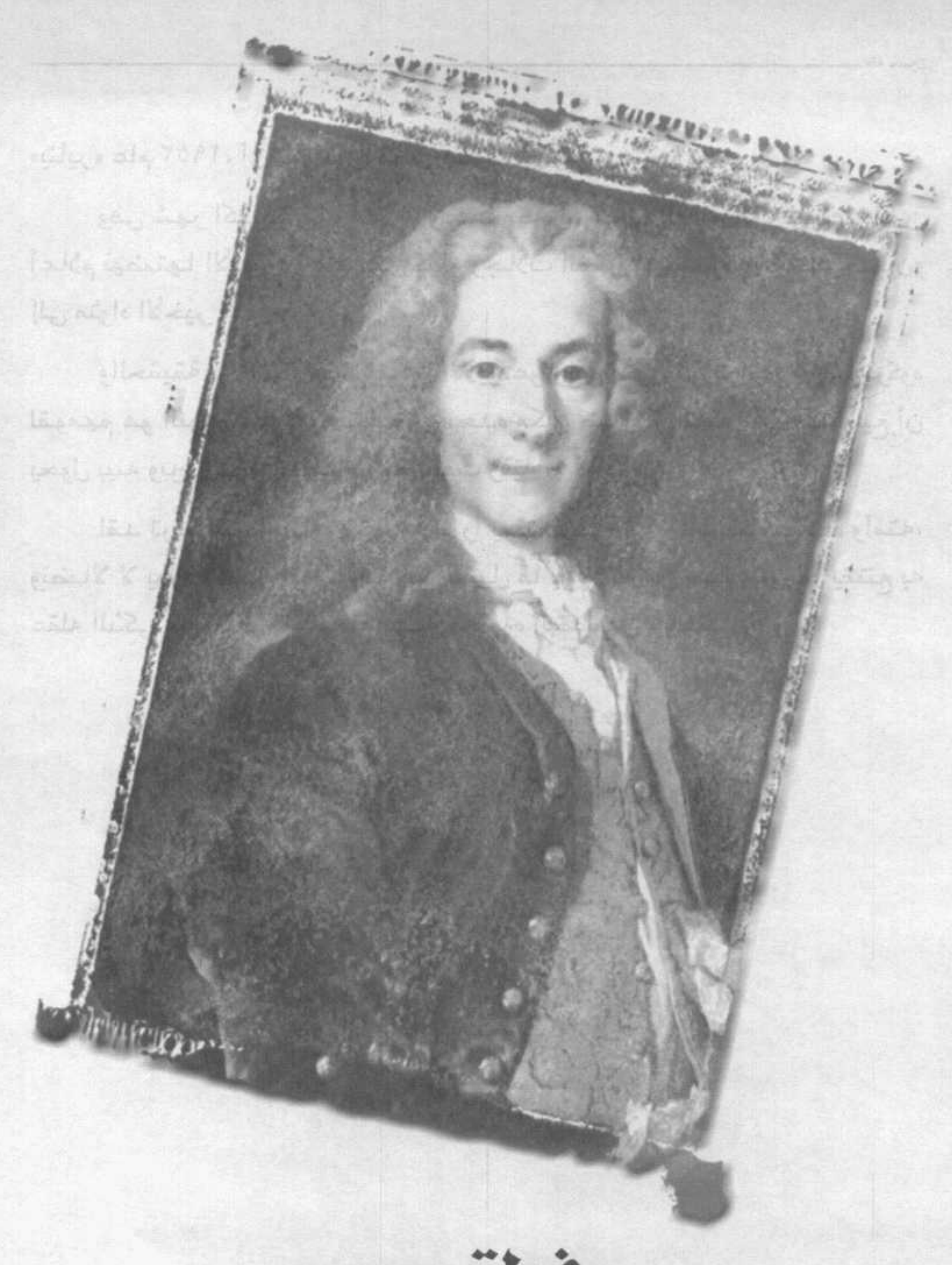
«يناير» عام ١٩٥٢، أى قبل ثورة مصر بستة أشهر.

وفى شهر اكتوبر عام ١٩٧٨، ودعت مصر، ومعها العالم العربى، علما من أعلام نهضتها الأدبية، ورائدا من كبار رجالات الفكر فيها .. ودعت «طه حسين» إلى مثواه الأخير ..

والحقيقة أن أمثال «طه حسين» لا يودعون إلى مثوى من تراب، لأن ما تركوه لقومهم هو النور الذى لا يستطيع أن يحده مكان ضاق أو أتسع ، ولا يستطيع أن يحول بينه وبين الانتشار ظلام مهما بلغت رقته أو كثافته،..

لقد ترك الرجل آثاره فكرا متحررا يستشرف آفاق المستقبل لبلاده وأمته، ونضالا لا يعرف الكلل أو المهادنة فى سبيل ما يؤمن به من مبادىء، وما يقتنع به عقله الذكى من أفكار، وما يمليه عليه ضميره اليقظ من مواقف.

*****



فولتيــر

صاحب المتناقضات.. خلاصة حياة عصر بأكمله!!

فولتير.. خلاصة حياة عصر!!

استهل الكاتب البريطانى المؤرخ النقادة توماس كارليل مقاله اللامع الشائق عن الكاتب الفرنسى الشهير فولتير بقوله: « لو قدر للطموح ان يختار طريقه، وللارادة فى المحاولات الانسانية أن ترادف الموهبة لكان كل الرجال الطامحين حقا من رجال الأدب».

وفى موضع آخر من المقال نفسه يقول « اذا استثنينا الراهب لوثر صاحب البروتستانتية ؛ فانه ليس هناك أحد من رجال الفكر فى العصور الحديثة قد صار تأثيره وشهرته أوربيين خالصين مثل فولتير».

والواقع أن فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م)، قد بلغ فى عصره من الشهرة الواسعة والمكانة المرموقة العالية ما لم يبلغه كاتب قبله أو بعده، حتى أصبح علما على عصره ورمزا له وليس فى مستطاع انسان أن يتصور القرن الثامن عشر بدون فولتير وتأثير فولتير.

وقد كُتب عن فولتير من زوايا عدة وتناقضت الأحكام فى تقدير أدبه ومنزلته بين كبار المفكرين ولم يكن هناك مناص من ذلك؛ فقد كان الرجل متعدد الجوانب وتناول فى حياته موضوعات شتى وكان هو نفسه يكاد يكون خلاصة حياة عصره.

*****

ووصفه فيكتور هوجو فقال: « إن ذكرت أسم فولتير فقد ذكرت أخص مميزات القرن الثامن عشر من أوله إلى منتهاه » وقد أختصت ايطاليا بعصر النهضة، واختصت المانيا بعهد الاصلاح اللوثرى؛ ولكن فرنسا اختصت بفولتير فقد كان يضم فى برديه النهضة والاصلاح ونصف الثورة الفرنسية، كما كان

يجمع بين شك « مونتانى » وسخرية « رابليه ».

ووصفه لامارتين فقال: « إن الأقدار قد وهبته عمراً قد جاوز الثمانين، فاستطاع أن يقضى على فساد عصره وقد مكنه عمره الطويل أن يحارب الزمن فلما سقط فى حومة الوغى كان سقوطه سقوط الظافر المنتصر ...». ويوم وقعت عينا لويس السادس عشر – وهو فى سجنه – على مؤلفات فولتير وروسو قال : ان هذين الرجلين قد اوديا بفرنسا.وهو يقصد بفرنسا أسرته هو بالطبع.

ومن مأثور أقوال فولتير : «ان الكتب تحكم العالم أو على الأقل تحكم الأمم ذوات اللغات المكتوبة. اما ما سواها فلا تدخل فى الحساب..».

مولد فولتير ونشأته :

ما من رجل علم الكثيرين من معاصريه ومن بعد عصره أن يفكروا وأن يستغلوا قواهم العقلية مثل فولتير، وما من قوة استطاعت أن تطفئ ذلك الضياء الذى انبسق فى أنحاء أروبا نتيجة لتعليم فولتير والذى لا ينفك يتألق فى سمائه.

ولقد كان أولئك الذين لا يحبون أن يفكر الإنسان لنفسه والذين يحبون أن يظل العقل البشرى جامداً يقولون أن فولتير رجل شاذ؛ لأنه كان يصر على أن من حق الإنسان أن يشك فيما لا يستطيع أن يؤمن به. والذين لم يطالعوا حرفاً واحدا مما كتبه فولتير يؤكدون أنه كان رجلاً ملحداً، على أن شعر فولتير كان خير جواب على هذا الاتهام – وإن كان لم يعن بتوجيهه إلى هؤلاء القوم وإنما كان يتوسل به إلى الله – إنه يقول:

يا إلهى الذى لا نراه والذى تعلن عن وجوده أعماله.

يا إلهى استمع إلى كلماتى الأخيرة.

اذا كنت قد أخطأت فانما كنت أبحث عن قانونك.

وقد يضل قلبى ولكنه عامر بك.

وما كان هذا الحاداً ولكنه نداء قلب خاشع مستكين وما تهجم فولتير على عقيدة دينية؛ ولكنه كان يسخر من الأضاليل المبتدعة التى لا تمت إلى العقائد بصلة.

ولد الطفل الذى يدعى بعد ذلك بأسم فولتير « وهو الاسم الذى عرف به فى كتاباته » فى مدينة باريس يوم ٢١ نوفمبر من عام ١٦٩٤م وسمى فرانسوا - مارى اروا وتوفيت أمه بعد سبع سنوات من ولادته وكانت صحته منذ بداية عهده فى هذه الحياة سيئة، ولم يستطع على مر الأيام أن ينفض عن نفسه هذا الاعتلال الصحى، كان طفلاً نحيف الجسم ذا ابتسامة شيطانية شديد الجاذبية وله ولع غير طبيعى بدروسه.

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره أعلن أنه اعتزم أن يصبح من رجال الأدب وكأنما كان المداد يجرى فى عروقه، فقد كان الشعر والمسرحيات تتدفق منه فى غير توقف وكان أبوه رجلا من الطبقة المتوسطة يقترب قليلا من طبقة الأثرياء وكان طموحاً من الواجهة الاجتماعية، وأراد أن ينقذ ابنه من حياة مهينة حين دفع به إلى مكتب محاماه ولكن الشاب فولتير أظهر فشله فى هذه الناحية فألحقه أبوه بالسلك السياسى وبعث به إلى هولندا وسرعان ما حطم أول قاعدة فى عمله السياسى حين فر مع فتاة فعاد إلى وطنه يحمل هذه الوصمة ومع هذا فقد كان لا ينفك يريد أن يكتب وصاح أبوه فيه: « إنك بالكتابة ستموت جوعاً » وكأنما أراد أن يساعد القدر فى مهمته، فحرم ابنه من الميراث، وسرعان ما خاب تنبؤ أبيه ففى خلال عشر سنوات نجح فولتير نجاحاً مالياً فاق أحلام أى شاعر.

ولقد كان من أكبر عوامل نجاح فولتير ما عمد إليه الرقيب من مصادرة كل كتب فولتير تقريباً وما أتبعه رجال الشرطة من وقف تمثيل مسرحياته فى الليلة الثالثة من عرضها؛ وكان من نتيجة ذلك أن كانت المسارح تغص بالباريسيين فى ليالى الافتتاح، وإن كتبه كانت وتقرأ كأنها مطبوعات صادرة من مؤسسة تختفى تحت الأرض عن أعين الرقباء وتسربت الكتب إلى الأقطار المجاورة فطبقت شهرة فولتير هذه الآفاق الجديدة. وكانت التهمة الرسمية الملصقة به انه يفسد الاخلاق

والمبادئ العامه، ولكنها لم تشر أية اشاره إلى الخروج عن الأداب كأن المبدأ وقتذاك أن التهجم على الحكومة وانتقاد أعمالها يعد من أسوأ ضروب « المنافاة للشرف والأداب ». ومسرحيات فولتير قد وضعت على أنها وقعت فى بلاد الفرس واليونان وبيرو والصين إلا أن كل إنسان كان يدرك المعانى االمزدوجة وما بين السطور ويضج بالضحك الساخر والضحك شعلة لا تستطيع الحكومة أن تعمل على اطفائها ولم تملك الحكومة الفرنسية الا أن تتبع مع فولتير طريقة استبدادية تعسفية فأودعته سجن الباستيل، ولم تكن الحكومة فى ذلك العهد ملزمة أن تثبت التهمة ضد إنسان لكى تودعه السجن، فقد كان حسبها مجرد الشك والاشتباه ويبقى الإنسان فى السجن دون أن يفرج عنه إلا إذا كان له أصدقاء أقوياء يبذلون جهودهم ونفوذهم لإخراجه، وقد مكث أصدقاء فولتير احدى عشر شهراً حتى استطاعوا الافراج عنه بعد ان ازدادت صحته سوءا وضعفاً وبعد أن أصبح أشد ضراوة وخطورة إلى حد أن أحد النبلاء السخفاء ويدعى الشيفالييه دى روهان وجه إليه كثيراً من الاهانات قابلها فولتير بما عهد فيه من السخرية اللاذعة فلم يسع الشيفالييه إلا أن يسلط عليه بعض خدمه لضربه والشيفالييه يدير حركة المعركة وهو جالس فى مركبته!

وكان فى استطاعة فولتير أن يحتمل ما يحيق به من ظلم وعسف أما ما ينال الآخرين منهما فلا يستطيع احتماله.

حين كانت أعظم ممثلات فرنسا، أدريين ليكوفريه، تحتضر كان فولتير قابعا إلى جانب فراشها يستمع إلى حديثها وهى تقص عليه كيف أن القسيس قد طلب منها أن تعلن أن فنها التمثيل هو عمل معيب وكيف أنها رفضت هذا المطلب رفضا باتا؛ فتركها القسيس دون أن يمنحها الغفران الدينى ولما ماتت هذه الممثلة العظيمة أسرع رجال البوليس بجثتها ودفنوها فى حفرة وهالوا عليها الجير الحى

منذ ذلك اليوم طوى بين جوانحه كراهية متأججة لا للدين المسيحى كما زعم البعض زورا، بل للقسوة التى تتنافى مع الدين السمح سواء أكانت هذه القسوة فرنسية أم غير فرنسية، وسواء أكانت صادرة من الكاثوليك أم

البروتستانت وكان يقول: « إن الرجل الذى يقول لى: اتبع قائدى وإلا حلت بك لعنة الله، سيقول لى بعد ذلك: اتبع عقائدى وإلا قتلتك ».

ورجل له مثل هذا اللسان، لا يمكن أن يكون فى مأمن فى بعض الأقطار حتى فى عصرنا الحالى؛ ولهذا فسرعان ما أودع فولتير سجن الباستيل للمرة الثانية ثم أطلق سراحه حين وعد بمغادرة فرنسا وأبحر إلى انجلترا وهو متلهف القلب فوصل لندن عام ١٧٢٦م وقد تأثر أبلغ التأثير حين شاهد جنازة السير اسحاق نيوتن العالم الشهير فلم يعتد فولتير أن يرى حكومة فرنسا تبدى مثل هذا التقدير العظيم الذى أدته الحكومة الانجليزية والشعب الانجليزى عند وفاة عالم مثل نيوتن والاحتفال بجنازته ودفنه فى هذا الاحتفال الضخم، كذلك أدهشه فى انجلترا ما يسبغه الشعب الانجليزى على شعائره من التعظيم والاجلال، وما فى مجلس العموم البريطانى من القوة والاستقلال فى الرأى وأكثر من هذا وذاك ما رآه رأى العين من عدالة القضاء الانجليزى.

وفى عام ١٧٢٩م، وكان فولتير قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، تسلم تصريحاً من الحكومة الفرنسية بعودته إلى فرنسا ولم ينقض وقت طويل حتى ندمت فرنسا على هذا التصريح الذى منحته إلى فولتير.

واستطاع فولتير بما اكتسبه من الخبرة التجارية مدة اقامته فى انجلترا أن يشتغل بتصدير البضائع إلى أمريكا والهند وغيرهما من أقطا العالم فعادت عليه هذه التجارة بثروة جعلته من الأغنياء وكان بطبيعته يحب حياة الرفاهية، ومكنته ثروته من الاستمتاع بها وارتداء الثياب الأنيقة واقتناء المركبات، وراح يدعو غيره من الناس إلى الاستمتاع ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فقد كان فولتير يحس بما يعانيه الناس من الشقاء والتعاسة، بيد أن فولتير كان له من الآراء الأخلاقية ما هو أنبل من آراء ناقديه: لقد كان يرى أن الإنسان قد خلق حراً طليقاً ومسئولا عن أعماله وأن ضميره وحده هو الذى يتولى الحكم على عمله كما قال فى شعره:

إذا كان الانسان قد خلق حراً

فله وحده أن يحكم نفسه

وإذا حكمه جبابرة ظالمون فعليه

أن ينتزعهم من فوق عروشهم.

وكان فولتير يهاجم هذه المساوئ بذكائه ونبوغه هجوما عنيفا وكان يقول:

«إن تجارتى هى أن أقول كل ما يجول فى ذهنى» وما جال فى ذهنه احتواه ٩٩ مجلداً. قال كل ما اضطرب به جنانه فى مسرحياته وفى شعره وفى رواياته وفى نشراته وفى مقالاته وفى رسائله التى بلغت ١٠,٠٠٠ رسالة بعث بها إلى مشاهير القوم فى جميع أنحاء أوروبا. ومن بين هؤلاء كاترين الثانية قيصرة روسيا، التى بعثت إليه بهدايا عظيمة والملك كريستيان السابع ملك الدانمارك وجوستاف الثالث ملك السويد الذى وعد أن ينفذ ما أشار به فولتير وأنه سيحاول أن يرتفع بحياة قومه إلى المستوى الإنسانى ولم يستطع فريدريك الكبير حين كان ولياً للعهد أن يغرى فولتير بالقدوم إلى بوتسدام؛ فرحل إليه متنكرا ليقدم إليه فى باريس فروض الاجلال.

على انه جاء وقت على فولتير كان يتنقل من مكان إلى مكان مختفيا عن الانظار وعن العيون التى كانت تترقبه للقبض عليه، وكان يضطر أحيانا إلى الفرار من فرنسا إلى الأقطار الاجنبية: فقد كان كل كتاب جديد يحدث انفجارا جديداً من الحقد والسخط عند أولياء الأمور ويصبح الكتاب أو صاحبه فى مأزق حرج، وكان من أثر ثورة حكومة فرنسا على كتب فولتير أن وجدت هذه الكتب طريقها إلى الاقطار الأخرى.

بعد ذلك بادر بقبول دعوة فريدريك الأكبر التى ظلت قائمة وكان كل من فريدريك وفولتير يتبادل الاعجاب مع صاحبه منذ شبابهما وكان كلاهما عنيدا شديد المراث أنانياً قويا ماهرا ذكيا. ولما وفد فولتير إلى بروسيا وجد الملك أن ضيفه الشهير لا يمكن أن يقبل دور النديم كذلك ثارت ثائرة فولتير على الروح العسكرية السائدة هناك وسرعان ما وقع الشقاق بينهما ؛ فوجد فولتير نفسه فى الطريق الى خارج البلاد واذا به يجد كل حدود أوربا مغلقة فى وجهه بفضل نفوذ فريدريك الأكبر.

وفى عام ١٧٥٥م وجد الفيلسوف الكهل ملجأ له وملاذا فى جمهورية جنوا الصغيرة وهناك ابتاع دارا أمها كل رجل عظيم فى أوربا استطاع أن يقوم بالرحلة اليها وفى هذه الدار كان فولتير يستقبلهم استقبالا حافلا، وفى عينيه الخابيتين بريق وعلى وجهه المجعد ابتسامته القديمة الخبيثة وكان يحتسى القهوة بشراهة ويحادث ضيوفه أشهى الأحاديث وكان الضيوف يجيئون لقضاء ثلاثة أيام فيمكثون ثلاثة شهور.

وكان بره بالناس أقل علانية من ضيافته وكان الكثيرون من الفقراء أو المضطهدين دينيا أو سياسيا يقدمون اليه ويفدون عليه طلبا لنجدتهم، وبدأ فولتير تشييد دور لهم حتى أصبحت ضيعته قرية صغيرة فتشيد لأهلها كنيسة ومدرسة لأطفالهم، وعهد اليهم بالأعمال التى يستطيعون أداءها، وكان أغلب هؤلاء اللاجئين من صناع الساعات السويسريين ، وسرعان ما وجد فولتير نفسه صاحب تجارة ساعات رابحة. فكان يبيع ساعاته أقل من غيره بمقدار ثلث الثمن. وكان يرسل رسالة شخصية مع كل طلب، ومثل هذه الرسائل أغلى وأقيم من كل الساعات التى أنتجها.

وكان فى الامكان أن يعيش فولتير فى سلام ودعة بعد أن أصبح واسع الثراء؛ ولكن أشد معاركه المريرة واعظم أعماله جميعا كانا عام ١٧٦٢م حين قام المتعصبون الدينيون فى مدينة تولوز باحتفالاتهم لانقضاء مائتى عام على ذبح ٤٠٠٠ مارق من الدين وفى ذلك الوقت وجدوا شابا مشنوقا فى بيدر «جرن» وذاعت الاشاعات ان هذا الشاب كان بروتستانتيا واراد أن يصبح كاثوليكيا ونشر المتعصبون الدينيون أن والد هذا الشاب وهو كهل فان هو الذى شنق ابنه الشاب القوى، وبعد ضروب من التعذيب الرهيب لم يعترف المسكين بشىء وامتدت يد القانون بالانتقام من جميع أفراد الأسرة.

ولما اهتم فولتير بهذه القضية بدأ يكشف عن الطبيعة المرعبة للقانون الجنائى كما يطبق فى فرنسا، بل وفى كل البلاد الأوربية ما عدا انجلترا: لم يكن هناك محلفون ولا يسمح للمتهم بالاستعانة برجال القانون ولا يسمح له بتقديم

أية بينة فى مصلحته والذين يقدمون الاتهام يقدمون شهادات سرية ويقيم القضاة من أنفسهم نوابا. وعلم فولتير إلى جانب كل ذلك أن مواد القانون الجنائى ليست كلها مكتوبة، بل كانت فى رؤوس القائمين بالمحاكمات و «تترجم» كما يحلو لهم لاثبات الاتهام ولم يكن هذا بالأمر الجديد، بل كان متبعا منذ العصور المظلمة. ولم يكن الأغنياء الممتازون يعرفون شيئا عن هذا القانون، وكانوا يحسبون أن الفقراء والمساكين الذين يعاقبون انما هم يستحقون هذا العقاب حقا.

واندفع فولتير بكل قوته ونبوغه فى الهجوم على رجال القانون ورجال الكنيسة والملوك وجميع الصحف الأوربية، يطالبهم جميعا باعادة التحقيق فى تلك القضية ولم يسع الملك الا أن يخضع للجماهير التى أثارها فولتير خلال ثلاث سنوات قضاها فى هجومه لم يهدأ له بال ولم تغمض له عين ولم تبتسم له شفاه وأعيد التحقيق فى القضية وثبتت براءة الأموات والأحياء. وأرادت محكمة تولوز أن تمحو هذه القضية التى وصمتها بوصمة العار من سجلاتها وأعيد النظر فى قانون الجنايات الذى ظل ٨٠٠ عام لا يفكر أحد فى دراسته وكان كل ذلك بفضل ذلك الرجل الكهل «فولتير».

وما كاد يصدر الحكم بالبراءة فى تلك القضية، حتى هرع كل مظلوم فى القضايا القديمة إلى فولتير فانطلق يكشف عن المآسى الرهيبة والمخازى ولا يهدأ له بال حتى يجرى العدل مجراه، وراح يطالب بابعاد الدين عن السياسة وعن القانون وأن يعكف رجال الدين على الأعمال الدينية والروحية التى طال اهمالها. وظل فولتير فى حملته يفسر الفرق بين مخالفة القانون وبين الخطيئة ويقول ان الله سيعاقب مرتكب الخطيئة اذا أراد أما من ناحية القانون «فاننا نحب القوانين ويجب أن نكون فى خدمتها وأن نحمل كل أعبائها وكل من ينتهك حرمة القانون يكون انسانا لا يحب وطنه».

وجاء يوم اشتد فيه حنين فولتير إلى وطنه وعظم شوقه إلى رؤية باريس قبل موته، وفى أحد ايام شهر ديسمبر من عام ١٧٧٧م وقفت مركبة أمام ضابط

الجمارك الذى أراد أن يرى هل تحمل هذه المركبة أشياء ممنوعة واذا به يسمع ضحكة خفيفة وصوتا يقول له: «لا شئ ممنوعا داخل المركبة عداى» وبادر الضابط وفتح باب المركبة وصاح: «يا الهى انه مسيو فولتير!» لأن تلك الابتسامة المغضبة كان يعرفها الملايين الذين لم تقع أنظارهم على شخص فولتير.

واستقبلته باريس استقبالا رائعا، وفتحت الأكاديمية الأهلية التى حاربته طويلا ذراعيها لذلك الأديب الثائر العظيم واصطف كل موظفى مسرح «الكوميدى فرانسيز» أمام الباب لتحية المؤلف المسرحى العظيم.

وقضى هذا الأديب الثائر نحبة وهو فى الثالثة والثمانين من عمره، وكان ذلك فى مايو عام ١٧٧٨م وكانت آخر كلماته التى أملاها على سكرتيره هى:

«اننى أموت وأنا أعبد الله وأحب أصدقائى ولا أكره أعدائى وأزدرى الخرافات».

وكان خير جزاء ناله فولتير حين قامت الثورة الفرنسية وأخرج الناس جثته ووضعوا نعشه فوق أنقاض الباستيل مدة ليلة، فقد كان ليديه الضعيفتين الفضل فى القضاء على هذا السجن العتيد الرهيب.

*****

فولتير المؤرخ

ولقد كان فولتير من أشد المهتمين بالتاريخ فكتب فيه لكن بعين الفيلسوف لا بعين المؤرخ التقليدى الذى يقتصر التاريخ بالنسبة له على مجرد سرد الحوادث وتوخى الدقة فى التأريخ لها والالمام بتفصيلاتها، فلقد كان التاريخ الانسانى بالنسبة لفولتير وحدة واحدة ينظر اليه ككل ويرى أن جوهره هو التقدم المطرد الذى يحققه الانسان فليست فى التاريخ معجزة لا يمكن تفسيرها؛ لأن ثمة عوامل ثلاثة تؤثر على فكر البشر ومن ثم على صناعتهم لتاريخهم هى المناخ ونوع الحكم

والدين. وان وضعنا هذه العوامل فى الاعتبار استطعنا تفسير لغز هذا العالم، فان انتصارات البشرية على الأشياء وتناحر الجماعات البشرية ونقدم الأخلاق والعلوم والفنون كل هذا جرى بصورة طبيعية، وكل هذا سيستمر متزايدا كلما توسع أفق العقل البشرى وكلما أحرز قدرا أكبر من التقدم العلمى والصناعى والفنى والأخلاقى والسياسى مما يتناسب أكثر مع حاجات الانسانية لا فرق فى ذلك بين انجازات أمم الشرق القديم وانجازات الغربيين المحدثين، الا فرقا فى درجة التطور الذى وصلنا اليه وزيادة كم الاكتشافات والمخترعات التى ساهمت فى السيطرة أكثر على الطبيعة، وفتحت الآفاق بصورة أكثر اتساعا أمام الانسان.

وهكذا تبلورت لدى فولتير نظرية فى تفسير التاريخ هى ما يمكن أن نطلق عليه نظرية التقدم، وهى نظرية تركز - كما اتضح لنا - على الانجازات العقلية للبشر وتتبع تطور هذه الانجازات فى مختلف الميادين فالتاريخ بالنسبة له خط مستقيم سار فيه جميع البشر منذ الأمة المصرية القديمة وإلى اليوم وكل الأمم ساهمت فى صنعه بأقدار متفاوتة وعلى حساب ما تمتاز به شعوبها.

*****

لقد دخل فولتير الحياة بعائقين، صحته الضعيفة التى يشكو منها دون انقطاع، وان اتاحت له ان يشكو مدة ثلاثة ارباع القرن، وأصل برجوازى هو - وان كان مرضياً - يحرمه من الامتيازات المقصورة فى ذلك العهد على الطبقة العليا من النبلاء وكان هذان مصدرا انزعاج لانسان فى مثل طبيعته.

اضافة لذلك كانت مغامرته العاطفية العنيفة وحلوله ضيفاً على السجون الفرنسية لفترات، كل ذلك جعل النورستانيا تكون داخل نفسه.

قد كان قبيحاً بشعاً، مختالاً، معجباً بنفسه، فصيحاً بذيئاً، مستهتراً وأحياناً غادراً وفاسقاً. لقد كان رجلاً يحمل اخطار زمنه وعصره ومكانه، ومع ذلك فقد كان ينقلب أحياناً ويصبح لطيفاً رصيناً، منصفاً، سخياً مسرفاً فى تبديد نشاطه

وماله فى مساعدة اصدقائه وتحطيم اعدائه، وكان قادراً على قتل عدوه بضربة قلم، هذا هو فولتير الرجل المتناقض.

كان فولتير مصاباً بالنورستانيا ولم تفارقه الى أن مات فى الثالثة والثمانين من عمره. والنورستانيا أو الضعف العصبى مرض نفسى يشكو المصاب به الشعور الدائم باجهاد واعياء عقلى وجسمانى مصحوباً بثقل فى الرأس وضعف بالذاكرة وعوارض اخرى. وليس هذا الشعور شعوراً طبيعياً نتيجة بذل مجهود عضلى وعقلى، انما هو تعب وهمى يرجع إلى اضطراب نفسى، وقد كان العالم سيجموند فرويد يرى ان النورستانيا راجعة إلى الافراط الجنسى مما يؤدى إلى انهاك المجموع العصبى. ويرى العالم فيشين ان النورستانيا تظهر بالأشخاص الانطوائيين والذين يعانون من شعور بالنقص.

*****



كانـــط

من كبار فلاسفة الإنسانية..
صاحب القلق الهستيرى!!

كانـط

«كانط» فيلسوف من كبار فلاسفة الانسانية، وهو مبدع ما يسمى «بالمثالية النقدية»، التى مهدت السبيل إلى انتصارات الفلسفة الالمانية الكلاسيكية، وواضع مشروع يرمى إلى استتباب السلام الدائم بين أمم الأرض قاطبة دون تفريق.

استهل كانط عصرا جديدا فى الفكر الفلسفى. ومؤلفاته الكبرى أشبه بمعالم الطريق فى تاريخ الفلسفة الحديثة. انه أحد أولئك العباقرة من أفذاذ الإنسانية المفكرة، الذين استطاعوا بحياتهم ومؤلفاتهم أن يخلقوا فى الحياة العقلية داخل بلادهم وخارجها أثراً باقياً عند أهل عصرهم وعند الخلف من بعدهم. لقد وصفه أحد الكتاب بأنه (مفكر هز العالم بفكره أشد مما هزه معاصروا فريدريك الأكبر، على الرغم من جيوشه ومدافعه) . وما من أحد ممن يأخذون أمور الفكر والحياة مأخذ الجد يستطيع اليوم أن يفكر أو أن يعمل من دون أن يضع موضع الاعتبار نظريات كانط وأراءه. وقد كانت تلك الآراء ولا شك من أكبر الوقائع فى تاريخ العصر الحديث انها فيما يرى كونو فيشر، تمثل ثورة شبيهة بالثورة التى أحدثها سقراط حين صرف الإنسان عن دراسة الكون الى دراسة نفسه. والحق انها تحدد مهمة الفيلسوف تحديدا دقيقا بحيث لا يعنيه أن يستكشف مبادئ الوجود ولا أن يحصل لنفسه نظرة عن العالم بقدر ما يعنيه أن يبحث فى قوة العقل ليتبين اختصاصه وحدوده ومداه، ويتلمس شروط المعرفة الإنسانية ويبحث عن قيمة أفكارنا وأحكامنا.

حياة من أجل الفكر

بيد أن حياة «كانط» الخاصة تكاد أن تدمر أمام عظمة عمله وإن كانت تقدم لنا صورة مشرقة لسلوك المعلم فى خواطره وتوجيهاته.

ولد «كانط» فى ٢٢ من أبريل سنة ١٧٢٤م بقرية «كونيجسبرج» وكان أجداده لأمه وأبيه من المزارعين والسقاه والحرفيين فى بروسيا الشرقية. وفى كورلاند، وبعضهم فى لتوانيا. وكان والداه يعيشان عيشة متواضعة أقرب إلى المسغبة. وهو مع هذا يفخر بهما فيذكر أنهما وإن كانا لم يخلفا له ثروة فأنهما لم يتركا ورائهما ديناً. وقد استطاعا أن يهيئا له تعليماً نموذجياً مرتكزاً على القناعة والاستقامة.

وبفضل «فرانز ألبيرت شولتز» - وكان واعظاً وأستاذا لأصول الدين، تربطه بأبويه رابطة صداقة - ألحق «كانط» وهو لما يزل فى الثامنة بمعهد فريدريك، وهو مدرسة ثانوية تصطبغ الدراسة فيها بالصبغة الدينية التى لا تخلو من تزمت. وفى سنة ١٧٤٠م بدأ «كانط» دراساته فى اللاهوت والفلسفة والرياضيات فى جامعة «كونيجسبرج» مسقط رأسه. وكان أستاذه فى الفلسفة هو الأستاذ «مارتن كنوتزن» الذى سيثنى عليه «كانط» فيما بعد ثناء عاطراً لحرصه على ألا يجعل من تلاميذه بغبغاوات تردد ما تلقنه دون فهم، بل شخصيات مفكرة يتوخى كل منهم، ممارسة التأمل والإدلاء بالرأى بعد النظر والتدبر. وعقب وفاة أبيه سنة ١٧٤٦م قطع كانط دراسته التى استمرت زهاء سبع سنوات. ولحاجته إلى المال اشتغل لسنوات عديدة معلماً خاصاً. وفى تلك الحقبة من حياته انصرف إلى استكمال ثقافته العامة مستفيداً من خبرات السنين وأحداثها مستخلصاً منها القدرة على فهم الحياة ومواجهتها. وفى سنة ١٧٥٥م حصل على درجة الماجستير. وفى نفس السنة غدا مؤهلاً للتديس فى التعليم العالى بدراسته عن «توضيح جديد للمبادئ الأولى للمعرفة الميتافيزيقية»، وأصبح بذلك أستاذا بجامعة «كونيجسبرج» وتجليت برأعته كمحاضر وسعة أطلاعه وعمق فكره، فى ذلك النشاط الواسع الذى مارسه

فى التعليم وتناول فيه فروعاً متعددة من المعرفة: فى الرياضيات والفيزياء - وكان أول من درسها فى جامعة المانية - والأنثروبولوجيا. غير أن ما يسترعى الانتباه أن «كانط» فى هذا النشاط الموسوعى فى دروسه لم يعلن فلسفته الخاصة.

حياة كانط

التأمل الخصب.. الوضوح فى الفهم .. السلامة فى التفكير !!

ويذكر الكاتب «راينهولد ثونز»، وكان من المتابعين لدروسه، انه كان يؤثر البساطة فى التفكير وفى السلوك، وكان يمتعض من التزمت فى العقيدة ويمج الاستبداد بالرأى، يختص تلاميذه بالحدب والرعاية، ويحوطهم بعطف الأب مشجعاً لهم على النقد والتحليل وعلى اتباع نظام صارم فى الدراسة.

وما ان عين أستاذا للمنطق والميتافيزيقا فى جامعة «كونيجسبرج» سنة ١٧٧٠م وهو فى السادسة والأربعين، حتى فاض انتاجه فى محاضراته وكتبه، وتحددت معالم فلسفته. وقد ظل يشتغل بالتدريس فى الجامعة إلى أن آثر الاعتزال سنة ١٧٩٦، ومات سنة ١٨٠٤، وقد ترك لنا انتاجا فكريا ثميناً يغطى نصف قرن من ١٧٤٩ إلى ١٧٩٩م.

وحياة «كانط» ذاتها بالنسبة لانتاجه ليس فيها كما ألمحنا ما يثير. هى حياة شغلها التأمل الخصب لمفكر انصب اهتمامه الأكبر على التدريس، ولكننا برغم هذا نجد من التجنى على صاحبها القول بأنه عاش فى عزلة عن الدنيا وعزوف عن شواغلها وغيبة عن أحداثها. فلقد كانت الحياة فى نظر «كانط» واجباً ساميا ينهض بأدائه على الوجه الذى يرضى الضمير، وكانت محاضراته الجامعية تجمع إلى جانب الدراسة الخالصة، التوجيه الأخلاقى السديد. من ذلك ما أثر عنه فى أحاديثه إلى طلابه قوله: «ان الأستاذ الجامعى فى حرج شديد، فهو يود من صميم قلبه أن يلم طلابه بألوان متعددة من المعارف، بيد أنه يخشى من أن يستغرقوا فى حشد لا ينتهى من المعلومات، وأن يتعجلوا الحكم على الأشياء فتخرج منهم جماعة

من أنصاف المثقفين تضيق نظرتهم ويختنق أفقهم، فتعمى بصيرتهم ويكون الخطر منهم أفدح من ذلك الخطر الذى نخشاه من الأميين والجهلة».

فهنا دعوة إلى الوضوح فى الفهم والسلامة فى التفكير، لا على أساس حشد المعلومات، وانما على دعامة منهج واضح يعول فيه على النظرة العقلية النقية التى لا تشوبها شائبة من انفعال أو رغبة شخصية أو نزوة عارضة. وعلى ذلك نراه يذكر فى بعض أحاديثه: ينبغى للأستاذ الجامعى ألا يعلم طلابه الأفكار، بل أن يعلمهم كيف يفكرون، وألا يملى عليهم الآراء، بل أن يعنى بتوجيههم لكى يصلوا إلى بلورة الآراء السديدة بأنفسهم، وهنا يطيب نفساويهداً بالا إلى أن هؤلاء الطلاب سينضمون لا محالة إلى صفوة المفكرين الذين لا يعملون لنهضة أوطانهم فقط، بل يعملون أيضاً لنهضة الإنسانية جمعاء.

ومن أحاديثه كذلك ما ينصب على المنهج الذى ينبغى اتباعه فى تدريس الفلسفة على سبيل التخصص، فنراه يقول: «ينبغى علينا حين نتصدى لدراسة فيلسوف ما، ألا نتخذه مثلاً، وألا نتبع آراءه مهما يكن فيها من سحر وطلاوة، وانما لنا أن نقف منه موقف حياد، وأن نتغلغل فى أعماق أفكاره ثم نحكم بعد هذا على هذه الأفكار».

الفلسفة والعلوم الطبيعية

وتكوين «كانط» الفكرى غنى، فمنذ العام السادس عشر من عمره درس فلسفة «فولف» فى سنته الأولى بجامعة «كونيجسبرج» ومن عجب أنه سجل أسمه للتخصص فى دراسة أصول الدين، وكان يندر أن يتابع محاضرة واحدة فى هذه الدراسات، بل كان شغفه منصباً على الفلسفة والعلوم والطبيعة، وقد هيأ له اشتغاله بالتدريس كمعلم خاص أن يختلط بأسر عديدة من الأسر الألمانية الكبيرة، ومكنه ذلك من الاتصال بكثير من الشخصيات المعاصرة له.

وقد نمى هذا الاختلاط بالناس فهمه للطبيعة البشرية، وعمق خبراته

بالعلاقات الانسانية، فاذا أضفنا إلى ذلك حرصه منذ شبابه الباكر على جمع المعارف وتصنيف المعلومات التى تثرى ثقافته وتغذى عقله، للاحظنا أنه حين راح يمارس عمله أستاذا فى الجامعة تجلت فيه خصال الكاتب إلى جانب صفات المحاضر. فليس غريباً بعد هذا أن يجذب «كانط» إلى محاضراته العديدة من عشاق المعرفة.

وقد استهل «كانط» دعوته فى الفلسفة بضرورة النظر إلى التجربة نظرة فاحصة قبل التطلع إلى التأمل الخالص، ضرورة الف الإنسان للنظر الفلسفى قبل عكوفه على دراسة المذاهب المختلفة، وكانت وقفة «كانط» من الفلسفيات السابقة عليه وقفة تنذر بالقطعية وتؤذن بنظرته النقدية الجديدة.

وقد اقتنع «كانط» بأنه لا سبيل إلى تقديم الدراسات الفلسفية الا بالتحليل. وقد بسط خواطره فى هذا الصدد فيما كتب من رسائل ومقالات بين عامى ١٧٦٢ - ١٧٦٣. وفى تلك الفترة يظهر نفوذ كل من الفيلسوف الاسكتلندى «هيوم» والمفكر الفرنسى «روسو» على الفيلسوف الألمانى. ولا شك ان اهتمام «كانط» بالتحليل كدعامة لكل فكر فلسفى مرجعه ما طالعه من نقد لعلاقة العلية عند «هيوم». حتى انه يذكر أن هذا الفيلسوف قد أيقظه من سباته، ومشكلة العلية التى أثارها «هيوم» تتمثل فى تعذر الوصول إلى الروابط الضرورية التى يلزم أن تربط بين العلة والمعلوم، ما دام ليس فى الامكان أن يكون المعلول متضمنا فى العلة بحيث نستطيع أن نصل اليه بمجرد تحليلها.

وكان «هيوم» حريصاً على ابراز مكانة الاعتقاد، وهو الذى ينبغ فى الأساس من حيث يصدر الاحساس. هذا وكان «روسو» يشيد بيقظة الضمير ويتوق إلى ارساء العلاقة الانسانية على أساس الحرية والاخاء والمساومة. وكان من أثر ذلك أن انصب اهتمام «كانط» على ما عسى أن يكون من قيم أصيلة عزيزة الجانب لا يتوافر للسلوك الأخلاقى الأساس السليم الا بها ويتبنى على هذا أنه اذا كان لابد للمعلم من أسس راسخة فى المجال الطبيعى المادى، فلابد للأخلاق من أسس مماثلة فى المجال الانسانى. ويخلص «كانط» من هذا إلى أنه اذا كان العقل أن

يشرع للتجربة المادية ويضع أصولها، فعليه أيضاً النهوض بمهمة لا تقل خطراً وهى أن يرسى للتجربة الأخلاقية أصولها ويحدد لها غاياتها.

ان ما طالعه «كانط» «لهيوم» و «روسو» قد أثر فيه تأثيرا عميقا، وأدار فى رأسه مشكلات أصيلة تعد بحق الخامة الجوهرية لفلسفته. واذا كان «هيوم» قد وقف عند حد فسير الضرورة فى العلية بعادة فى الذهن يثبتها الاعتقاد، واذا كان «روسو» قد اكتفى بالدعوة العاطفية، فإن «كانط» بروحه المشرعة قد وضع بالعقل كل شئ فى موضعه. ولذلك كانت ثقافة «كانط» الواسعة واحاطته بالمذاهب السابقة على اختلافها وتنوعها، بمثابة الحافز الأساسى الذى حفزه إلى تقدير فلسفة متكاملة على أساس التحليل والنقد.

لذلك نجد أنه فى سنة ١٧٧٠ حين صار أستاذا للفلسفة بجامعة «كونيجسبرج»، نشر فى نفس العام رسالة باللغة اللاتينية بعنوان: «صورة العالم الحسى والعالم العقلى ومبادئهما». وفى هذه الرسالة ظهرت لأول مرة بعض الأفكار الأساسية فى فلسفته. فاذا لاحظنا أن «كانط» قد ذكر فى بعض كتاباته وأحاديثه أن سنة ١٧٦٩ تعد سنة حاسمة فى تفكيره، لتبينا أن هذه الرسالة تعتبر بحق أول اعلان للفلسفة الكانطية. ويقول يكانط» نفسه عنها انها سنة الالهام والضوء الغامر. ويمكننا أن نصوغ القاعدة الأساسية التى خطرت له آنذاك على النحو التالى: ان الصور والمبادئ التى تعد الشروط الضرورية لكى يمكن لشئ أن يكون موضوعا لمعرفتنا، يجب أن تكون صورا ومبادئ صالحة لكل تجربة. وطبق «كانط» هذه القاعدة على الزمان والمكان من حيث اعتبارهما صورتين لاحساسنا، أى من حيث كونهما الاطار العقلى الضرورى الذى بدونه لا يمكن للأحساس أن يكون احساسا. وتعد هذه الفكرة ايذاناً بالثورة الكانطية فى الفلسفة المناظرة للثورة الكوبرنيقية فى الفلك: فالأشياء تدور حول الذات العارفة دوران الكواكب حول الشمس.

العقل .. المشرع الأول

لا شك أن «كانط» كان بسبيل انضاج مذهبه الفلسفى وكان متأنياً فى ذلك غاية التأنى، ولهذا استغرق أحد عشر عاما فى تطبيقات هذه الفكرة الأولى. فبعد أن كان يتحدث عن الاحساس نراه يتحدث عن الظاهرة، وبعد أن كان ينظر إلى الظاهرة راح يتطلع إلى ما يحكمها. لقد اتضح لكانط أنه اذا كانت هناك شروط لابد من توافرها لكى تتم الظواهر على النحو الذى نشاهدها عليه، فإن هذه الشروط لا يمكن أن تستخلص من واقع هذه الظواهر، بل هى مستمدة من العقل البحت، واذا كانت هذه الشروط عقلية فإن العقل لازم لزوما تاما للتجربة. وليس فى وسعنا على هذا ونحن بصدد البحث فى امكان العلم أن نتوه فى زحمة هذه الظواهر، بينما نترك المشرع الأول لها الذى يضع شروطها وهو العقل. وعلى ذلك فالطريق إلى تعمق الظواهر لا يكون باستعراضها وتسجيل صفاتها، وانما يكون أولا وبالذات باحصاء شروطها أى بالنظر فى العقل.

ان المهمة الأساسية للفلسفة هى التحليل والنقد لا تبديد الجهد فى تحليل الظواهر ذاتها، بل ينقد العقل. وتجلت هذه الفكرة متبلورة فى عمدة كتبه «نقد العقل الخالص النظرى» الذى صدر سنة ١٧٨١. ويعتبر هذا السفر القيم برغم وعورة أسلوبه بحثاً تحليليا دقيقا لأصول المعرفة وغاياتها. وقد قيل بحق أن كل من يبحث فى نظرية المعرفة يبدأ بكتاب «لوك»: «مبحث فى الفهم الانسانى»، ثم لا يلبث أن يتجه إلى كتاب: «نقد العقل الخالص النظرى»، حيث تنفتح أمامه آفاق لم يكن فى وسع الفيلسوف الانجليزى ان يوجهه اليها، وان فى هذا الكتاب بحثا جادا عميقا عن الشروط الضرورية اللازمة لكل معرفة صحيحة، فضلاً عن تحديد لامكانات العقل وتوضيح لمعالم النطاق الذى يتعين عليه الالتزام به. فالكتاب من ثم دليل على قدرة العقل الفذة فى ميدانه، وعلى عجزه الذى لا مناص منه فى غير ميدانه. وليس معنى هذا أن «كانط» قد استطاع فى هذا

الكتاب أن يجد حلا نهائيا لمشكلة المعرفة،فإن هذه المشكلة يثير حلها ذاته مشكلات أخرى.

وما كاد «كانط» يحس بما فى كتابه من مشقة واستعصاء، حتى أخرج بعد عامين كتابا جمع فيه باختصار وفى وضوح الأفكار الأساسية وهو: «التمهيدات إلى كل ميتافيزيقا نبغى أن تكون علما» وقد صدر سنة ١٧٨٣. ولم يكد «كانط» ينتهى من عرض أسس فلسفته النظرية، حتى دفع إلى الناس بكتابه: «نقد العقل الخالص العملى» الذى صدر سنة ١٧٨٨. وقد بسط فيه تصوراته الأخلاقية.

أسس الأخلاق عند كانط

لقد تخلى «كانط» من البداية عن ذلك المنهج النفسانى الذى كان متبعا فى كثير من المذاهب الخلاقية، وبخاصة عند فلاسفة الحس الأخلاقى الاسكتلنديين: «هاتسسون» و «شافتسبرى» و «هيوم». فلقد ارتأى «كانط» أن ميدان الأخلاق لا يمكن أن يكون ميدانا لتحليل العواطف البشرية، والا كانت المبادئ الأخلاقية مبادئ متنازعا عليها، متجاذبة بين أطراف الانفعالات، خاضعة للميول والرغبات.وانما للأخلاق كما للمعرفة أسس ميتافيزيقية راسخة. ومعنى هذا أن للأخلاق أصولا عامة شاملة صادقة فى كل زمان ومكان تهيمن على العمل الأخلاقى وتصبغه بصبغة الدوام والرسوخ والاستقرار. وعلى هذا فمهمة «كانط» فى كتابه «نقد العقل النظرى» توازى مهمته فى كتابه «نقد العقل الخالص النظرى». فكما أنه يحلل فى أحدهما أصل المعرفة البشرية ويردها إلى قاعد عقلية ثابتة، فهو فى الآخر يحلل الأصول الأخلاقية ويردها إلى قواعدها العقلية الثابتة. وكذلك كان شأنه فى كتاب: «أسس ميتافيزيقا الأخلاق» الذى صدر كان شأنه فى كتاب: «أسس ميتافيزيقا الأخلاق» الذى صدر سنة ١٧٨٥ قبل «نقد العقل العملى» بثلاث سنوات. وكما يمكننا أن نقول ان كتاب «التمهيدات إلى كل ميتافيزيقا مستقبلة..» هو بمثابة ملخص لـ «نقد العقل النظرى» فبوسعنا القول ان كتاب «أسس ميتافيزيقيا الأخلاق» يعتبر موجزا عاما لكتاب «نقد العقل

العملى» مع فارق واضح وهو أن «التمهيدات» صدر بعد «نقد العقل النظرى» بغير تبسيطه وتخفيف وطأته على الأفهام، بينما «أسس ميتافيزيقا الأخلاق» صدر قبل «نقد العقل العملى» لتهيئة الأذهان له واعدادها لحسن قبوله. ويمضى «كانط» فى مهمته فيصدر له كتاب «نقد ملكة الحكم» سنة ١٧٩٠ وفيه دراسة فاحصة لمشكلات الجمال يحسم فيها بالطريقة التى حسم بها فى مشكلات المعرفة والأخلاق.وفى فلسفة «كانط» خيط يصل بين جوانبها المختلفة، كما يصل الخيط بين حبات العقد. وقد بينا من قبل أن الخطأ الظن بأن «كانط» كان بمعزل عن الحياة الانسانية العامة، وان بدت حياته الخاصة منحصرة فى دائرة صارمة من العكوف على البحث واعداد المحاضرات والتأليف. فلم يكن يفوته وهو يعيش فى بروسيا الشرقية، أن يلحظ بعين الاهتمام كل ما يدور حوله فى عالم الطبيعة وعالم الإنسان. ولئن لم ينجذب نحو الترحال كما انجذب «روسو»، فإن هوايته الأثيرة عنده كانت مطالعة قصص الرحلات والكتب التى تتناوب ظواهر البيئة الجغرافية ومعالم البيئة العمرانية. وكان يرى أن مطالعته لهذه الكتب تفيده فائدة جمة فى مهمته التربوية والعلمية التى ينهض بها الجامعة. لقد كان يتتبع بشغف تقلبات الأحداث السياسية تتبعه لتطورات العلوم الطبيعية. وكانت تلهب خياله ثورة أمريكا الشمالية والثورة الفرنسية حيث كان يرى فى مثل تلك الثورات، ايذانا بأن الإنسانية انما تخطو خطوات إلى الأمام نحو التفاهم الكامل بين الناس، بأرساء القيم الأخلاقية النقية المنبثقة من الارادة الخيرة. وكثيرا ما كان يدير المناقشات مع طلابه وأصدقائه فى غير أوقات الدرس حول أحدث المكتشفات فى ميدان العلم، وحول أهم المشكلات فى مجال السياسة. ولا ريب أن مؤلفاته الزاخرة بالتصورات الجديدة قد حبته بالشهرة والمجد، حتى ان حشودا من المثقفين وطلاب المعرفة كانوا يفدون إلى «كوينجسبرج» لرؤيته واستشارته فى مشكلات متنوعة.

فلسفة كانط

وربما كانت أفضل طريقة نتناوب بها لب مذهب كانط الفلسفى - وان لم تكن هى الطريقة الوحيدة - هى أن نتناوله عن طريق تصنيفه المزدوج للأحكام، ففى رأيه أن كل حكم (١) اما أن يكون تحليليا أى تركيبيا، (٢) واما يكون «قبليا» أو «بعديا». والحكم يكون تحليليا اذا نتج عن سلبه استحالة منطقية مثل «الوالد ذكر» و «الشئ الأخضر ملون» فهذه أحكام تحليلية لأننا اذا قلنا: «الوالد ليس ذكرا» و «الشئ الأخضر ليس ملونا» كان كل حكم من هذين الحكمين محالا من الوجهة المنطقية.

وتتضح حقيقة كل حكم من الأحكام التحليلية من مجرد تحليل الحدود التى يتألف منها. والحكم الذى «لا يكون» تحليليا يكون تركيبيا، والأحكام التركيبية هى جميع الأحكام التى تطلق على وقائع التجربة وخاصة تلك التى تقرر قوانين تجريبية عن الطبيعة مثل «النحاس موصل للكهرباء» وهذه الأحكام - سواء أكانت صادقة أم كاذبة - يمكن بغير شك انكارها دون الوقوع فى تناقض. ويكون الحكم «قبلياً» اذا كان «مستقلا عن كل خبرة بل مستقلاً عن انطباعات الحواس جميعاً»، وهكذا تكون عبارة «للإنسان روح خالدة» - التى لا يمكن تأييدها أو تكذيبها عن طريق الخبرة - حكما «قبلياً» .. هذا ان كانت ذات معنى. وجميع الأحكام التحليلية «قبلية»، ويمكن اظهار صدقها بل وضرورها المنطقية دون الالتجاء إلى التجربة أو الملاحظة، وذلك بمجرد تحليل حدودها.

فاذا جمعنا هذين التصنيفين ولاحظنا أن كل الأحكام التحليلية لابد أن تكون «قبلية» أيضاً، رأينا أن هناك فئات ثلاثا من الأحكام تمنع كل منها الأخريين ولكنها معا تكون جامعة. وهذه الفئات هى: (١) التحليلية (والقبلية)، (٢) التركيبية البعدية، (٣) التركيبية القبلية. وجدي بالذكر هنا أن ليبنتز يعتبر الأحكام فى نظره يمكن أن تحلل حدودها من الوجهة النظرية، حتى يتضح ان الرابطة بينها ضرورية من الوجهة المنطقية. ويذهب هيوم وأتباعه المحدثون إلى أن الأحكام

جميعا اما أن تكون تحليلية (بالتالى قبلية) أو تركيبية بعدية ولا وجود لأحكام تركيبية قبلية.

أما كانط فيعتقد غير ذلك، اذ يعثر على أحكام تركيبية قبلية (١) فى الرياضيات والعلم فى عصره (٢) فى الأخلاق. ومن أمثلة ذلك، هذا الحكم: «لكل حادثة سبب» اذ يمكن انكاره دون الوقوع فى استحالة منطقية، ومع ذلك فإن عموميته الكاملة شئ لا يمكن تأييده أو تكذيبه بالخبرة الحسية (فإذا لم نعرف سببا لحادثة ما، فاننا نستطيع دائما أن نمضى فى البحث عنه، لكننا لو اعتقدنا من ناحية أخرى أن لكل الحوادث المعروفة أسبابا فقد تكون هناك حوادث أخرى بغير أسباب. والحق أن الشكل السائد لميكانيكا الكم فى يومنا هذا قد وفق فى رفض مبدأ السببية).

وجود الأحكام التركيبية القبلية يفرض اذن واجبين فلسفيين: الأول هو عرض هذه الأحكام عرضا واضحا وتاما أن أمكن ذلك. والثانى هو البرهنة لا على أن هذه الأحكام تصدر فى سياق أى بحث نظرى وكذلك حيثما القيت واجبات أخلاقية على عاتق شخص ما فحسب، بل البرهنة كذلك على أن للإنسان مبرراته حين يصدر تلك الأحكام. ويصوغ كانط هذه المشكلة بأن يسأل: «كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة؟» وهذا هو السؤال الرئيسى فى الفلسفة النقدية .. وقد تطلبت الاجابة عنه نقدا لكل المعرفة النظرية والأخلاقية، كما تطلبت تمحيصا لدعوى الميتافيزيقا بأنها تعطى نعرفة عما هو مفارق للطبيعة، أى انها تعطى معرفة عما يجاوز نطاق كل خبرة ممكنة.

*****

لم يكن أوغست كانط شبه مجنون، وانما قضى اكثر عمره مجنونا فعلاً، وكان يضع مؤلفاته الشهيرة فى فترات الصفاء. ومن غريب أطواره حتى فى فترات الصفاء انه كان يكتب رسائل لا تقرأ، لتنافر معانيها وعدم انسجام تراكيبها. وكثيرا ما كان يغادر منزله ولا يعود إلا بعد أيام ولا يعرف هو ولا غيره أين كان، وكان خلال تناول الطعام يطعن المائدة بالسكين بشدة لغير ما سبب.

يمكن تصنيف مرض كانط فى خانة القلق الهستيرى. فالقلق يكاد أن يكون مادة مشتركة فى كافة الأعراض العصابية تقريباً. إذ أنه توجد علاقة بين الاستجابة العادية بالخوف وأى موقف خطر خارجى. كما يوجد رد فعل بالقلق لأى خطر داخلى أو نفسى. وقد استطاع فرويد أن يميز بوضوح داخل مجموعة الأمراض النفسية، التى أطلق عليها بعض المعالجين النفسيين اسم نورستانيا والبعض الآخر اسم سيكاستانيا، بين ما اسماه أمراض العصاب الحاضرة أو الراهنة وأمراض العصاب النفسية أو التحويلية: الأولى ترجع إلى عوامل اسمية معينة فى مجرى الحياة الجنسية، والثانية ترجع إلى عوامل نفسية انقطعت من مجرى الحياة ولكن يمكن الرجوع إليها فى الخبرات الانفعالية الطفلية.

والقلق الهستيرى هو غير عصاب القلق، والانهيار العصبى أو الهجاس السوداوى من ناحية وغير الهستيريا التحويلية. والهستيريا الاندفاعية التى يندفع أصحابها فى نوبات انفعالية من الضحك أو البكاء - إذ أن الكثيرين من الكتاب يرون أن الهستيريا - وبالأحرى القلق والخوف - قلما توجد فى حالة تجرد - أى كمرض قائم بذاته، بل إنها تتداخل أو تتسبب فى حدوث الكثير من الأمراض الأخرى.

إن هستيريا القلق تتميز بأنها نمط من الاستجابة البدائية يكاد أكثر أنواع العصاب شيوعا فى الطفولة، وأهم أعراضه نوع معين من الخوف الناشئ عن أشياء ومواقف مغرية للطفل، ولكنها محظورة عليه أو مهددة بالعقاب. والميكانيزم الدفاعى لهستيريا القلق إما أن يكون عن طريق القلق ذاته الذى يحذر الطفل أو يحذر الأنا عند الطفل كى يتجنب الموقف، وإما عن طريق كبت الدافع وتنمية بديل أو بدائل للخوف الاصلى، أو باسقاط خطر داخلى غريزى على الخطر الخاجى الادراكى، وهذا هو اكثر الأنواع شيوعاً من حيث الابدال فى هستيريا القلق، وأخيراً بالنكوص إلى الطفولة للتخلص من رغبات عقدة أوديبوس.

*****



لـــوك

الفيلسوف السياسى.. الثائر دائماً!!

جون لوك

حياة الفيلسوف

ولد جون لوك فى رنجون بمقاطعة سومرست فى ٢٩ أغسطس سنة ١٦٣٢م، بانجلترا أثناء حكم الملك شارل الأول، وكان أبوه محاميا من جماعة البيوريتان (المتطهرين). اشترك فى صفوف البرلمان حين اندلعت الحرب الأهلية ولم يكن الابن الصغير جون لوك يتجاوز العاشرة من عمره - فكانت هذه البيئة المكافحة التى نشأ فيها لوك، من أكبر العوامل التى أدت إلى تفتح ذهنه على بعض الأفكار السياسية السائدة فى ذلك الوقت، وتوجيه نظره إلى الاشتغال بالسياسة السائدة فى ذلك الوقت، وتوجيه نظره إلى الاشتغال بالسياسة فيما بعد بحيث جعلت منه بعد ذلك فيلسوف الحرية لا فى انجلترا وحدها بل فى أروبا كذلك.

وقضى لوك فترة طفولته فى سومرست حتى بلغ الرابعة عشرة - ثم أرسل إلى مدرسة وستمنستر فى سنة ١٧٤٦ - واستمر بها حتى التحق بجامعة أكسفورد فى سنة ١٦٥٢.

ومما هو جدير بالذكر أن لوك لم يتأثر كثيراً بالمناهج التى كان يدرسها فى وستمنستر، والتى كانت تتلخص فى دراسة القواعد والترجمة المتعلقة باللغتين اليونانية واللاتينية، كما أنه لم يحب ذلك النظام القاسى الذى كان يسود المدارس الانجليزية فى ذلك الوقت وراح ينتقده ويحاول أن يضع أسسا جديدة لتربية تقوم على شئ من الحرية والمرونة. وقد وصف لوك تلك الطريقة القديمة ومقترحاته لتربية أخرى جديدة فى كتابه (أفكار عن التربية) عام ١٦٩٣.

كما خاب ظنه كذلك حين التحق بجامعة أكسفورد لدراسة الفلسفة، اذ

وجدها خليطا من فلسفة القرون الوسطى والفلسفة الأرسطية - ممتزجة ببعض العبارات الغامضة والمشكلات المبهمة - ومع ذلك، فقد استمر فى دراسته للفلسفة، ولم يكن مرجع اهتمامه بها إلى دراسته الأكاديمية فى أكسفورد - انما إلى قراءاته الشخصية وخاصة لديكارت - الذى وجد فى كتاباته الواضحة وأفكاره السهلة الدقيقة نوعا من الثورة على تلك الفلسفة المدرسية القديمة، التى لم تكن لتشبع العقل أو ترضية، والتى جعلته يوقن أن الفلسفة يمكن أن تكون شيئا أكثر من مجرد التحدث بألفاظ ضخمة براقة أو عبارات صعبة لا يمكن فهمها.

واستمر فى دراسته الفلسفية فى أكسفورد. مع قراءاته الخاصة مدة أربع سنوات، حصل بعدها على درجة البكالوريوس عام ١٦٥٦، ثم على درجة الماجستير فى الفلسفة بعدها بعامين ١٦٥٨ ثم عين عام ١٦٦٠ محاضرا فى الفلسفة اليونانية وفلسفة الأخلاق فى مدرسة الكنيسة بأكسفورد، مع استمراره فى متابعة دراسته للمنطق الأرسطى وللميتافيزيقا، متزودا بدراسة التاريخ والفلك والطبيعة وبعض اللغات.

وفى تلك الأثناء اجتذبت العلوم الطبيعية انتباهه واهتمامه ويبدو ذلك الاهتمام من صداقته لأكبر علماء عصره مثل اسحق نيوتن وبويل.

كما بذل لوك مجهودا كبيرا فى دراسة الطب واستطاع أن يحصل على درجة علمية من أكسفورد عام ١٦٧٥، تؤهله لممارسة الطب عمليا وبدأ يمارسه فعلا من حين لآخر - إلا إنه لم يشتغل به مهنة أساسية ولا بطريقة منتظمة أو دائمة.

ومما يروى عنه أنه أنقذ حياة صديقه لورد شافتسبرى بواسطة عملية جراحية أجراها له. وكان هدفه من دراسة الطب هو الرغبة فى تطبيق الطريقة التى كان يستخدمها كثير من العلماء أمثال جاليليو ونيوتن وبويل فى العلوم الطبيعية على الأمراض التى تصيب الإنسان، الا أن لوك استطاع أن يتبين اتجاهه الحقيقى الذى لم يكن الدين ولا الطب ولا السياسة بل الفلسفة.

هذا عن حياة لوك الدراسية والعلمية، أما عن حياته العملية فكانت خصبة

فيها كثير من النشاط والتغيير - حياة ديناميكية فعالة لم يكتف فيها بتعلم الفلسفة وبدراسة الطب ومزاولته من حين لآخر، بل كانت له فى الميادين الاقتصادية والتربوية جهود ضخمة تبلورت فى شكل مؤلفات قيمة تشرح رأيه وتعبر عن وجهة نظره الاصلاحية، فيما يتعلق بمشكلاتها.

ويرجع سبب اهتمام لوك بالسياسة والتنظيم الاجتماعى إلى ظروف حياته التى نشأ فيها.

ثم كانت الفرصة التى أتيحت له بعد ذلك للاشتغال بالسياسة عمليا حين أرسل سكرتيرا لبعثة دبلوماسية، تحت رئاسة سير والتر فيم عام ١٦٦٥ إلى حاكم براندنبرج يعرضون عليه التحالف معهم أو الوقوف على الحياد فى حرب هولندا، فابتدأ وعيه يتفتح على أفكار جديدة لم تكن له بها خبرة من قبل.

إلا ان التأثير المباشر الذى أثر فى لوك وجعله يشعر بالحاجة الى تكوين أفكار واضحة واتجاهات محددة ومفهومات أساسية لتنظيم اجتماعى وسياسى جديد يقوم على الحرية- كان يرجع الى صحبته وعمله مع لورد أشلى- الذى عرف بعد ذلك باسم لورد شافتسبرى، والذى كانت له مساهمة كبيرة فى ميادين السياسة والأخلاق- وكان يعتبر من أكثر الأشخاص تأثيرا فى الحياة السياسية فى انجلترا، أثناء حكم شارل الثانى. وذلك لكراهيته العميقة للاستبداد بكل أنواعه سياسيا كان أم فكريا أم دينيا، وقد انتقلت كراهيته تلك بدورها الى صديقه لوك الذى أصبح بمثابة المدافع عن الحريات فى المجتمع الانجليزى.

الا ان الدفاع عن الحرية لم يكن أمرا هينا فى ذلك العصر، اذ لم تكن مناصرة الحرية، اذ ذاك، تفسر الا بمعنى الاباحية فى السياسة والدين وكان حتما على أشياعها أن يلاقوا اثنين كلاهما مر : فاما النفى والتشريد، واما القتل، ولكن لوك استطاع أن يظل فى انجلترا زمنا طويلا رغم مبادئه الحرة بفضل حماية ومساعدة صديقه لورد شافتسبرى.

ثم سافر لوك الى فرنسا عام ١٦٧٥ حين بدأت صحته تسوء وظل يتردد بين مونبلييه وباريس وبقية أجزاء فرنسا مدة أربع سنوات، قابل خلالها كثيرا من

الأصدقاء والفلاسفة مثل مالبرانش وبيرنيه، أحدة تلامذة الفيلسوف الفرنسى جسندى وتوماس هيربرن الذى أصبح فيما بعد ايرل أوف بمبروك والذى أهدى اليه كتابه «مقالة فى العقل البشرى».

ثم رجع الى انجلترا وظل يمارس نشاطه الفكرى والسياسى، بمصاحبة صديقه لورد شافتسبرى الذى قبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة العظمى ففر هارباً الى هولندا حيث مات هناك.

فى تلك الأثناء أحس لوك بأن موقفه فى انجلترا أصبح مهددا؛ لأن الشخص الذى كان يعتمد على مساعدته وحمايته اتهم بالخيانة ومات- فآثر أن يتبع نفس الطريق الذى سار فيه صديقه من قبل وهرب الى هولندا عام ١٦٨٣، التى كان يسودها فى ذلك الوقت نوع من التسامح والحرية بالنسبة لبقية أجزاء أوربا.

الا أن هذه الحرب لم تحقق له الهدوء والاستقرار الذى كان ينشده، خاصة بعد ان وضعت الحكومة الانجليزية اسمه فى القائمة السوداء وطلبت تسليمه أو طرده- فاضطر الى التستر والتخفى تحت اسم مستعار هو دكتور فان درلندن.

ولم يستمر هذا التخفى طويلا ؛ لأن أصدقاءه فى انجلترا بذلوا أقصى جهدهم لمساعدته وطلبوا عفو الملك جيمس الثانى عنه، الذى وافق فعلا. ألا انه رفض هذا العفو وأرسل إلى صديقه ايرل أوف بمبروك، مبينا له أسباب ذلك الرفض، قائلا أن العفو لا يصدر إلا عن جريمة بينما هو لم يرتكب جريمة - لأن الدفاع عن الحرية لا يعتبر كذلك، وفضل البقاء فى هولندا، حتى يتمكن كذلك من مواصلة كتاباته التى لم يكن قد ظهر منها شئ له أهمية كبيرة حتى ذلك الوقت، ١٦٨٦، الذى كان قد بلغ فيه الرابعة والخمسين من عمره.

وفى تلك الأثناء ظهرت بوادر الثورة ضد الملك جيمس الثانى آخر ملوك أسرة ستيوارت الاستبدادية الذى كان مكروها من الشعب، لاعلانه مذهبه الكاثوليكى صراحة ولتمسكه بنظرية حق الملوك المقدس فى الحكم.

فبدأ لوك نشاطه وانتقل إلى روتردام حيث كان يقيم وليم أورانج - الذى أبحر عام ١٦٨٨م إلى انجلترا واعتلى هو وزوجته العرش الذى تركه جيمس الثانى وهرب إلى فرنسا. ونجحت الثورة الانجليزية وتحقق حلم جون لوك بزوال الطغيان وأصبح الطريق أمامه ممهدا للعودة إلى الوطن، فرجع اليه وهو آسف لفراقه هولندا وأصدقاءه فيها.

وبفوز الأحرار فى انجلترا بالنصر والغلبة، وباعتلاء وليم أورانج الحكم الذى عرف بعد ذلك باسم وليم الثالث - أصبح للوك مركز مرموق فى انجلترا، باعتباره فيلسوف الثورة والأب الروحى لها والمبشر بمبادئها، وقد عرض عليه الملك وليم ان يكون سفيرا لانجلترا لدى حاكم براندنبرج أو فى بلاط فينا. ولكنه اعتذر عن قبوله ذلك المنصب لسوء حالته الصحية وآثر قبوله منصب آخر هو مستشار التجارة والمستعمرات فى انجلترا حتى عام ١٦٩١، حين اعتزل الخدمة وأوى إلى منزل أصدقائه أسرة ما شام.

ثم عاد فقبل مرة أخرى عام ١٦٩٦ نفس المنصب السابق لمدة أربع سنوات، اضطر بعدها حين ساءت صحته إلى الاعتكاف فى الريف الهادئ، فى صحبة آل ما شام حتى توفى فى ٢٨ أكتوبر عام ١٧٠٤م.

كانت هذه حياة لوك الفيلسوف السياسى الثائر، أما عن لوك الانسان فكان شخصا مخلصا لمبادئه ومتمسكا بها مدافعا عنها عاملا على تنفيذها فى شئ من التصميم الواعى وفى شئ من الحزم والتعقل، متمسكا بقيم خلقية عالية ومفهومات انسانية واسعة على درجة كبيرة من الذكاء الذى ساعده على تفهم مجتمعه وألوان الاستبداد والضغوط الموجودة فيه وعلى معرفة الاتجاهات التطورية الجديدة فى المجتمع، وبلورة هذه الاتجاهات فى مؤلفاته المتعددة وعلى وضع مقترحات سريعة فعالة؛ لمعالجة تلك الأوضاع ومحاولة تغييرها بشئ من السهولة والمرونة.

وكان لوك مشغوفا بالقراءة لدرجة أن البعض يميل إلى الاعتقاد بأنه كان من أكثر رجال عصره ثقافة وعلما، إلا أنه كان مع ذلك متواضعا لا يحب الظهور - يكره تماماً من يتشدق بالفلسفة بدون فهم أو من يجد لذة فى انتقاء المذاهب

الغريبة أو الغامضة فيها، بغية اجتذاب انتباه الناس. كما كانت للوك شخصية قوية صهرتها خبراته وتجاربه المتعددة، بحيث أثرت فيمن حوله من الأفراد والأصدقاء حتى لقد شهد له جميع معاصريه بالاخلاص للحق والتفانى فى سبيل الحرية، كما عرف بالاعتدال والحكمة.

وليس أدل على حبه للحق واخلاصه له من رسائله التى كان يراسلها إلى أصدقائه. فذكر مثلا فى خطاب له إلى مولينو أن ما جعل من كتاباته ومؤلفاته شيئا ذا قيمة، هو أنه لم يكتب لأى غرض آخر سوى الحق، كما ذكر فى خطاب له إلى كولينز أن الشئ الوحيد الذى يمكنه أن يفخر به هو انه يحب الحق بكل اخلاص ويبحث عنه دائماً، سواء أكان ذلك يسر البعض أم لا يسرهم

الا أن هذا لا يدل على أنه كان بعيدا عن الناس غير مهتم بهم أو مبال بمشاعرهم، لأنه كان على العكس يحب الناس، الا أن حبه للحق كان أكثر - ويرجع ذلك إلى أنه بطبيعته متقد العاطفة ولكن بلا انطلاق؛ لأنه يعلم - كما يروى بيير كوست - كيف يسيطر على احساساته ويضبط عواطفه.

وتتجلى هذه الاحساسات مع أصدقائه من الأطفال والبالغين على حد سواء فالأطفال كانوا يعتبرونه بمثابة الوالد الثالث لهم (أى بعد الوالدين)، أما أصدقاؤه الكبار فكانوا يعتزون بصداقته.

وأكثر ما يظهر تقدير لوك لعاطفة الصداقة أن أغلب مؤلفاته كانت اما بوحى من مناقشاته مع الأصدقاء، أو مهداة اليهم. فكتابه (بحث فى العقل الانسانى) كان نتيجة لمناقشاته لبعض الزملاء فى احدى الأمسيات وخطابه عن التسامح كان مرسلا إلى صديقه ليمبورخ - وكتابه «أفكار عن التربية» كان فى حقيقته خطابات مرسلة إلى صديقه كلارك - وكما يروى البعض أن نقده للكتاب المقدس كان نتيجة لمناقشاته المتعددة مع السيدة ماشام.

وكان يغلب عليه الحرص والتسامح والصبر والهدوء - يعتقد الى حد كبير يصل إلى درجة الايمان بالعقل الانسانى ويكره كراهية متأصلة كل استبداد فى أية صورة من صورة - متشيعا مناصرا للحرية فى كل ميادينها وبكل أشكالها.

أهميته فى حركة التنوير:

اذا كان مؤرخو الفلسفة يعتبرون كتاب (مبحث فى العقل الانسانى) للوك بمثابة أول محاولة منظمة لفهم المعرفة البشرية وتحليلها للفكر الانسانى وعملياته وطبيعته - فلنا الحق كذلك فى القول بأن أهمية لوك لم تكن مقصورة فقط على ميدان الفلسفة، بل تعدته وانتقلت بطريقة طبيعية إلى ميدان السياسة والتنظيم الاجتماعى.

فحركة التحرير الكبرى التى سادت أوروبا فى القرن الثامن عشر - لم تكن سوى امتداد طبيعى لفلسفة لوك - تلك الفلسفة التى كانت تقوم على احترام القيم الانسانية والحرية الفردية، سواء فى الدين أم الفكر أم السياسة وتنادى بتحرير الفرد الذى كان قد انطمست شخصيته، فى ظل من استبداد الكنيسة وتلاشت حقوقه وانصهرت فى نار من طغيان الملوك وتعصبهم فأصبحت حياته كلها واجبات بلا حقوق.

فقد كان لوك نصيرا لسيادة الشعوب، ولما كانت هذه الشعوب مكفولة من أفراد، فإنه من الواجب أن يستمتع كل فرد منهم بكافة حقوقه وأهمها حق الحياة وحق الملكية الخاصة وحق الحرية. وهذه حقوق تقوم على الانتاج كما يقول لوك وليست منحة من الحكام أو الملوك. وكل فلسفة تنادى بالفرد تقتضى الحرية؛ لأن الحرية هى الشخصية والشخصية هى أساس الفردية.

هذه الصرخة المدوية التى أطلقها لوك فى انجلترا فى القرن السابع عشر تجاوبت أصداؤها فى أوروبا كلها - وكان لها تأثير مباشر فى نجاح الحركات التحريرية التى قامت بها الملايين المكافحة والشعوب، التى كانت تسخر لخدمة الاستغلال والاقطاع الاجتماعى والاقتصادى والدينى.

فكان لها تأثير مباشر مثلا فى نجاح الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر، وذلك نتيجة لتأثير آراء لوك فى فلاسفة التحرير الفرنسيين مثل فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو.

فقد تبنى فولتير أفكار لوك عن الحرية والتسامح وظل طوال حياته يهاجم كل تعصب وخاصة الدينى منه وينادى بالحرية.

بينما أخذ مونتسكيو عن لوك نظريته فى فصل السلطات وأخذ روسو عن نظرية العقد الاجتماعى.

الا أن أهمية لوك وتأثيره السياسى لم يقتصر على فرنسا ولا أوروبا فقط، بل تعدتها كذلك إلى أمريكا - اذ أنه يعتبر مصدر التفكير السياسى الذى ساد الولايات المتحدة ابان ثورتها - وهو الفيلسوف الذى أخذ عنه قادة الثورة الأمريكية أفكاره حين وضع وثيقة الاستقلال.

فحين نادت الثورة الأمريكية بحرية الفرد الشخصية، انما كانت فى الواقع تردد نفس أنغام الحرية التى طالما رددها لوك وثار من أجلها، والتى تبلورت بعد ذلك فى المناداة بالديمقراطية باسم الحرية والمساواة وظهرت فى شكل مقالتيه فى الحكومة المدنية، والتى ظهرت فى آراء جيفرسون وتوماس بيّن وفى نص وثيقة الاستقلال الأمريكية تلك الوثيقة التى لم يكن مضمونها من ابتكار واضعها - بل كانت مجرد تعبير عن آراء جون لوك وذلك بنص اعتراف جيفرسون أحد المشتركين فى اعلانها حين قال انه لم يشعر بضرورة تدعو إلى ابتكار أفكار جديدة لم يسبق اليها.

أهميته فى تاريخ الفلسفة:

ترجع أهمية لوك فى تاريخ الفلسفة إلى عدة اعتبارات أهمها:

١ ـ انه يعتبر أول من وضع مشكلة المعرفة بمعناها المعروف لدينا الآن تقريباً موضع البحث والتعميق - وليس هذا معناه ان هذه المشكلة لم تكن معروفة فى الفلسفة من قبل، انما معناه اننا لا نكاد نلحظ قبل لوك أى محاولة جدية واضحة لدراسة مسائل المعرفة دراسة مستقلة منظمة.

٢ ـ وانه وجه أنظار الناس فى عصره، لكى يفكروا بطريقة أكثر تعمقاً فى المشكلات التى كانوا يتناولونها من قبل بطريقة سطحية وخاصة مشكلات المعرفة من حيث أصلها ومداها ودرجة اليقين بها. وأنه بين أوجه النقص فى طريقة التفكير القديمة التى كانت تدرس وتعالج بها المشكلات الفلسفية وتساءل عن مدى تقبل الناس لبعض الأحكام كما لو كانت شيئا مسلما بصحته مثل المبادئ الفطرية التى كانت فى نظرهم واضحة بذاتها لا تحتاج إلى دليل أو برهان على صحتها.

٣ ـ وأنه قدم لمعاصريه دراسات مهمة وقيمة وخاصة فى التفرقة بين الصفات الأولية والصفات الثانوية وتحليل فكرة الجوهر - وتحليل اللغة ومعانى الكلمات.

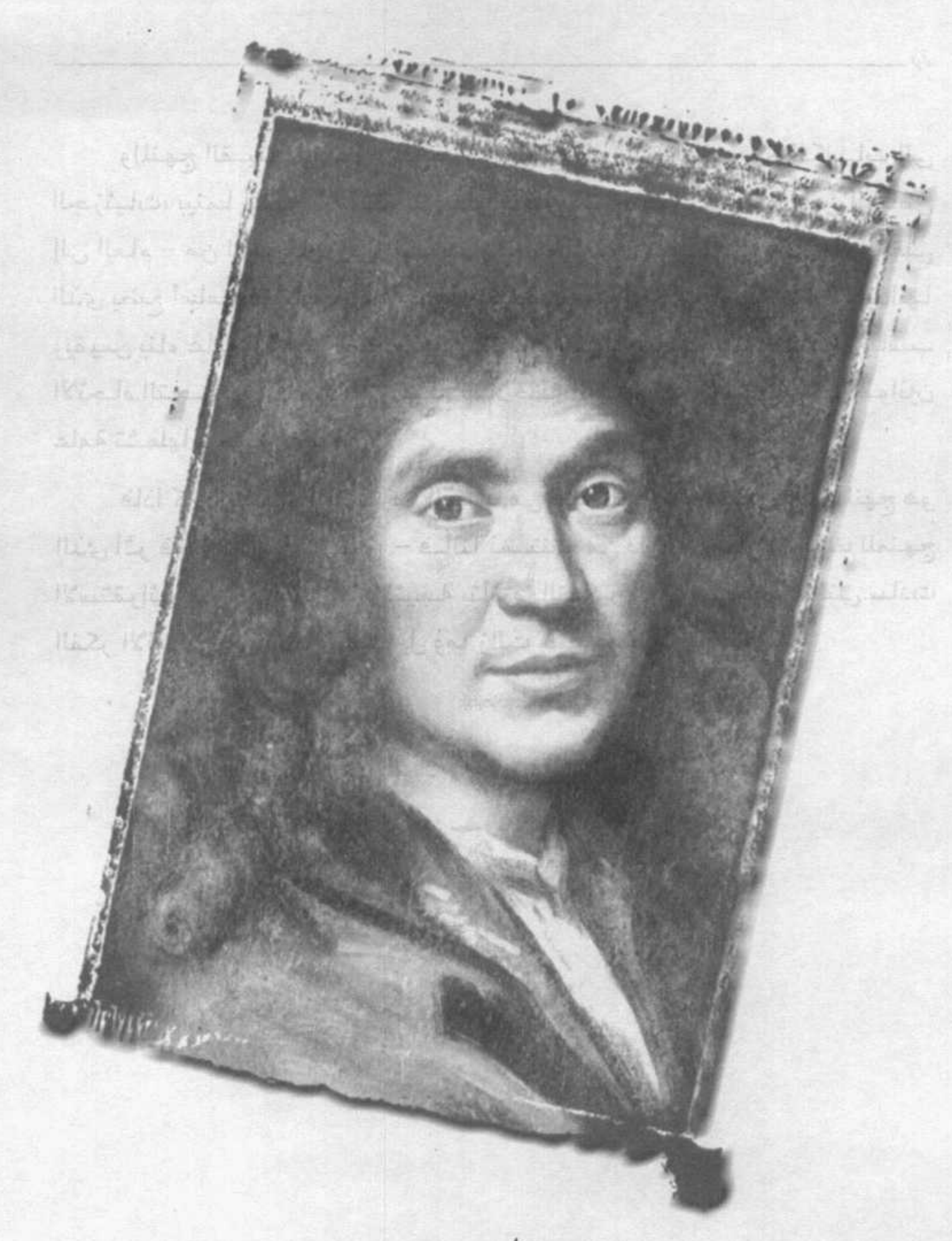
٤ ـ وانه طبق الاتجاه التجريبى فى الفلسفة على بحثه فى نظرية المعرفة بالذات.

٥ ـ كما ترجع أهميته كذلك فى تاريخ الفلسفة إلى المنهج الذى استخدمه فى بحثه لنظرية المعرفة، اذ أنه اضطر لاتجاهه التجريبى، فلم يستخدم فى أبحاثه الفلسفية منهجا آخر غير المنهج القياسى الذى كان سائدا فى الفلسفة القديمة، فحاول أن يطبق فى كتابه «مقالة فى العقل البشرى»، المنهج الاستقرائى على أصل المعرفة الانسانية. وكان هذا الاتجاه منه جديدا؛ لأن المنهج الذى كان متبعا منذ القدم فى الفلسفة كان منهجا استنباطيا - ثم بدأ تطبيق المنهج الرياضى فى الفلسفة منذ ديكارت.

والمنهج القياسى منهج هابط من العام إلى الخاص - من الكليات إلى الجزئيات، بينما المنهج الاستقرائى على عكس المنهج صاعد يصعد من الخاص إلى العام - من الجزئيات إلى الكليات لذلك، فالمنهج الأول يناسب الاتجاه العقلى الذى يضع أمامنا قضايا عامة مسلما بصحتها، أو أحكاما أولية صادقة بذاتها ويقيس بناء عليها كل ما يصادفه من قضايا جزئية، بينما المنهج الثانى يناسب الاتجاه التجريبى العلمى الذى يبدأ بملاحظة الجزئيات ويستنتج منها قوانين عامة تشملها وتنطبق عليها.

فاذا كان التفكير العلمى هو السائد فى ذلك الوقت، واذا كان ذلك المنهج هو الذى أثر فيه تأثيرا كبيرا - فأننا نستنتج من ذلك أن تطبيق لوك للمنهج الاستقرائى فى الفلسفة، كان نتيجة بتأثره بالتفكير العلمى وصبغته التى سادت الفكر الانسانى فى ذلك الوقت، بل وما زالت حتى عصرنا الحاضر.

*****



موليير

مبتكر الفن الكوميدى.. وحياة زوجية تعسة!!

موليير

من المؤكد أن القرن السابع عشر هو العصر الذى حصل فيه الغرب على تراثه المسرحى الحقيقى، فقد افتتحه شكسبير واختتمه موليير ومما يدعو إلى العجب ان ثمة مقارنات تدعو إلى التقريب بين هذين العملاقين من عمالقة المسرح. كما انه فضلا عن أوجه الشبه بينهما فان الأسطورة والخرافة تثيران بالنسبة لهما تساؤلات متشابهة، ومن جهة أخرى فبينما يشكك بعض الباحثين فى حقيقة شخصية شكسبير نجد آخرين يدعون ان «موليير» لم يكن سوى اسم مستعار يخفى وراءه مجموعة من المؤلفين لم تكن مواهبهم لتكتسب شهرة عن طريق المسرح، وزيادة فى السخرية أو التنبؤ التاريخى كان لابد ان تكون هاتان العبقريتان قد نبعتا من أكثر الطبقات تواضعا فى عصريهما فالأول ابن جزار والثانى ابن بائع سجاد!

*****

• وهناك تواريخ ليس من حق البشرية ان تجهلها هى تلك التى تشير إلى أهم الأحداث التى تخللت حياة العباقرة، ذلك لأن الانتاج الانسانى الفذ لا يجب ان ينسى ظروف الحياة التى نبع منها والتى يمكن ان تكون زاخرة بالعبر والدروس. وحياة موليير تضم بعض هذه التواريخ: انها تقع فى نصف قرن من الزمان. واذا كان التاريخ قد سجل بدايتها (١٦٢٢) فلأنه أجبر على تسجيل نهايتها (١٦٧٣)! فما أهمية تاريخ ميلاد انسان لم يترك أثرا يشعر بفداحة الرزء حين يموت؟ وبين عام ١٦٢٢ الذى أدرك فيما بعد أنه كان ايذانا بقرب مولد الكوميديا الحقيقية فى فرنسا وعام ١٦٧٣ الذى اتضح فيما بعد كذلك انه كان نذيرا بموت هذه الكوميديا، أقول ان هذين التاريخين تقع عدة تواريخ أخرى بالغة الأهمية فى

حياة الأدب والفن..هى تلك التى اتحف فيها موليير الأدب والمسرح العالميين بسبع أو ثمان من أروع رواياته.

وحياة موليير لا تزال موضوعا لكثير من الآراء المتناقضة وربما كان من العوامل التى لا تعين على معرفة الكثير عنها بالدقة خلو انتاجه من التفاصيل التى تتعلق بها ..كل ما نعرفه عن طفولته وصباه هو ان جان باتيسد بوكلان ولد فى باريس وان أباه كان يجمع بين الاتجارفى السجاد ووظيفة خادم للملك وانه درس على يد اليسوعيين فى كلية كلير مونت ثم درس الحقوق فى أورليان كما تتلمذ فى دراسة الفلسفة على جاسندى الذى حببه فى الشاعر اللاتينى لوكريس وانه اشتغل بالمحاماه فترة قصيرة لم يترافع خلالها سوى مرة واحدة وانه اندفع نحو المسرح بميل طبيعى قوى لم يستطع مقاومته ويقال انه فقد أمه وهو فى الحادية عشرة من عمره وان أباه كان فظا بخيلا وان جده لأمه لويس كريسيه هو الذى غرس فيه حب المسرح اذ كان يصطحبه دائما إلى المسارح التى يغشاها وفى كل مرة كان جان بوكلان يشهد فيها احدى الروايات كان يعود بعدها إلى بيته ممتقع اللون ويغرق فى تفكير عميق يزيده سخطا على مهنته. ويقال كذلك انه حين قرر التفرغ للمسرح لقى معارضة شديدة من والده الذى لجأ إلى شتى الوسائل لثنيه عن عزمه: بذل له الوعود ثم عمد إلى الوعيد ثم عهد بمهمة انتزاع فكرة المسرح من ذهنه إلى أستاذ قديم له يدعى جورج بينيل والطريف - وهذا يقال أيضاً - ان الفتى لم يكتف بالرسوخ أمام مساعى معلمه القديم وانما وفق فى اقناعه بالعمل معه!

وفى يونيو سنة ١٦٤٣ اتفق (جان باتيسيد) مع ثلاثة أفراد من أسرة بييجار «جوزيف ومادلين وجنوفييف» وعدد آخر من الرفاق واستاذه القديم بينيل (الذى سمى نفسه لاكوتير) على انشاء فرقة مسرحية أطلقوا عليها اسم (المسرح العظيم الفخم) وهنا سمى جان باتيسيد نفسه «موليير» وظلت الفرقة تستأجر المسرح تلو المسرح وتصاب بالأخفاق تلو االخفاق إلى أن أبهظتها الديون واستحال بقاؤها فى باريس. كان موليير مديرها الفعلى بالرغم من حداثة سنه ويقال انه

سجن مرتين بسبب الديون التي كانت تثقل كاهلها وجمعت الفرقة أمتعتها ولاذت بالريف فى أواخر عام ١٦٤٥ ولم ترجع إلى باريس إلا بعد ثلاثة عشر عاما عرفت خلالها حياة التجول .. وأعجب بموليير أمير كونتى زميله القديم فى المدرسة فأراد أن يعينه سكرتيراً له، لكنه رفض بدافع من حبه لمهنته وتعلقه بفرقته وحرصه على استقلاله.

فى احدى جولات الفرقة فى روان حصل موليير على اذن من دوق أور ليان - شقيق الملك - بأن يمثل فى باريس أمام الملك، وفى ٢٤ أكتوبر سنة ١٦٥٨ قدمت الفرقة فى قصر اللوفر مأساة لاكورنى وملهاة هزلية من تأليف موليير هى الدكتور المحب. وأعجب لويس الرابع عشر بالفرقة فسمح لها بأن تستقر فى باريس وبأن تسمى نفسها «فرقة شقيق الملك» وان تقدم حفلاتها فى مسرح البوربون الصغير بالتناوب مع فرقة الايطاليين وحين أزيل مبنى هذا المسرح فى عام ١٦٦٠ تغير اسم الفرقة باذن من الملك فصار (الفرقة الملكية) وانتقلت إلى «صالة» ملحقة باللوفر كانت مخصصة لحفلات القصر كما كانت تعار فى بعض الأحيان لهذه الفرقة أو تلك من الفرق الباريسية .. وظل موليير يمثل فيها إلى ان توفى فاتحدت فرقته مع فرقة ماريه ثم حدث توحيد جديد يأمر بادماج فرقة بورجونى فكان ميلاد فرقة الكوميديا فرانسيز أو «المسرح الفرنسى» (١٦٨٠ - بعد وفاة موليير بسبع سنين).

فى عام ١٧٤٠ سئلت ابنة الممثل الكوميدى بواسون عن أوصاف موليير وكانت فى شيخوختها واعتمدت فى ردها على ما وعته ذاكرتها قالت: «ليس بالضخم ولا بالنحيف..أقرب إلى الطول منه الى القصر .. يمشى بخطى ثابتة.. أساريره جادة.. أنفه وفمه كبيران.. شفتاه غليظتان لونه خمرى.. حاجباه كثيفان.. دمث، مجامل، كريم..» ولنتوقف قليلا عند هذه الصفات الأخيرة فلقد أكدتها فعلا شهادة المعاصرين.. ان لحسن حظ الانسانية ان تقترن العبقرية فى معظم الأحيان بالسمو الخلقى. كان موليير معتل الصحة تعسا فى حياته الزوجية ينوء بشتى أنواع الهموم ولكنه كان كبير القلب وكفى.. يقول عنه زميله فى التمثيل

لاجرانج انه كان يتميز بجميع الصفات التى تجعل منه رجلا شريفا حقا.. ويكتب ممثل آخر اسمه بريكور بعد وفاة موليير مسرحية من وحى حياته«ظل موليير» يقول :«لقد كان «موليير» فى حياته الخاصة كما كان فى مغزى مسرحياته : شريفا صادق الحكم انسانا صريحا كريما..». ولعل من أبرز صفاته كذلك صداقته النادرة. وتاريخ الأدب يسجل أواشج الود الخالص الأكيد التى ربطت بينه وبين كثيرين من كبار معاصريه أمثال بوالو وراسين وشابل ولا فونتين وكورنى بل يسجل كذلك انه لم يمزق صداقته لراسين حين تنكر له مع انه كان قد أحاطه برعايته فى مستهل حياته الأدبية «انتزع راسين من فرقة موليير واحدة من اكبر ممثلاتها هى الآنسة دى بارك كما استرد منها تراجيديته «الاسكندر» وعهد بتمثيلها الى فرقة أخرى منافسة هى فرقة بورجونى.

وكان موليير كريما فعلا والى حد السخاء وتدل على ذلك شواهد عديدة تسجل أنه أعان فى حياته أناسا كثيرين بل ان هذا السخاء اتخذ شكلا أسطوريا يحكى أنه صادف ذات مرة فى الطريق رجلا عجوزا فدس فى يده قطعة نقود.. ولم يكد يدير ظهره حتى نظر الرجل اليها فوجدها من الذهب.. فأسرع الى موليير وقال له :«لعلك لم تتعمد اعطائى هذه القطعة الذهبية ولذا فأنى أردها اليك» ولكن موليير رد عليه قائلا :«خذ يا صديقى هاك قطعة أخرى » وصاح قائلا :«أين ستعشش الفضيلة؟» .. وحين تجهم القدر لأبيه فى شيخوخته لم يتردد فى ان يمد يد المساعدة! لقد تناسى ان أباه هذا كان قد ضن عليه بجزءمن ماله الوفير يوم كان المسكين يتخبط فى مستهل حياته العملية ويوم تركه يدخل السجن الذى زج به الدائنون اليه.

وزواج موليير من أخطر الأحداث التى أثرت فى حياته. كان فى الأربعين من عمره حين تزوج من فتاة تصغره بثلاث وعشرين عاما كان قد عرفها وهى فى مهدها هذه الفتاة وهى أرماند بيجار شقيقة زميلته فى الفرقة مادلين ولم يكن فارق السن هو المظهر الوحيد لعدم توافق الزوجين فقد كانت أرماند – وهنا العنصر الهدام فى حياتهما – تافهة إلى حد الحمق عابثة إلى حد التهتك وكانت حياة موليير معها سلسلة من الخلافات العنيفة ومصدرا لتجهمات جائرة .. وكثر

القيل والقال وتواترت الاشاعات إلى حد ان ممثلا بفرقة بورجونى (المنافسة لفرقة موليير) بعث إلى الملك برسالة اتهم فيها موليير بأنه متزوج من ابنته التى التى أنجبها من خليلته السابقة مادلين بيجار .. على ان الشئ الذى يعنينا هو ان زوجة موليير لم تكن جديرة به وان بعدها عن مستوى عبقريته وعبثها الدنئ قد سمما حياته وأصاباه بتعاسة دائمة.

وظل موليير ينوء بحياته الخصبة والمريرة معا: تدير أكبر فرقة مسرحية فى باريس ويؤلف لها المسرحية تلو الأخرى فى سرعة فائقة (ثلاث مسرحيات فى النصف الأول من عام ١٦٦٨) ويقوم بتمثيل الدور الأول فى كل منها .. وكل ذلك فى جو خانق من القلق والضيق يضاعف تسممه التهاب رئوى وسعال حاد متقطع. وقبل وفاته بشهرين أشفق عليه صديقه بوالو فحاول اقناعه بالكف عن التمثيل وبالاكتفاء بالتأليف ولكن موليير رفض أن يتخلى عن فرقته وأن يتوقف عن تأدية رسالته كاملة .. وأقبل ذلك اليوم المشئوم فى حياة الأدب والمسرح ١٧ فبراير ١٦٧٣ .. كانت (الفرقة الملكية) تمثل مسرحية (مريض الوهم) للمرة الرابعة اشتدت العلة على موليير وهو يقوم بدوره بشكل لحظه الجمهور ولكنه بذل من الجهد الجهيد ما مكنه من مواصلة دوره حتى نهايته وهنا نقل إلى بيته ولم يكد يأوى إلى مضجعه حتى أخذ سعاله يتضاعف فى عنف أدى إلى انفجار أحد شرايين رئتيه وفقد النطق وتدفق الدم من فمه. ثم قضى نحبه فى نفس الليلة وظل رجال الدين حانقين عليه حتى بعد وفاته اذ بقيت مسرحياته (طرطوف) ماثلة فى مخيلاتهم: تباطأ القس الذى استدعى فى المجئ ولم يصل إلا بعد الحاح طويل وحين كان موليير قد فارق الحياة ورفضت كنيسة «سانت أوستاتش» أن يدفن كالمسيحيين وتحرج الموقف وأضطرت زوجته إلى الالتجاء إلى الملك ملتمسة منه التدخل لدى كبير أساقفة باريس ونجحت مساعى لويس الرابع عشر بعض النجاح اذ أذنت الكنيسة بالدفن على أن يتم ليلاً بدون صلاة على الجسمان ولا احتفال دينى! .. سخرية من سخريات القدر! ولكن أفظع منها أن يحتوى يوم العبقرى - كيوم كل الناس - على أربع وعشرين ساعة وأن تنتهى حياة عبقرى كموليير وهو فى الحادى والخمسين من عمره!!

الانسانية من خصائص عبقرية موليير

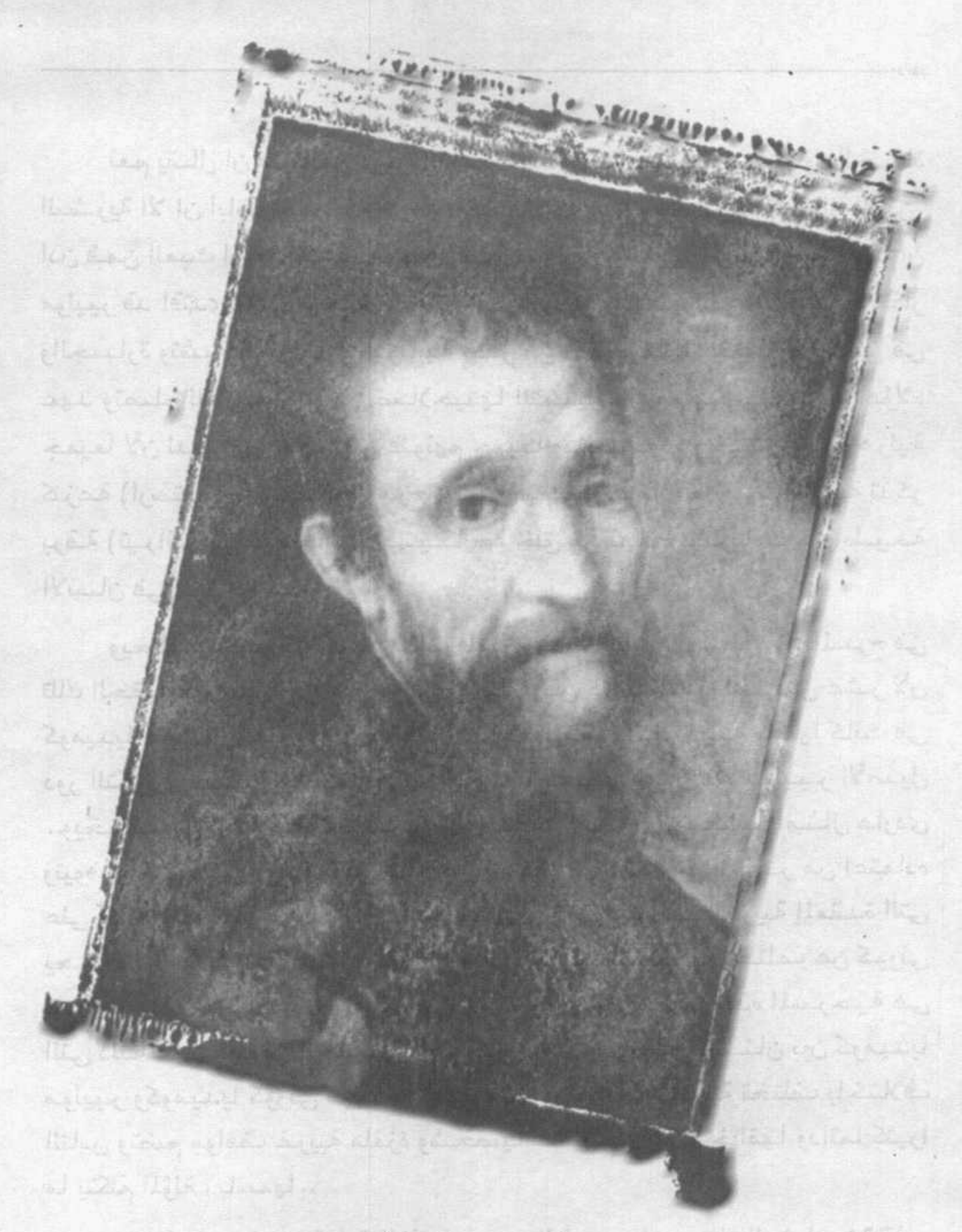
من الغريب أن موليير وهو مبتكر الفن الكوميدى الحقيقى فى فرنسا كان يميل إلى التراجيديا ربما كان مرد ذلك إلى تعاسة فى الحياة إلا أن مأساته «دون جارسيا دونافار» أصيبت بفشل زريع كان بمثابة انذار حض موليير على العدول عن التراجيديا والحق انه خلق للفن الملهوى: حدث حين عاد بفرقته إلى باريس أثر رحلته الطويلة فى الريف ان مثل مسرحيته الشهيرة «المتحزلقات المضحكات» واذا برجل مسن لا يتمالك نفسه من الاعجاب فيطلق هذه الصيحة التى دوت فى أرجاء المسرح: «تشجع تشجع يا موليير ها هى الكوميديا الحقيقية» .. لقد كانت تلك المسرحية تبشر بثورة من أجل الذوق السليم .. هذا العبقرى الذى صور عادات عصر اكتشف فى الوقت نفسه خبايا النفس البشرية. أدبه اذا عالمى بقدر ما هو فرنسى يقول سانت بيف: (ان أهم خصائص عبقريته هى الانسانية الأبدية المرتبطه ارتباطا وثيقا بتصوير عادات عصره وان ملابس شخصياته تخفى تحتها الانسان فى كل العصور».

وموليير يختلف اختلاف بينا عن كل من سبقه من كتاب المسرح. يختلف عن كتاب الاغريق والرومان وعن كتاب العصور الوسطى والقرن السادس عشر وعن الكتاب الذين سبقوه مباشرة يختلف مثلا عن أرستوفان لأن ارستوفان صور شعب أثينا أكثر من تصويره الانسان العالمى بشجاعة نادرة وهجاء بليغ الأمر الذى يمنح مسرحياته قيمة تاريخية تجعل منها ما يشبه الوثائق عن عهد صاحب من عهود الديمقراطية الاثينية .. اما موليير فقد تصدى للعيوب والرذائل التى تصيب البشرية فى جميع البلاد وجميع الأزمان .. ويختلف عن بلوت لأن كوميديا بلوت - هى الأخرى - هجاء اجتماعى ينصب على اطار محلى هو المجتمع الرومانى فى عصره ،صحيح ان لهذه الكوميديا طابعا مبتكرا هو ثأرها للعبيد من سادتهم (عزا بلوت إلى العبيد الذكاء والشرف وإلى السادة الحمق وأحيانا الخسة) الا ان انتاج موليير يدخل فى اطار أوسع يضم القصر والمدينة والقرية فضلا عن بهو طويل يحتوى على العديد من آفات البشرية.

نعم يقال ان ميناندر درس القلب الانسانى واستطاع ان يصور الحياة البشرية الا ان أباطرة بيزنطة حرقوا أهم انتاجه استجابة لتوجيه رجال الدين. اذن فمن العبث ان نبحث عن أوجه شبه بينه وبين موليير أو ان يزعم أحد ان موليير قد اقتدى به .. ويختلف عن تيرانس لأن كوميديا تيرانس ينقصها الابتكار والجسارة وتشبه الخرافات اليونانية أكثر من تصويرها للمجتمع الرومانى فى عهد وتصلح للقراءة أكثر من صلاحيتها للتمثيل. ان موليير يفوق على هؤلاء جميعا لأن لديه أبرز خصائص فنونهم جميعا ويزيد فنه، هو يتميز بنزعة هزلية كنزعة (ارستوفان) وبجسارة ومرح شبيهين بجسارة وملامح (بلوت) وبرقة تذكر برقة (تيرانس) ولكنه يبزهم جميعا بما خلق من نماذج بشرية تصور طبيعة الانسان فى أبرز ملامحها..

ويختلف موليير كذلك عن كتاب المسرح فى العصور الوسطى لأن المسرح فى تلك الحقبة كان دينيا فى جوهرة .. ويختلف عن كتاب القرن السادس عشر لأن كوميديا هؤلاء الكتاب، صحيحا لم تكن مصطبغة بصبغة دينية ولكنها كانت فى دور التكوين بحيث يستحيل عقد اية مقارنة بينها وبين فن موليير الأصيل ..ويختلف عن أسلافه المباشرين من مقلدى المسرح الأسبانى أمثال هاردى وتيوفيل وسكوديرى وسكاردون لأن انتاجهم كان ينبع من الخيال أكثر من اعتماده على الملاحظةويخلو من تحليل للشخصيات ويزخر بالمواقف الغريبة المعقدة التى يحتم على الإنسان ان يلغى عقله ان أراد تصديقها، ثم انه يختلف عن كورنى صاحب ملهاة «الكذاب»، وبالرغم من ان موليير يعترف بأن هذه المسرحية هى التى دلته على الطريق الحقيقى الذى كان عليه أن يسلكه، فشتان بين كوميديا موليير وكوميديا كورنى فبهذه الأخيرة تصور عادات بشرية تختلف باختلاف الناس وتضم مواقف غريبة ملغزة وشخصيات لا تتكلم باسم خالقها ودائما كثيرا ما يتكلم المؤلف باسمها..

وقد كتب موليير قرابة ثلاثين مسرحية أجودها - عدا «البخيل» ١٦٦٨ - (المتحذلقات المضحكات) ١٦٥٩ (طرطوف) ١٦٦٤، ٦٧، ٦٩ (المتزمت) ١٦٦٦ (البرجوازى الشريف) ١٦٧٠ (النساء العالمات) ١٦٧٢ (مريض الوهم) ١٦٧٣.



مايكل انجلو

الفنان الاعسر العظيم!!

مايكل انجلو

يروى عن هذا الفنان الأعسر انه حين نفض الازميل من تمثاله الرائع «موسى» وقف ساعة يسرح النظر فيه حتى صاح به فى كثير من الانفعال: «تكلم» .. ولم يتكلم التمثال. كان الفنان قد أدرك أنه بلغ الكمال الفنى الأعلى، ولكنه فى تلك اللحظة بالذات قذف التمثال بالمطرقة فكسر انفه .. كسره ليؤمن أن باستطاعته أن يبدع خيراً منه. جرح كماله لئلا يواجه بعد ذلك العقم الرهيب. إنه انسان دائم الحركة والتطور، دائم الطموح.

أبصر إزميل الله ميكيل أنجلو الرسام، والنحات، والمهندس، النور فى فلورنسا سنة ١٤٧٥م، وتتلمذ وهو فى الثالثة عشرة من عمره، على الرغم من معارضة والده الشديدة، على يد الفنان غيرلندايو الذى علمه أصول الرسم. وقد بدأ دروسه فى النحت فيما بعد تحت رعاية لورنزو دى مديتشى (لورنزو العظيم)، حاكم فلورنسا. وقد أثر فى حياته أبلغ تأثير شعر دانتى، ومواعظ سافونارولا، الراهب الثائر.

فلما توفى لورنزو سنة ١٤٩٢، وحدثت الاضطرابات السياسية، اضطر إلى الفرار إلى بلدة بولونيا (فى ايطاليا)، ثم إلى روما خوفا من اغتياله. ولم يعد إلى فلورنسا إلا سنة ١٥٠١ حيث عكف على صنع تمثاله الشهير (داود) الذى أنهاه فى ثلاث سنوات. وفى سنة ١٥٠٥ طلب اليه البابا بيوس الثانى أن يصنع له ضريحا ضخما وتمت الموافقة على خرائط الفنان، إلا أن التنفيذ تأجل بسبب بعض المؤامرات والارتباطات. ولم ينجز العمل إلا بعد أربعين سنة، وعلى نطاق مصغر. وما زال إلى اليوم يقوم عليه تمثالاه الشهيران موسى والعبيد (أو الأثرى) .

ومن أشهر أعماله وآيات فنه الرائع نذكر: قبة كنيسة القديس بطرس فى روما، وتمثال العذراء الأم الحزينة، والنهار والليل فى كابيلا مديتشى بغير نزه، وسقف كابيلا سيكستينا، وقد نحت فيه تاريخ الكون كما جاء فى التوراة من عهد الخليقة إلى يوم القيامة. وقد أنجز هذا العمل الأخير الجبار سنة ١٥٤١، فجاء أكبر لوحة فى العالم وأبرز دليل على القوة البشرية الخالقة الطبيعة.

ومع انه لم يعتبر نفسه يوما مهندسا، إلا أنه بنى جسرا عبر نهر التيبر، وحوّل أحواض ديوكلايسيانوس للسباحة إلى كنيسة مديتشى. وقد بقى يعمل طوال حياته بالنشاط والحدة اللذين عرف بهما. ولما بلغ الستين من عمره، ربطت بينه وبين فيتوريا كولونا صداقة متينة ألهمته الشعر. وبلغ من العمر عتياً (٨٩ سنة). وعمل فى عهد تسعة من البابوات، وتوفى فى ١٨ شباط ١٥٦٤.

هذا الجبار بين الجبابرة، كتب عنه الشعراء، والمؤرخون، والنقاد، والروائيون، الكثير. ولا عجب، فحياته كانت حياة تصنع منها الأساطير. ولقد قال عنه الروائى الفرنسى رومان رولان: «لم يظهر مثيل لميكيل أنجلو. فقد ألم بالرسم، والنحت، والهندسة، والشعر جميعاً، ونفخ فيها من نشاطه، وحيويته، ومثاليته القوية. لم يفهمه أحد، ولكن الجميع قلدوه!»

كان عبقريا فذا فى أعماله الفنية الخالدة، وفى حياته اليومية الصابرةالمجاهدة، وفى غرامه الفاجع المثالى العظيم. وهذه جزء من قصة حياته.. مستخلصة من اعترافات كان قد أدلى بها إلى صديق له. قال ميكل أنجلو:

«شعرت منذ حداثتى أن المجتمع عدوى وان فى العزلة خلاصى، وفى التأمل الطويل غذاء لعقلى، وصفاء لروحى، وحفزا لقواى الفكرية الخالقة.

ولم أكن قد أولعت بالنحت والتصوير فحسب بل بالشعر والأدب أيضا، وشتى ألوان الجمال التى أفتن الخيال البشرى فى ابداعها.

وهكذا حرمت نفسى من ملذات الصبا، وعكفت على الدرس والتحصيل، والعمل والانتاج. واهبا حياتى من أجل فنى، منقطعا فى سبيله عن العالم.

آثرت ظلمة بيتى الضيق الموحش على فسحات الوجود وأضوائه الساطعة. فرمانى أصحابى بالغرور والكبر. وأعرض عنى البعض منهم، وأشفق البعض الآخر أن تذهب أجمل أيام شبابى سعيا وراء خيالات وأوهام.

كانوا يظنونى شقيا، ولكنى كنت أسعد الناس، كنت سعيدا بالفكر والفن والأدب والشعر أنظم القصائد وأصور وأنحت بعزم الجبابرة: فيخلينى فيض القوة المتدفق منى وأحس بنبوغى وتفوقى، فيجدد هذا الاحساس بايمانى بنفسى، وبالمستقبل الرائع المرصود فى لوح القدر لى.

وكانت فترة استمتاع ونشوة، تحديت فيها القدر أن يعترض مشيئتى، أو يضعف من عقلى، أو يكسر من شره حواسى، أو يسلبنى ولو جزءا بسيطا من قوتى الغاشمة التى أبرزتها وسجلتها فى تماثيلى الأولى كـ «الحب الراقد» و «هرقل» و «داود» و كوبيدون».

على أن امعانى فى الشهوة والتمتع هو الذى نفرنى من نفسى وأيقظنى، فعفت النساء. وبرمت بالملزات، وطفقت على دهش منى أبحث عما يكمن خلف مغريات الحس الباطلة من جمال كامل مطلق إلهى...

وأخذت أطالع «الكوميديا الالهية» للشاعر دانتى، وأقضى الليل ساهرا أقرأ فى الكتب المقدسة. وصرخات الأنبياء والمرسلين تدوى فى أذنى، وتحثنى على تحرير روحى من ربقة جسدى ... ولكنى برغم تفتح عقلى على الشعور الدينى، لم ينفذ الايمان الخالص إلى أعماق قلبى. فلا الرحمة ولا المحبة ولا الصفح ولا الرقة ولا الحنان، استطاعت أن تتمكن منى وتكبح عناصر القوة المضطرمة فى كيانى. كنت أومن بالطبيعة الجبارة فقط. بالطبيعة التى تطلب إلى الإنسان أن يكون قويا، وتأبى أن تشفق عليه اذا لم يكن قويا بل وتحثه على القوة حتى ولو كان ظالما ...

هذا الايمان الغاشم الأعمى الذى أسرفت اسرافا تفجر من فرط احساسى بقيمة فكرى وعظمة الأعمال الفنية التى ابتدعها خيالى ولد على مر الزمن ضربا من الكبرياء الجامدة الباردة المترفعة، ألقت فى روعى أنى أعظم من الناس طرا،

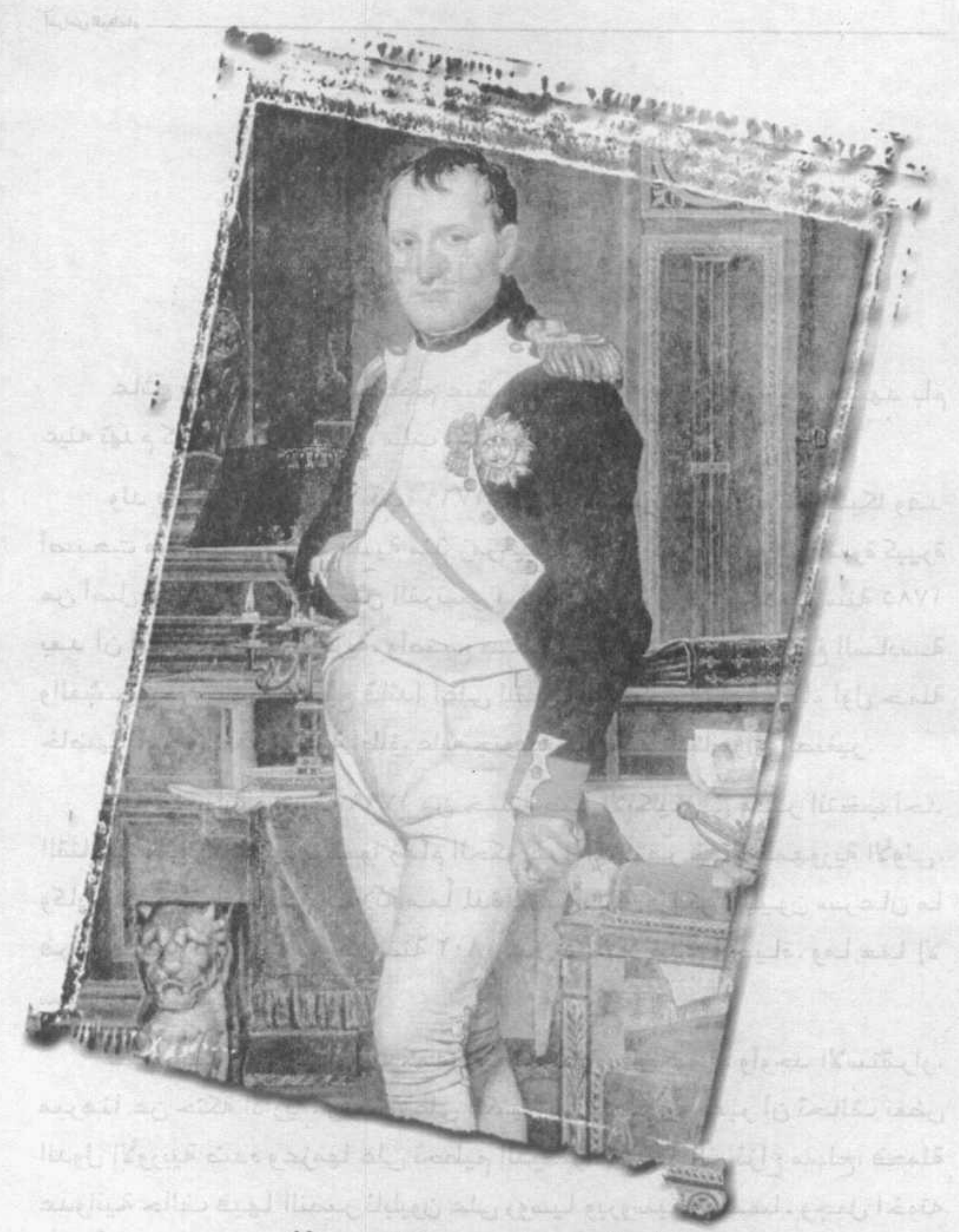
بل أعظم من جميع عباقرة عصرى. فاحتقرت الناس، واحتقرت العصر كله، وارتددت إلى غياهب وحدتى، وفى نفسى عزة شامخة قاسية لم أقو أبدا على قهرها أو تلطيفها.

وزاد فى عزلتى وكبرى امعانى فى الخلق والابداع. وانصرافى إلى تجميل ذلك المصلى الذى شيده فى الفاتيكان البابا سيكستوس الرابع، مصلى «سيكستين»، حيث تجلت عبقريتى، وحيث أمضيت خمس سنوات أرسم وأنقش على قبة الهيكل نشوء العالم كما جاء فى سفر التكوين، وأمثل فوضى الطبيعة وهى خارجة من صلب الظلام الى نور الحياة الساطع ..

ولقد عشت معظم هذه السنوات مشدودا إلى حبل، متطلعا إلى قبة الهيكل، غائبا عن وعيى، تائها فى فنى، أحاول أن أخالس روح الله، واندمج فى الملأ الأعلى .. ولكنى ما أن هبطت على الأرض حتى افتقدت نفسى فلم أجدها. كأن الحياة قد أفلتت منى. وكأن شبابى قد ضاع فى غمرة عملى، وكأن أيسر متعة فى هذه الدنيا لم تصبح من نصيبى ولا من حقى. فغشيتنى كآبة ساهمة آسفة مستعصية. فارتميت مرة أخرى فى عزلتى، ورحت أكتب فى مذكراتى:

«ليس لى صديق ولا حبيب، أنا وحيد على الدوام، ولن أجد أبدا من أخاطبه!»

***



نابليون بونابرت

أعظم عبقرية عسكرية عرفها التاريخ..

غريب الأطوار!!

نابليون بونابرت

عاش نابليون بونابرت، أعظم عبقرية عسكرية عرفها التاريخ، ليشهد بأم عينه تهدم كل ما بناه من مجد سلب الألباب وحير العقول!

ولد فى ١٥ اغسطس «آب» ١٧٦٩م فى أجاكسيو بجزيرة كورسيكا وقد أصبحت من الممتلكات الفرنسية منذ زمن يسير. كان الابن الرابع فى أسرة كبيرة من أصل ايطالى. دخل الجيش الفرنسى برتبة ملازم ثان فى المدفعية سنة ١٧٨٥ بعد أن أتم دروسه العسكرية، وأصبح صديقاً لروبسبيير. فلما بلغ السادسة والعشرين من عمره أصبح قائداً أعلى للقوات الفرنسية. وفى أثناء أول حملة خاضها نابليون بهذه الصفة اطلق عليه جنوده تحبباً لقب الكابورال الصغير.

ولما عاد نابليون سنة ١٧٩٩ من حملته ضد الانكليز فى مصر انتخب أحد القناصل الثلاثة الذين تسلموا زمام الحكم غير المستقر فى الجمهورية الأولى. وكان المفروض أن يحكم الثلاثة معاً لمدة عشر سنين، ولكن نابليون سرعان ما فرض نفسه دكتاتوراً .. وفى سنة ١٨٠٢ عين قنصلا مدى الحياة. وما هما إلا سنتان حتى أصبح امبراطوراً.

نظم نابليون خلال فترة حكمه كقنصل شؤون الحكومة. وأوجد الاستقرار، مبرهنا عن حنكة ادارية. وقضى على الكثير من المساوىء. غير أن تحالف بعض الدول الأوربية ضده وعزمها على تحطيم الديمقراطية جر إلى نزاع مسلح، فحملة عدوانية حالف فيها النصر نابليون على روسيا وبروسيا والنمسا. وجعل اخوته حكاماً على البلدان المحتلة التى أدخل إليها جميعاً مبادئ الثورة الفرنسية.

وفى سنة ١٧٩٦ تزوج الحسناء جوزفين دو بوهارنه، وأصلها من جزيرة

المارتينيك. ولكنه طلقها سنة ١٨١٠ ليتزوج من ماريا لويزا، ابنة امبراطور النمسا. وكان يبدو واثقاً من المستقبل، ويريد ولياً للعهد. ولكنه كان قد شارف على النهاية. ففى سنة ١٨١٢ بدأ زحفه الفاشل على روسيا. فلما عاد مهزوماً كانت خسارته قد بلغت ٤٠٠ ألف رجل، وظلت سلسلة الانهزامات تلاحقه حتى سنة ١٨١٤. فاحتل الحلفاء باريس، واضطر إلى التنازل عن العرش، ونفى إلى جزيرة إلبا.

وما هى إلا سنة حتى هرب من هذه الجزيرة عائداً إلى وطنه حيث جرد جيشاً زحف به إلى باريس وأعلن نفسه امبراطوراً. ولم يكن بد من تجدد الحرب، ولكنه هزم على يد الانكليز والنمساويين سنة ١٨١٥ فى معركة وترلو الشهيرة. واستسلم فى ١٥ تموز من تلك السنة فنفى إلى جزيرة القديسة هيلانه حيث توفى فى ١٥ أيار ١٨٢١.

ومما يروى عن نابليون أنه لم يكن يشرع فى رسم اى خطة حربية الا وهو يمتص اقراص السوس. وقد وصفه خادمه الخاص الذى كان ألزم له من ظله بأنه رجل غريب الاطوار ولكنه طيب القلب يستطيع المرء أن يخدعه ...

كان خط الكثيرين من مشاهير رجال التاريخ رديئاً بحيث ان بعضاً من مخطوطاتهم ما يزال إلى اليوم يستعصى على القراءة والفهم. فهناك عدد من كلمات لشكسبير لم تحل رموزها حلاً نهائيا بعد، وهناك قصص للروائى الاميركى هوثورن لم تنشر بعد لتعذر قراءتها...

وقد أول الكثيرون بعض رسائل نابليون بأنها خرائط حربية لما كان عليه خط نابليون من الرداءة.

ومما لا شك فى صحته ان نابليون بونابرت لم يكن مكتمل القوى العقلية، فقد حاول لا شعورياً وعن طريق العدوان الخارجى (أو الداخلى فى صورة نوبات وأعراض) تخليص نفسه من صراعات كانت تعتمل داخل نفسه دون أن يطيق احتمالها. كما كان شاذاً فى كثير من تصرفاته شذوذاً يحمل على الاعتقاد بأنه كان مصاباً بمرض من الأمراض النفسية. وحسبه ما حام حوله من الشبهات، من انه أغوى أخواته واحدة بعد الأخرى واتصل بهن اتصالاً معيباً. وقيل أن مخادع

السيدات فى عهده كانت أشد أثرا من قرارات وزرائه. ولعل هذا سبب ضعف ثقته فى المرأة وقوله المأثور (إننى أشك فى عفة كل امرأة جميلة). وكان يدعى الفلسفة، فيتكلم عن الخلود والروح، ويقرأ من فولتير والأوديسيا والتوراة أمام حفل من الرجال والسيدات، ويزأر غضباً اذا ما غلب النعاس على السيدات وهذا نموذج من احدى مهاتراته:

(أين الروح فى الطفل وفى الرجل المجنون؟ اذا دققت مسمار فى عنقك فأين تذهب روحك؟ وما مصير الروح بعد الموت؟ واذا مت غدا أصبح جسدى فى الثرى غذاء للكرمب والجذر. أنا لا أصدق ان المسيح عاش حقيقة، ولا أعتقد فى الدين المسيحى إلا اذا كان منشؤه منذ الخليقة. لقد أخطأنا فى انشاء مجلس الشيوخ والنواب. اذا شئت اذكاء نار الثورة فى أمه فما عليك الا ايجاد ممثلين للأمة. إن المرأة لم تخلق إلا للتوالد. من المضحك الا يكون للرجل إلا امرأة شرعية واحدة. اذا خيرت بين جميع الأديان لما اخترت إلا عبادة الشمس لانها وحدها آلهة الكون.

إن نفسية نابليون يمكن تحليلها من ناحية قصر قامته ومحاولته التعويض بذلك فى اقامة علاقة جنسية متنوعة. وفى نظرته الدونية للمرأة، مع تشككه من الناحية الدينية.

***



نيوتــن

أعظم عباقرة العالم!!

اسحق نيوتن
أعظم عباقرة العالم

يعتبر اسحق نيوتن من أبرز شخصيات التاريخ ومن أعظم العلماء الذين قدموا للإنسان خدمات تجل عن الوصف، ولم تعرف البشرية قط عالما على ذلك القدر من الأهمية والعطاء. فانه أكثر العلماء تأثيرا فى هذا الكون.

ان سيرة اسحاق نيوتن يصعب ايجازها فى سطور، فقد كان بحرا عميقا من العسير سبر أغواره، ويكفى لكى نتلمس عبقرية ذلك العالم الفذ ان ننصت الى ما قاله عنه العالم الأشهر أينشتين: « ان كل ما عرف من العلوم الطبيعية النظرية مدين لنيوتن... وليس غير امتداد طبيعى لآرائه..».

اسحاق نيوتن كبير عباقرة الأنجليز، لا بل اعظم عباقرة العالم على مر الأجيال.. ولد ضعيفا هزيلا، تضطرب أنفاسه فى صدره، فى يوم ٢٥ديسمبر ١٦٤٢م.. وما ان وقعت عينا القابلة عليه حتى قالت:«يا الهى انه من أصغر المواليد، استطيع، بدون مبالغة، أن أضعه فى كوز ماء»، وقدرت له حياة يومه أو اقل من ذلك، ولكن القدر شاء لهذا الطفل ان يبقى (٧٥ عاما) طواها فى تؤدة وأناة.. نشر خلالها أعلام المعرفة.. وكلل مفرق العلم بغار النصر.. نصر العلم على أسراره الطبيعية.

ودرج اسحق نيوتن على بساط الأيام يطويها من خلفه حتى أن بلغ الرابعة فأودعته أمه حجر جدته، وتخلت عنه لتعيش فى كنف زوجها الجديد. لقد مات زوجها الأول (والد اسحق نيوتن) ولم يكن الجنين قد اكتمل نموه فى الأحشاء. ورأت الجدة مخايل الذكاء على حفيدها، فهو الطفل الذى لا يفتأ فى كل يوم

يبتدع لها بآلاته الصغيرة.. المطرقة والمنشار.. ألوانا وأشكالا كثيرة مستطرفة لا تدرك هى كيف كد الصبى عقله فأوجدها.

ويكبر اسحق نيوتن مع الأيام.. ويزداد ولوعه بابتكار الآلات الصغيرة والدقيقة كبرا، حتى انه استطاع صنع ساعة يدار عقرباها بنقط من الماء تنحدر عليهما من وعاء مستقل كان يملؤه كل صباح. وكان ابان طفولته شغوفا بالعلم حريصا عليه، الا انه حينما ذهب الى المدرسة فى الثانية عشرة من عمره لم يبد نجابة بادىء الأمر، وظل طالبا عاديا الى أن استفز أهميته العقلية أحد الطلبة من زملائه الأشداء، فقد سدد اليه هذا الأخير ضربة بقبضة يده هوت به الى الأرض فأخذ الطلبة يتضاحكون عليه، ويتندرون بضعفه ووهنه. وشحذ الصبى عقله.. وانتصر على خصمه انتصارا مبرما.. لا فى حلبة المصارعة، بل فى ميدان العلم.. وبرز اسمه منذ ذلك الوقت بين أقرانه وأصبح التلميذ النابغة فى مدرسته بدون منازع!

لكن صوت الأرض ظل يدوى فى أذنيه.. تدعوه اليها ليقيم أمرها. ويحرث ويعزق ارضها، ويحمل على كتفيه تبعات أبيه الراحل، فهجر الدراسة ولبى لها النداء، ولكنه لم يدم على حالته تلك طويلا. فقد حرمت عليه امه مطالعة أى كتاب، وطلبت منه الانصراف بكلية طاقته الى الأرض. ان فتى مثل اسحق نيوتن لا يستطيع على هذا الأمر صبرا، فأخذ يسترق ساعات الزمن فى خلسة.. بعيدا عن أعين الرقباء وينكب على كتيب يتدراسه.. أو مسألة يعالج فك مغاليقها. وقبض عليه خاله فى أحد الأيام وهو ملق برأسه الى ورقة يحبرها بالأرقام والأعداد، فوضع الخال يده عليه، وقال : انك يا اسحق أحد اثنين لا ثالث لهما عندى، فاما ان تكون مجنونا أو عبقريا فذا، والله وحده أعلم بحقيقة الأمر، ومن ثم خلى بينه وبين دراسته. فالتحق بكلية الأقانيم الثلاثة فى كمبريدج عام ١٦٦٠، وبز اخوانه فى الدرس والتحصيل وخاصة فى الرياضيات حتى تخرج فى الكلية.

وفى عام ١٦٦٩ استقال أستاذه فى الرياضيات «اسحاق بارو»، وعين نيوتن خلفا له على توصية منه، وصف فيها نيوتن بأنه «عبقرى لا نظير له»، وقد احتفظ

بكرسيه فى ترنتى أربعة وثلاثين عاما. ولم يكن بالمعلم الناجح. كتب سكرتيره عن ذكريات ذلك العهد يقول: «كان الذين يذهبون للاستماع اليه قليلين، والذين يفهمونه أقل، حتى انه كان أحيانا كثيرة وكأنه يقرأ للحيطان بسبب قلة السامعين». وفى بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين اطلاقا فيعود إلى حجرته كاسف البال. وبنى فيها مختبرا - كان الوحيد فى كمبردج آنئذ - وقام بالكثير من التجارب، لا سيما فى الخيمياء (الكيمياء) «وهدفه الاكبر تحويل المعادن»، ولكنه اهتم أيضا بـ «اكسير الحياة» و«حجر الفلاسفة» وواصل دراساته الخيميائية من عام ١٦٦١ إلى ١٦٩٢ وحتى وهو يكتب كتابه المبادئ، وكان أعضاء الجمعية الملكية مشغولين شغلا محموما بهذا البحث نفسه عن صنع الذهب. ولم يكن هدف نيوتن تجاريا بشكل واضح، فهو لم يبد قط أى حرص على المكاسب المادية، ولعله كان يبحث عن قانون أو عملية يمكن أن يفسر بها العناصر على أنها أشكال مغايرة، قابلة للتحويل، لمادة أساسية واحدة. ولا سبيل لنا إلى التأكد من أنه كان مخطئا.

وكانت له حديقة صغيرة خارج مسكنه بكمبردج، يتمشى فيها فترات قصيرة سرعان ما تقطعها فكرة يهرع إلى مكتبه ليسجلها. كان قليل الجلوس، يؤثر أن يذرع حجرته كثيرا(فى رواية سكرتيره) «حتى لتخاله...واحدا من جماعة أرسطو» المشائين (اتباع ارسطو وتلاميذه). وكان مقلا فى الطعام، وكثيرا ما فوت وجبة، ونسى أنه فوتها، وكان ضنينا بالوقت الذى لابد من انفاقه فى الأكل والنوم. «ونادراً ما ذهب لتناول الطعام فى القاعة، فاذا فعل فإنه - ما لم ينبه - يذهب فى هيئة زرية، حذاؤه بالى الكعبين، وجواربه بلا رباط... ورأسه غي ممشط الا فيما ندر!» وقد رويت، واخترعت القصص الكثيرة عن شرود ذهنه. ويؤكد المؤرخون انه قد يجلس الساعات بعد استيقاظه من النوم على فراشه دون أن يرتدى ثيابه وقد استغرقه الفكر. وكان احيانا اذا جاءه زائرون يختفى فى حجرة أخرى، ويخط أفكارا على عجل، وينسى أصحابه تماما.

مجالات عبقريته

لقد كان نيوتن راهبا من رهبان العلم فى هذه السنين الخمس والثلاثين بكمبردج. وقد وضع «قواعد للتفلسف» - أعنى للطريقة والبحث العلميين. ورفض القواعد التى وضعها ديكارت فى «مقاله» كمبادىء قبلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال. وحين قال نيوتن «انا لا أخترع فروضا » كان يعنى انه لا يقدم نظريات حول أى شىء يتجاوز ملاحظة الظواهر، فهو اذن لا يغامر بأى تخمين عن طبيعة الجاذبية، بل يكتفى بوصف مسلكها وصياغة قوانينها. ولم يزعم انه يتجنب الفروض باعتبارها مفاتيح للتجارب، فان مختبره على العكس خصص لاختبار مئات الأفكار والامكانات، وسجله يزخر بالفروض التى جربت ثم رفضت. كذلك لم يرفض الاستدلال، انما أصر على أنه يجب أن ينطلق من الوقائع ويفضى الى المبادىء. وكانت طريقته أن يتصور الحلول الممكنة للمشكلة، ويستنبط متضمناتها الرياضية، ويختبر هذه بالحساب والتجربة. وكتب يقول : «يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن فى هذا - البحث عن ظواهر الحركات فى قوى الطبيعة، ثم ايضاح الظواهر الأخرى من هذه القوى». لقد كان مزيجا من الرياضيات والخيال، ولن يستطيع فهمه الا من يملكهما جميعاً.

ولكن لنمض فى طريقنا رغم هذا. ان لشهرة نيوتن بؤرتين: حساب التفاضل، والجاذبية. بدأ عمله فى حساب التفاضل عام ١٦٦٥ بايجاد مماس ونصف قطر الانحناء عند أية نقطة على منحنى. ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل الفروق المستمرة Fluxions وفسر هذا المصطلح تفسيرا لا يمكننا أن نصل إلى خيرمنه:

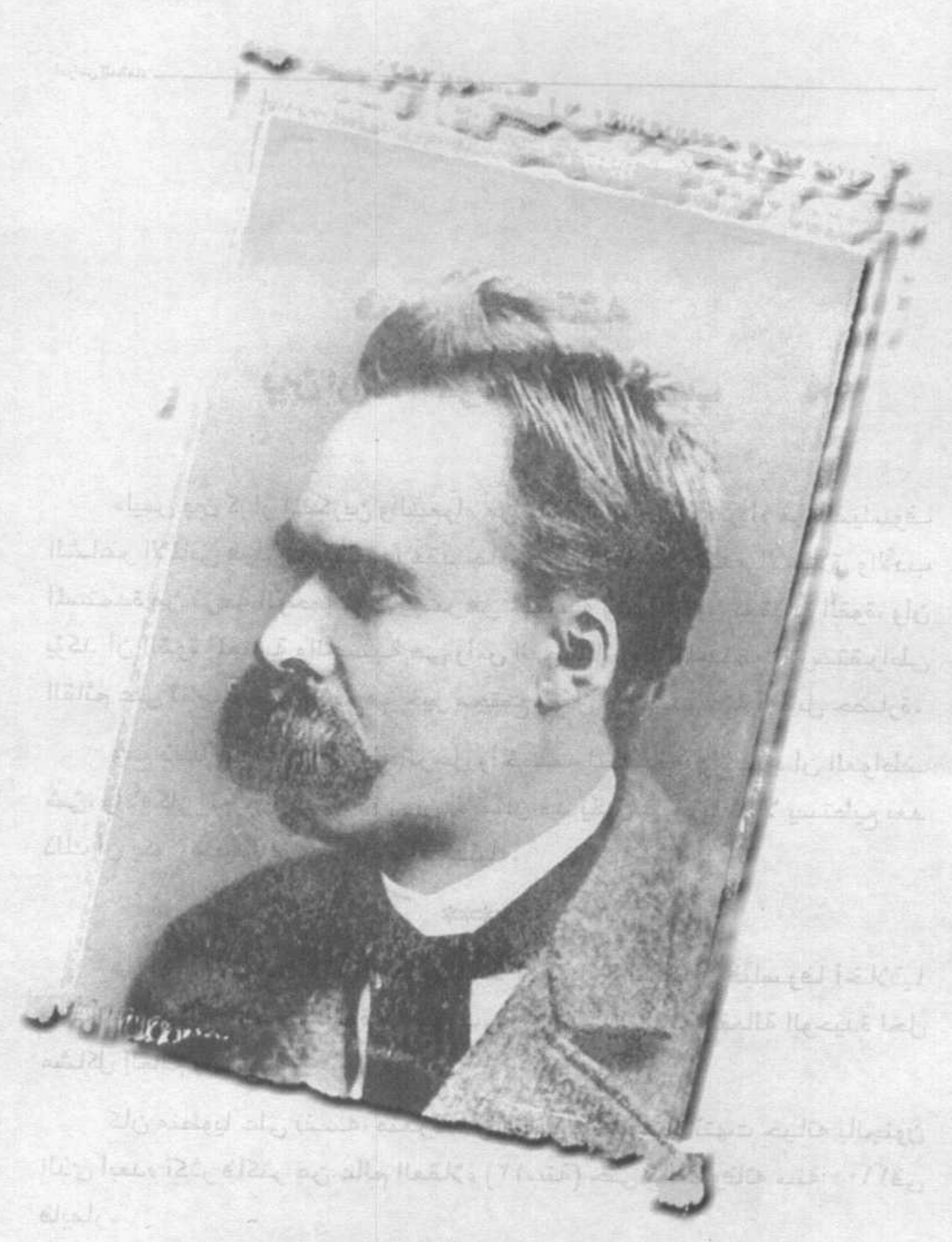
«ان الخطوط ترسم، وبهذا الرسم تولد، لا بضم الاجزاء بعضها إلى بعض، بل بالتحرك المستمر للنقط، والسطوح بتحريك الخطوط، والمجسات بتحرك السطوح، والزوايا بدوران الجوانب، وأجزاء الزمن بالفيض المستمر، وهكذا فى غير ذلك من الكميات. وعلى ذلك فبما أن الكميات، التى تزداد من أزمان

متساوية، وبالزيادة تولد، أصبحت أكبر أو أقل حسب السرعة الأكبر أو الأقل التى تزداد أو تولد بها .. فاننى بحثت عن طريقة لتحديد الكميات من سرعات الحركات أو الزيادات التى تولد بها، واذ أطلقت على سرعات الحركات أو الزيادات لفظ «الفروق» والكميات المولدة «المتغيرات». «فقد اهتديت شيئا فشيئا إلى طريقة الفروق فى عامى ١٦٦٥ و ١٦٦٦».

ولعله استخدم هذه الطريقة فى التوصل إلى بعض النتائج المتضمنة فى كتابه «المبادئ» عام ١٦٨٧، ولكن عرضه لها فيه جرى على الصيغ الهندسية المقبولة ربما مراعاة لما يناسب قراءه. وقد أسهم ببيان لطريقته فى الفروق - ولكن دون أن يخفى أسمه - فى كتاب «الجبر» عام ١٦٩٣. وكان فى طبع نيوتن أن يؤخر نشر نظرياته، وربما أراد أولا أن يحل الصعوبات التى أوحت بها. وعليه فقد انتظر حتى سنة ١٦٧٦ لينشر نظرية «ذات الحدين» التى خلص اليها. ولو أنه صاغها فى سنة ١٦٦٥.

على ان الرياضيات، على ما فيها من عجب، لم تكن سوى أداة لحساب الكميات، فهى لم تزعم أنها تفقه الحقيقة أو تصفها. فلما تحول نيوتن من الأداة إلى البحث الجوهرى، عكف أولا على استكناه سر الضوء. وتناولت محاضراته الأولى فى كمبردج الضوء واللون والرؤية، وعلى عادته لم ينشر كتابه «البصريات» الا بعد خمس وثلاثين سنة فى عام ١٧٠٤، فقد كان بريئا من شهوة النشر.

وكان قد توصل عام ١٦٦٦ إلى أحد كشوفه الأساسية حتى قبل أن يصنع التلسكوبات، وهو أن الضوء الأبيض، أو ضوء الشمس، ليس بسيطا أو متجانسا، بل هو مركب من الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى. وجمع مناقشاته حول الضوء فى كتابه «البصريات Opticks » فى عام ١٧٠٤.



نيتشـــه

فيلسوف القوة الذى إنتهت حياته بالجنون !!

فريدريك نيتشه
بين ارادة القوة وسطوة الحب

«ليس بين كبار المفكرين والشعراء من كان أشد جرأة وكبرياء من الفيلسوف الشاعر الالمانى فردريك نيتشه، فقد حاول هذا الرجل أن يهدم الاخلاق والأدب المستمدة من نزعة الرحمة، وأن يبشر فى حماسة وشبه جنون بعقيدة القوة، وأن يؤكد أن القوة المعنوية والحسية هى رأس الفضائل، وأن المجتمع الارستقراطى القائم على تمجيد هذه القوة هو خير مجتمع يمكن أن تصدر عنه أفضل حضارة.

ومع ذلك فالحب اذل هذا الرجل وأخضعه لسلطانه، وأشعره أن العواطف شئ، والأفكار المجردة شئ آخر. وأن الانسان قد يكون عبقرياً ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يكون سعيدا فى هذه الحياة الدنيا».

*****

هو أبعد الفلاسفة الألمان نفوذا بعد إمانويل كانط، كان فيلسوفا أخلاقيا واجتماعيا، وانسانا مجد القوة والحروب، ورأى فيها الوسيلة الفعالة الوحيدة لحل مشاكل العالم بأسرها.

كان منطويا على نفسه، منعزلا عن الناس والمجتمع. انتهت حياته بالجنون الذى أبعده أكثر فأكثر عن عالم العقلاء (١٢سنة) حتى كانت وفاته سنة ١٩٠٠فى فايمار.

أبصر نيتشه النور فى قرية سكسونية سنة ١٨٤٤م، وتلقى دروسه فى جامعتى بون ولا يبزيغ التى هرب منها عندما تفشى فيها وباء الكوليرا. وبعد أن

قضى فترة من الزمن فى الجيش البروسى عين أستاذا لتدريس اللغة الكلاسيكية فى بال. إلا أن الحرب الفرنسية البروسية قطعت عمله. فعمل فى المستشفى العسكرى واصيب بداء الخانوق (الدفتيريا) الذى أنهك قواه وصحته واضطره إلى الاستقالة من منصبه فى الجامعة. وكان قد وضع مؤلفا بعنوان انسانى.. انسانىّ تماما.

وفى خلال السنوات الثمانى التالية وضع أشهر مؤلفاته هكذا تكلم زرادشت،ووزاء الخير والشر، ورؤوس أقلام وتعليقات على خاتمة كتبه الارادة للوصول إلى القوة. وكان مبدأه المعروف بالسوبرمان (الانسان المتفوق) مدار جدل طويل.

وسواء أكانت نزعات نيتشه الفلسفية تطابق عالمنا المعاصر اليوم أو لا تطابقه، بالنسبة لما فيها من النزوع إلى اللامعقول، وإلى الفردية المطلقة، فإنه كان فيلسوفا أكثر ملاءمة لحاجات عصره، ومطالب دولته. ولن يمنعنا ذلك من أن نعرف فلسفته ونفهمها على الرغم مما كان فيها من عوامل الثورة والهدم أكثر مما كان فيها من عوامل البناء...

ونيتشه هو فيلسوف القوة الأول، إعجابه بالرجل الذى يستطيع أن يتغلب على عواطفه ما بعده إعجاب. وهو يرى أن بؤس أمة بكاملها ليس بالأمر الجلل إذا قيس ببؤس رجل عظيم واحد.

اصيب نيتشه بالسفلس وادخل مستشفيات الأمراض العقلية عدة مرات، وكان يبدو معافى، ثم لا يلبث أن يعاوده المرض، وقضى الاحدى عشرة سنة الأخيرة من حياته وهو يصارع الجنون مع الشعور بالعظمة.

وقد كان يلازم الفراش احيانا اياما كاملة. ويستبد به قىء وتشنج معدى يبلغان به درجة الغيبوبة عن الصواب، آلام حادة فى صدغيه، وعمى يكاد يكون كاملا، ومع هذا، ما من احد عنده ليمد اليه يدا، وليضع رفادة على جبينه الملتهب، ما من أحد يقرأ له، ويتحدث إليه ويضحك معه.

منذ عاد من الحرب الفرنسية البروسية التى نشبت عام ١٨٧٠-١٨٧١ الى مدينة بازل وصحته متهدمة. وفى عام ١٨٧٩ انقطع عن التدريس لاسباب صحية،

وكرس نفسه تمام التكريس للكتابة فى السنوات العشر التالية، وكان يحيا حياة متواضعة إلى أبعد حد، وفى عزلة تامة فى سويسرا وايطاليا، ويمثل كل كتاب من كتبه انتصارا شاقا على عينيه نصف الضريرتين، وعلى نوبات الصداع الحادة، وعلى الآلام الجثمانية المتعددة. وما اكثر الصرخات التى كان يطلقها هذا الجسم المعذب. انه لوحة لجميع الأمراض الجسدية، خط عليها مائة تدوين وذيلت بالخط النهائى الفظيع (لقد كان فرط الألم لدى هائلا فى كل مراحل عمرى). واى عذاب شيطانى : صداع. صداع مدوخ شديد الوقع يضطر هذا المخلوق المسكين الهاذى اياما عديدة الى الاستلقاء ببلادة على سرير أو اريكة، تتتابه تشجنات معدية، وتقيؤات دم، وصداعات، وفقدان شهية، انحطاط قوى، بواسير، تلبك الامعاء، قشعريرات حمى، وعرق ليلى. اضف إلى هذا (العينين الغارقتين إلى ثلاثة ارباعهما فى الظلام) تتورمان عند بذل أقل جهد، او تأخذان بذرف الدموع، ولا تسمحان له بالتمتع بالنور. اكثر من ساعة ونصف الساعة فى اليوم!!.

لكن نيتشه يزدرى ارادة الجسد، ويستمر عشر ساعات متواصلة جالسا إلى طاولة عمله. عندئذ يثأر الدماغ المفرط الحرارة لنفسه من هذا الافراط بألم فى الرأس عنيف، وتوتر عصبى، اذ ان الدماغ عند المساء، حين يكون الجسم قد تعب منذ زمن طويل، لا يكف حالا، ولكنه يمضى فى اعداد رؤى وافكار حتى تدعو الحاجة إلى منوم لا رقاده. على ان الحاجة تدعو الى كميات متزايدة (استعمل نيتشه خلال شهرين خمسين جراما من هيدرات الكلورال ليحصل على قليل من الرقاد). ثم يأتى دور المعدة فتثور وترفض ان تؤدى الضريبة الفادحة. وتبدأ الآن(حلقة فاجرة) تقيؤات تشنجية، وآلام فى الرأس جديدة تتطلب علاجات جديدة!!!.



هتلــر

ذو الشخصية الفذة الكثيرة المتناقضات!!

أدولف هتلر

أدولف هتلر، جنكيز خان العصر الحديث، ذو الشخصية الفذة الكثيرة المتناقضات، أبصر النور فى ٢٠ نسيان ١٨٨٩ فى براوناو فى منطقة تقوم على الضفة الشمالية لنهر الدانوب حوالى ٥٠ ميلا فوق فيينا. وكان أبوه ولداً غير شرعى لفلاحة فقيرة. دخل المدرسة فى السادسة من عمره، فكان مجليا فى دروسه، وبخاصة فى الغناء، والرسم ، والرياضة البدنية. وكان والده فى هذا الوقت فى الستين، وامه فى السابعة والثلاثين. فكان بارا بأمه، مخلصا لها اخلاصها له، وهو الابن الثائر المعتد بنفسه، المعتمد عليها.

كانت التقارير المدرسية، واقوال زملائه، تصفه بانه كان فى المدرسة كالزعيم الهندى الاحمر، بأسا وشدة، وعلو صوت، إلى جانب براعته فى الخطابة، وتزعمه رفاقه التلامذة فى شتى ألعابهم. وقد ذكر أحد هذه التقارير أنه كان يضع مرة خطة لرحلة حول العالم مع رفاقه وكان يحمل المدى والفؤوس إلى المدرسة ويثأر لنفسه ممن يعتدى عليه من الطلبة دون أن يلجأ إلى رفع الشكوى إلى المدرسين. وكان يحلم بأن يصبح رساما مع أنه سقط فى امتحان الدخول إلى اكاديمية الفن فى فيينا...

تطوع فى الحرب العالمية الأولى فى الجيش واحرز رتبة كابورال. وفى سنة ١٩١٩ انضم إلى حزب العمال الالمانى فى ميونيخ كمخبر للسلطات، وما لبث أن اصبح زعيمه سنة ١٩٢١، فأدخل عليه بعض الاصلاحات وسماه الحزب الوطنى الاشتراكى (النازى). وما هما إلا شهران حتى قام بثورة فاشلة فألقي القبض عليه وسجن. وفى سجنه وضع كتابه «كفاحى» (ماين كامف) الشهير الذى يبسط فيه آراءه ونظرياته السياسية. وفى سنة ١٩٣٠ بدأ الصناعيون يسندون حزب هتلر،

حتى اصبح فى غضون سنتين أقوى احزاب الرايشتاغ (المجلس النيابي). وفى سنة ١٩٣٣ أصبح هتلر مستشاراً بفضل دهاء فون بابن، فراح يعمل على القضاء على كل معارضة له وما لبث أن خلف المارشال هندنبورغ العجوز فى رئاسة الدولة. وأعلن رغبة المانيا فى التسلح من جديد، وانسحب من عضوية عصبة الأمم، واحتل منطقة الرور، وتدخل فى الثورة الاهلية فى اسبانيا. وفى سنة ١٩٣٨ ضم النمسا إلى المانيا (الانشلوس)، وقد تلا ذلك اتفاقية ميونيخ، وسقوط تشيكوسلوفاكيا. وفى أول أيلول ١٩٣٩، وبعد أن وقع هتلر ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتى، غزت المانيا بولونيا، فكانت تلك الشرارة الأولى فى الحرب العالمية الثانية. وفى سنة ١٩٤٤ نجا من الموت بأعجوبة من مؤامرة دبرها له بعض كبار ضباط جيشه.

تعددت الاقوال فى شخصية هتلر وتضاربت، ولكنها تجمع كلها على أن من أغرب المظاهر فى شخصيته ايمانه العميق فى كل ما يقول. فهو قادر على أن ينكر كل أعماله ووعوده الماضية مناقضة للمصلحة الحاضرة أو المقبلة، ويكون في هذا الانكار مؤمناً بقدر ما كان مؤمناً بالعمل نفسه!

ومن نقائص هتلر الكبرى أنه لم يسافر قط إلى الخارج إلا فى زيارتيه لى ايطاليا. ولا مناص من أن يكون أعظم الحكام استقلالاً بالرأى خاضعين لنفوذ بطانتهم. ولكن قرارات هتلر وتقديراته وانتهازاته للفرص كانت كلها من صنع يده.

ان العباقرة اناس غريبو الاطوار .. ومن غرائب أطوار هتلر المتناقضة أنه مزيج من التفكير الهادئ العميق، ومن الانفعال العنيف المتكبر الناشئ عن الغيظ والحنق.

وفى كتابه «هتلر يتكلم» حلل الهر راوشننغ، وكان مقرباً من هتلر، وأول رئيس نازى لمجلس الشيوخ فى دانتريغ، شخصية دكتاتور المانيا النازية بقوله: «يجمع بين جاذبية الطبيب الماهر والمشعوذ الكبير. انه رمز انبعاث العالم الفطرى في أوروبا الغربية.».

وهتلر كثير المطالب والدلع، لا يعرف معنى العمل المنتظم .. انه صاحب أفكار عارضة وتأثرات سريعة، لا يكاد يشعر بها حتى يبادر إلى تحقيقها بسرعة، فكل شئ فيه زلازل واهتزازات وصواعق وأجمل ما فيه حبه للنزهات الخلوية فى الغابات والجبال، فساعات العزلة والنزهة تقوم عنده مقام الصلاة، يصغى خلالها إلى حفيف الاشجار ووقع قطرات الماء، ويسمع اصواتاً غريبة.

انه يبكى إذا مات عصفور، ولكنه لا يحجم عن تعذيب ملايين البشر!!!

ووصف السفير الفرنسى فى برلين فرانسوى بونسه شخصية الفوهرر، زعيم الرايش الثالث، فى تقرير رفعة إلى حكومته فى تشرين الأول ١٩٣٨ بقوله:

«لا ريب عندى فى أن هتلر ذو خلق متقلب، متبلبل، متجزئ.. فالرجل الذى تراه امامك هادئاً وديعاً، يشعر بجمال الطبيعة ويحدثك على مائدة الشاى عن أكثر من المشاريع السياسية تعقلاً وحكمة، هو الرجل نفسه الذى يستأثر بقراراته وبأعماله، ويندفع فى مغامرات جنونية إلى تنفيذ مطامح جبارة لا تعرف حداً.

ان منزل هتلر الفاخر فى «اوبرز التسبورغ» قرب برشتسغادن اكبر دليل على نفسيته: هل هو وليد خيال صاحب ملايين عظيم، أم هو ملجأ للصوص يكدسون فيه ثرواتهم؟ اهو وليد العقل العادى أم جنون الكبرياء وهواجس السيادة والعزلة؟»

ولقد اقترن اسم هتلر بعدد وافر من النساء على الرغم من الاسطورة التى كانت تصوره بأنه يكره النساء وقد قيل:

«لو كان متزوجاً لما وقعت الحرب. فالمرأة تنفح خلق الرجل بالحنان والرأفة، وتلين قسوته، وتخفف من تطرفه. وأكبر مثال على ذلك أن مارشال غورنغ كان أكثر الزعماء النازيين مغامرة وتهوراً واقداماً، فلما تزوج ورزق اطفالاً رق قلبه المتحجر. واستعاد كثيراً من العواطف الانسانية التى يشعر بها الرجل العادى».

أصر هتلر على حياة العزوبة. وقد اختلفت الآراء فى تعليل هذا الاصرار. وأجمع الخبراء النفسانيون على القول بأن عاطفة الحب ليست مفقودة فى نفس

هتلر، ولكنها تذهب إلى غير المرأة. فهتلر يهوى نفسه، ويهوى العظمة والسؤدد، ويهوى الطموح، والسيادة. وقد جعل المانيا «وسطاً» فى بلوغ هواه.

وسئل هتلر مراراً عن أسباب تجنبه العلاقات الدائمة مع النساء فأجاب: «من يريد أن ينشئ امة لا يستطيع أن يكرس نصف حياته لغير تلك الأمة، بل يجب ان يضحى بحياته كلها فى سبيلها!»

ونشرت الصحف الشئ الكثير عن علاقة هتلر بايفا براون التى قيل انه تزوجها فى ٢٧ نيسان ١٩٤٥، أى قبل مصرعه بأربعة أيام، ولكنها لم تنشر شيئا عن ايفا نفسها التى دعيت «مستشاره الرايش الثالث السرية المسموعة الكلمة».

عرف عن هتلر أحد ملامح البرانويا من ناحية السيكوباثولوجية للهذاء، حيث يكون تعميق تحليل الصورة التى استقر عليها جهاز التفكير الهذائى فى كل حالة، لاكتشاف العلل والميكانيزمات الأساسية التى تحدد نوعه. ففى حالة هتلر نجد كأساس تحليلى للبرانويا - التعليق الشديد بالأم، وما يقابل ذلك من كراهية شديدة، وإن كانت مكبوتة ولا شعورية للأب. فإنه إزاء الاحباط الدائم المستمر منذ الطفولة المبكرة لدوافع كراهية الأب العدوانية القوية لم يجد هتلر من سبيل غير تحمل المعاناة الداخلية القاسية، وتصريف مشاعر الكراهية - لا على شخص الأب بالضرورة كموضع كراهيته بالذات - بل لا شعوريا وبميكانيزم الكبت والهستيريا على الجميع دون تفريق. فكلما كان الانفجار أعم كان تخفيف التوتر أكبر.

إن تحليل نفسية هتلر يكشف لنا عن جنون من اضطهاد أمه على يد أبيه. وبديل الأم فى جهاز هذيانه العقلى - وكما نستطيع أن نتبين فى كتابه (كفاحى) - الفتاة الألمانية الآرية الشقراء. وبديل الأب الرمزى هو اليهود. ولقد انتهى فيما يبدو إلى أن يقسم عقله الإنسانية بأجمعها إلى قسمين متعارضين بينهما خط فاصل لا يمكن محوه: فى ناحية من هذا الخط يوجد الناس الطيبون البراء أمثاله هو نفسه وزملاؤه النازيون- وعموما الجنس الألمانى الآرى كله، وفى الناحية الأخرى من الخط وبتضاد أشبه بتضاد الأبيض والأسود يوجد أشرار الناس وشياطينهم الذين ليسوا من جنسه أو فى اتفاق معه.

وقضى هتلر حياته كلها بتكوينه النفسى هذا يحمى أمه (الكبرى) الى توحد بها واحتضن قضيتها من غدر أبيه وشيطانيته. وبلغ تعلقه ببلاده وحبه لها وبطولته فى سبيلها حد الحرمان من الحياة الجنسية، كما اتجه مصرف كراهيته واعتداءاته بكل ما أوتى من قوة إلى من يقف فى سبيل رغباته أو يقيد حريتها. ويرمز الموقف كله فى نظر التحليل النفسى إلى رغبة مكبوتة فى الانتقام من الاب الشرير الذى يتمثله فى خيالاته الطفولية، وكأنه يعامل الأم الطيبة الرءوم بطريقة شيطانية.

إن الدولة فى محيط السياسة والقانون الدولى تمثل فى وجداننا أمنا الكبرى، والوطن فى شعورنا الذى يرضعنا لبان خيراته. ولعل الحال لم تكن لتختلف كثيراً لو أننا رمزنا للوطن بالأب، ولكن اللاشعور هو الذى هدى الإنسانية إلى هذه الرمزية. ونتيجة لهذا، فإن أى شخص تكون سيكولوجيته من نوع هتلر يرى فى إهانة الأم الكبرى جريمة لا تغتفر، وفى كل من يعتدى عليها بديلا للأب الشرير لا رحمة معه ولا هوادة فى عقابه والانتقام منه. والذين مزقوا الامبراطورية الألمانية فى معاهدة فرساى هم فى نظره لا شك من هؤلاء.

***



هوميــروس

الشاعر الضرير صاحب أعظم الملاحم البطولية فى التاريخ!!

هوميروس

• لم يحتل شاعر ولا علم من أعلام الأب فى جميع العصور التاريخية مكانة فى حياة شعبه كمكانة هوميروس. فهو الرمز الأعلى للوطنية، والمصور الموثوق للتاريخ اليونانى القديم، وهو أحب الشعراء إلى قلوب اليونان، وأعظم من يستشهدون بأشعاره. وقد أخبر «أفلاطون» أن من بين الاغريق من يعتقدون اعتقادا راسخا ان هوميروس: «يستحق ان ينظر اليه كمعلم فى مجال ادارة الشئون الانسانية وتهذيبها، وأن على المرء ان ينسق حياته كلها مترسما خطى هذا الشاعر». كما أن لأشعاره آثارا بالغة فى الأدب والثقافة والتربية، حتى أصبح ينظر اليها على انها أساس للأخلاق، ومعين للعلم والمعرفة، واكتساب للبلاغة، ومقياس للنقد الأدبى، فقد عنى هوميروس بتهذيب أساليبه، وتنقيح فنونه حتى بلغ بشعره أرقى شأن أمكن بلوغه فى تلك العصور. وتمثل ذلك بجلاء فى ملحمتيه الخالدتين «الالياذة» و «الأوديسا» اللتين حصل بهما هوميروس على لقب «صاحب أعظم الملاحم البطولية فى التاريخ» وهما قصتان شعريتان طويلتان احتلتا مقاما مرموقا فى الآداب العالمية.

من هو هوميروس ؟

ولو أردنا أن نجيب على سؤال «من هو هوميروس؟» ما استطعنا ان نجيب بأكثر من أن هوميروس هو «مؤلف الالياذة»!!

فما زالت حياة هوميروس أسطورة كلما حاول العلماء فهمها تاهوا فى تفاصيلها، وكلما أرادوا دراستها تشعبت أبحاثهم، وتعددت آراؤهم، ولم يتفقوا على

شئ. ومع انهم كتبوا عن شاعر الالياذة من المؤلفات ما لم يكتبوه عن أديب آخر فإن أبحاثهم عن حياته ونشأته ما زالت مملوءة بالفروض والاحتمالات.

فأين ولد هوميروس؟ ومتى؟ ومن أى سلالة انحدر؟ هل هو سليل الآلهة؟ ابن بوسيدون رب البحار؟ أم ابوللون، اله الشعر والغناء؟ وهل كانت أمه ربة ربات الشعر أم حورية من حوريات الماء أم امرأة كسائر الأمهات؟ وهل كان ضريراً لا يبصر؟ أو كان مبصراً فى أوائل أيامه ثم فقد بصره؟ أو كان ضعيف البصر طول حياته؟ وأين قضى أيامه وكيف؟ وهل فضل منطقة من بلاد اليونان وأقام بها أم طاف فى ارجائها وقصد كثيرا من مدنها ثم عاد إلى مدينة أزمير «سمورنا» ونظم الالياذة والأوديسا وبعض القصائد الهزلية مثل «الغبى المغرور» و «حرب الضفادع» و «حرب النيران»؟

وبأى أرض مات؟ هل مات بجزيرة ايوس أم فى مكان غيرها؟

هذه أسئلة لا نعرف لها جواباً صحيحا لأن هوميروس فى أشعاره لزم الصمت ولم يذكر عن نفسه شيئا، ولم يحدثنا عن نشأته كما فعل غيره من شعراء زمانه، فأخذ العلماء ينسجون حوله الروايات ويحيكون القصص وكثرت هذه وتلك، واختلفت اختلافا شديداً فيما تضمنته من سير وأنباء، ولكن مهما تضاربت آراء النقاد القدماء، فاننا نستطيع أن نستخلص منها شيئا عن حياة هوميروس ونشأته. وهذه أهم الحقائق التى يمكن أن نستنتجها من المعلومات التى أجمعوا عليها.

يبدو أن هوميروس ولد من أبوين مغمورين فى أحد المدن الأيونية بآسيا الصغرى، ثم أظهر فى صباه ميلا لسماع القصائد وحفظ الأناشيد، وفى سن الشباب بدأ يتغنى بأشعاره فلم ينل اعجاب سامعيه الذين أعرضوا عنه ولم يشجعوه، فذاق مرارة الفقر. وعندما اتقدت قريحته، ونبغ فى انشاد الشعر، ذاع صيته وتسابق الأثرياء إلى دعوته للإقامة فى قصورهم والتغنى بأسلافهم، وتنافست المدن فى اجلاله وتكريمه لما فى أشعاره من تمجيد لابطالها واشادة بماضيها. وهكذا أتيحت له فرصة لزيارة كثير من البلدان، ودراسة معتقداتها والوقوف على أحوالها، ومعرفة عادات أهلها، فكانت مصدراً للمعلومات التى

تفيض بها قصائده.

ولعل ضخامة انتاجه وطول ملامحه يحملنا على الاعتقاد بأنه عاش زمنا طويلا ومات فى شيخوخته بجزيرة ايوس التى أجمعت الروايات على انها كانت تفخر بوجود قبره فيها.

أما عن عصره، فقد ذهب القدماء فيه ثلاثة مذاهب، فقال هيكاتيوس، أول مؤرخى اليونان، بأن هوميروس عاصر الحرب الطروادية التى وصف حوادثها أى أنه ازدهر فى منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد. ولكن هيرودوت خالفه فى ذلك، وأكد أن شاعر الالياذة ظهر قبله بما لا يزيد عن أربعة قرون أى فى منتصف القرن التاسع ق.م، ثم جاء السفسطائى المشهور ثيوبوميوس (القرن الرابع ق.م) وجعله معاصرا للشاعر الهجائى أرخيلوخوس الذى ذاعت شهرته فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد. وازاء هذا الاختلاف كان من الطبيعى أن ينقسم المحدثون على أنفسهم وأن يعتنق كل منهم رأيا من الآراء الثلاثة، ويعمل على تأييده فى ضوء الاكشافات الحديثة.

لكن آخر الأبحاث وأدقها أيدت رأى هيرودوت. فلغة هوميروس هى لغة القرنين التاسع والثامن ق.م وليست لغة العصر الموكينى التى كانت ضاربة فى القدم، وكانت تحتوى كلمات عتيقة وألفاظا نادرة، وعبارات غير مألوفة، ولا هى لغة الشعر الغنائى التى كانت تفيض حيوية وتمتلئ حركة لتوافق الألحان الموسيقية، وتعبر عن مختلف العواطف الجياشة والانفعالات القوية.

عاش هوميروس اذن فى أواخر القرن التاسع ق.م بعد انتهاء حرب طروادة وقبل ازدهار الشعر الغنائى بقرون، فاعتمد فى وصفه لحوادث هذه المعركة على الروايات التى سمعها، والآثار التى شاهدها فى ربوع اليونان، ثم وصف هذه الاحداث فى لوحات تصور المجتمع الذى عاش فيه، والحضارات التى عاصرها. فسجل لليونان حياتهم فيما بين القرن الثانى عشر وأوائل الثامن قبل الميلاد. وعرضها فى قالب قصصى وأسلوب روائى يجمع بين الحقيقة والخيال.

المشكلة الهومرية

لما كان نقاد اليونان منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد كانوا ينسبون إلى هوميروس عددا من القصائد غير الالياذة والأوديسا، لكن شعراء الاسكندرية وعلماءها عكفوا على دراسة الأشعار الهومرية وتحقيقها وقرروا، بعد بحث دقيق، أن شاعرنا لم ينظم الا الملحمتين العظيمتين ولم يخرج على هذا الاجماع الا فئة قليلة كانت تدعى بأن هوميروس لم ينظم الا الالياذة، وان الأوديسا كانت من نظم شاعر - أو شعراء - غيره. ولكن يظهر أن هذه الجماعة لم تستطيع تأييد دعواها بأدلة قوية فكان من السهل على أريستاخوس، أشهر نقاد الاسكندرية، تفنيد رأيها واخماد صوتها، فلم يعد يسمع به أحد فى العالم القديم.

الا أن اجماع القدماء لم يمنع المحدثين من مخالفهم فى الرأى، فاعتمدوا على بعض العبارات المتناثرة فى مؤلفات اليونان ليؤيدوا نظرية هؤلاء الذين سبق أن نادوا بفصل الالياذة عن الأوديسا، وما ان تحددت هذه الدعوى فى القرن السادس عشر حتى انقسم المحدثون على أنفسهم وتعددت مدارسهم وتضاربت آراؤهم، فظهرت فى الأدب اليونانى، مشكله خطيرة، كانت وما زالت موضع أبحاث عديدة، وموضوع كتب بأكملها، وأصبحت تعرف فى هذا الأدب بالمشكلة الهومرية.

ولقد قامت هذه المشكلة على اعتراضين رئيسيين. أولهما انه ليس من الممكن ان يبدأ الأدب اليونانى بهاتين الملحمتين الرائعتين، وليس من المعقول ان تخرجا من العدم دون أن تسبقهما ملاحم أخرى رجع اليها هوميروس وأفاد منها فى نظم أشعاره: ثانيهما أن خصائص كل من الملحمتين تدل على انهما عملان مختلفان ألفهما شعراء مختلفون وأن كلا منهما وحدة مستقلة رغم ما تضمنه من مقطوعات مفككة وفقرات متناقضة. ومن هنا بدأ المحدثون دراستهم، وأخذوا فى البحث عن مختلف الأدلة يدعمون بها رأيهم.

ويعتبر «فولف» أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة «هل» الألمانية أول من اهتم بدراسة هوميروس دراسة علمية دقيقة وأول من خلق المشكلة الهومرية فقد

نشر فى عام ١٧٩٥م كتابه القيم المعروف باسم «مقدمة فى دراسة هوميروس» قرر فيها أن الأشعار الهومرية نظمت فى القرن العاشر قبل الميلاد عندما لم تكن الكتابة معروفة أو على الأقل غير مألوفة فى تدوين الأعمال الأدبية ثم انتقلت هذه الأشعار من جيل إلى آخر عن طريق الرواية الشفوية واعتراها بعض التغيرات، ولم تدون إلا فى أيام الطاغية المستنير بيسستراتوس (٦ق.م) الذى أمر النقاد بتحقيقها وتصحيحها فقاموا بما أمروا به وأدخلوا عليها كثيراً من التعديلات ولذلك يضيف فولف قائلاً: إن الوحدة الفنية فى الملحمتين لم تكن موجودة منذ نشأتهما، انما اكتملت تدريجيا على مر الزمن بفضل الاضافات والتعديلات التى أدخلت عليهما، وينتهى من ذلك إلى أن الوحدة الفنية أظهر فى الأوديسا منها فى الالياذة، وان الملحمتين ليستا من نظم شاعر واحد، وانهما أول الأمر لم تكونا فى صورتهما الحالية بل كانتا أكثر من ذلك بكثير ثم أخذ المنشدون يضيفون إليهما مقطوعات جديدة حتى بلغتا هذا الطول.

تلك خلاصة نظرية فولف التى لقيت عند ظهورها تأييدا شديدا من علماء الالمان وأدبائهم، ولكن سرعان ما اختلفوا فيما بينهم فى التفاصيل بما أدى إلى أضعاف هذه النظرية التى لم تستطع الصمود أيضا أمام نتائج الكشوف الأثرية الأخيرة. فقد ثبت منها ان الكتابة كانت معروفة ومستعملة على أيام هوميروس، بل قبله، وهكذا تهدم الجانب الأساسى فى الأدلة الخارجية التى بنى عليها فولف نظريته.

أما عن الأدلة الداخلية التى اعتمد عليها - هو وأتباعه - لدعم أراءه، فقد دحضها الاستاذ البلجيكى سفيرنس الذى عكف ما يقرب من ربع قرن، على دراسة الالياذة والأوديسا وبحث المشكلات التاريخية والدينية والاجتماعية واللغوية كافة مما يتصل بهما، ونجح فى أن يثبت أن كل ما يبدو فى الملحمتين من تضارب أو تناقض انما هو تضارب ظاهرى لأن هوميروس لم يكن مؤرخاً أو جغرافيا أو عالما لغوياً، بل كان شاعرا من حقه ألا يتقيد بالحقائق. وبهذه الطريقة بين خطأ فولف وتلاميذه، وفند مزاعمهم ووصل إلى أن هوميروس وحده نظم الالياذة والأوديسا فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد.



هيلين كيلر

مؤلفة وعمياء وصماء.. وسعيدة!!

هيلين كيلر

« ان العمى ليس بشئ وان الصم ليس بشئ فكلنا فى حقيقة الأمر عمى وصم عن الجلائل الخالدة فى هذا الكون العظيم»

« هيلين »

ولدت هيلين كيلر فى ولاية «ألاباما» الأمريكية عام ١٨٨٠م. وعندما بلغت سن ١٨ شهرا أصيبت بمرض تركها فاقدة النظر والسمع والنطق فأخذت تستخدم فى طفولتها الاشارة للتفاهم مع من حولها.

قرر الطبيب الذى اطلع على حالها انه من الممكن تنمية ذكاء هذه الطفلة، وكذلك أوصى «غرهام بل»: ان استخدام مدرسة خاصة لها ممكن أن ينمى ذكائها ويعلمها، وفعلاً عينت الأسرة لها مدرسة خاصة اسمها «آن سلفان» لتقوم بمهمة تعليمها وبقيت هذه المدرسة مع «هيلين كيلر» لمدة خمسين عاماً، فنشأت بينهما علاقة ود وصداقة.

استخدمت هذه المدرسة خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة طريقة خاصة لتهجئة الكلمات عن طريق لمس داخل الكف، وبعد عامين من بدء هذا النوع من الدراسة أصبحت الطفلة تجيد القراءة والكتابة بطريقة «برايل».

وعندما بلغت العاشرة من عمرها أصرت على تعلم الكلام والنطق فاستجابت المدرسة لطلبها بعد أن لاحظت أن «هيلين» يمكنها فهم الأصوات

وتمييزها عن طريق لمس حنجرة المدرسة وتحسس الذبذبات الصوتية بواسطة اللمس.

وفى عام ١٩٠٠ التحقت هيلين بكلية «رد كليف» بصحبة مدرستها حيث كانت فى العشرين من العمر وكانت المدرسة تترجم لها المحاضرات بطريقة لمس بطن كفها. وبعد أربع سنوات أنهت هيلين دراستها ووهبت حياتها لمساعدة أمثالها المعاقين.

ذاعت شهرتها فى العالم بعد أن كتبت بعض المقالات فى الصحف والمجلات حول مواضيع حساسة كانت غير مقبولة فى ذلك الوقت ثم أخذت تنشر بعض مؤلفاتها التى منها: «مفتاح حياتى» و «الخروج من الظلام».

وزاعت شهرة هيلين كيلر فوضعت سنة ١٩٠٢ كتابا عن تاريخ حياتها وفى سنة ١٩٠٨ وضعت كتابا آخر عنوانه «العالم الذى أعيش فيه» وفى سنة ١٩١٣ وضعت كتابها المشهور «الخروج من الظلام».

والآن ننقل للقارئ فصلاً كتبته هذه الفتاة عن السعادة التى هى أبعد الموضوعات التى يمكننا أن نتخيل مثل هيلين كيلر تعالجها. قالت:

«يتعجب كثير من الناس عندما أقول لهم بأنى سعيدة. فهم يتخيلون أن النقص فى حواسى عبء كبير على ذهنى يربطنى على الدوام بصخرة اليأس. ومع ذلك فإنه يبدو لى أن علاقة السعادة بالحواس صغيرة جداً فأننا إذا قررنا فى أذهاننا أن هذا العالم تافه يسير جزافاً بلا غاية فإنه يبقى كذلك ولم تتبدل صورته. بينا نحن اذا اعتقدنا أن هذا العالم لنا خاصة وأن الشمس والقمر يتعلقان فى الفضاء لنتمتع بهما فإن هذا الاعتقاد يملأنا سرورا لأن نفوسنا تتمجد بالخلق وتسر به كأنها نفس رجل الفن. والحق أنه مما يكسب هذه الحياة كرامة ووجاهة أن نعتقد أننا ولدنا لكى نؤدى أغراضاً سامية وأن لنا حظا يتجاوز الحياة المادية.

وقد يعترض علىّ البعض بقوله: ألا تسأمين من وحدة الأشياء التى تمسينها

وأنت لا ترين اختلاف الضوء والظلام عليها؟ أليست الأيام كلها سواء لديكى؟

فأقول: كلا. إن أيامى كلها مختلفة فليست ساعة تشابه الأخرى عندى فإنى بحاسة اللمس أشعر بجميع التغيرات التى تطرأ على الجو، وأنى متأكدة بأن الأيام تختلف عندى بمقدار اختلافها عند الذين ينظرون إلى السماء ولا يبالون بجمالها بل يرصدونها ليقفوا منها هل تمطر أم لا. وفى بعض الأيام تنسكب الشمس فى مكتبى فأشعر بأن مسرات الحياة قد احتشدت فى كل شعاع من أشاعتها. وهناك أيام ينزل فيها المطر فأشعر كأن ظلا يتعلق بى وتنتشر رائحة الأرض الرطبة فى كل مكان. وهناك أيام مظلمة أشعر فيها أن النوافذ العشر التى فى مكتبى تئن وترتجف من زمهرير الشتاء. وهناك أيام الصيف المخدرة حين يهب النسيم العليل ويغرينى بالخروج إلى مظلتى حيث أتمدد وأحلم بالزهر يغشاه النحل وهناك ساعات العجلة والازدحام حين تحتشد الخطابات على منضدتى ثم ساعات لا نهاية لها تختلف وتتفق مع المفكرين والشعراء. وكيف أسأم ما دامت الكتب حولى؟

وفى كل الاهتزازات التى أشعر بها عن طريق للمس معان. فهناك وقع الأقدام رائحة وغادية ونبحة كلبى الدانماركى الجميل. ومن وقت لآخر تمر العربات الضخمة التى تحمل مواد البناء فأشعر بنشاط نيويورك العنيف الذى لا يهدأ. ومنذ زمن قريب أمسكت أنفاسى حين خرجت عشرون طيارة تستقبل الطيار لندبرغ واقتربت من منزلى حتى كنت أميز ضجيج المواتر من خلال الحائط الذى يحيط بمكتبى. وما أكثر ما احتشدت الأفكار فى رأسى لهذه الاهتزازات؟ هذا الشاب الجرئ الذى حلم حلما وحققه على أجنحة الندى إلى الشرق المتلألئ وطيارته تميل مع الريح وتنحنى مع السحب. وشعرت كأن ذهنى يقف ويجمد عندما تخيلته يقفز إلى الفراغ وملايين الأشباح البيضاء للموت تهب فى طريقه. أجل كل هذا شعرت به حين مرت الطائرات لإكرامه.

وعندى احساسات أخرى تصل بينى وبين الناس. فحاسة الشم من أثمن وأهم ما أملكه فى حياتى اليومية فإن الجو ممتلئ بالروائح التى لا حصر لها أعرف منها الأماكن والأشياء. فأعرف أزهارى بأشكالها وأرجها وما أكثر ما

أتعجب من أنواع الحلاوة فى الورق والثمر والبذر. بل الشجرة الواحدة تتأرج أرجاً فى الظل يختلف عن أرجها فى الشمس. ثم هناك أرج السوسن الخفيف وأرج العليق الذى يتفشى حوله بما يشبه الحب. والسوسن يحدث بعطره شعورا جميلاً ولكن سرعان ما يغيب وهناك مشمومات لم أجد لها بعد ألفاظاً تؤدى معناها. فالشم أشبه شئ عندى بالصديق يحدثنى عن كل صغير فيخبرنى عن الجو حين ينزل المطر وحين يقطع العشب وحين تمر الأتومبيلات وتبنى المنازل الجديدة وحين يأتى ميعاد الغداء.

وقد كنت أحب المدن لولا ما أعرفه عنها باللمس والرائحة فإن سيل الضوضاء فى نيويورك يتعبنى والروائح الثقيلة التى تنبعث من الحوانيت والشوارع التى أحتبس فيها الهواء واختنق بالبترول ترهق نفسى. اعطنى بدلا من ذلك يوماً فى الريف حين ينفس الهواء الطلق أنفاس الدعوة يدعوك لأن تعود صغيرا وتجرى كما يجرى الصبى إلى الملعب.

وهل تدهش منى أيها القارئ لأنى أعطف على حماسة الصبى يجرى إلى الملعب ويرى البهلوان؟ إن لى رغبة دائمة لأن أدخل من تحت الخيمة وأشترك فى هرج المهرجين فى الملعب. أذكر وأنا فى حوالى السابعة من عمرى أن معلمتى أخذتنى إلى ملعب البهلوان فكانت هذه الزيارة أعظم درس تلقيته فى صباى وكانت ألفاظى محدودة ولم تكن الآنسة سيلفان علمتنى إلا مدة شهرين ولكنى فهمت بأنى سألمس حيوانات ضخمة كبيرة طويلة.

وأول شئ شعرت به عندما دخلت الملعب هو رائحة غريبة مخيفة فأمسكت بملابس الآنسة سيلفان وكادت تتغلب ارادة الهرب على الرغبة فى الرؤية. ولكن يدها من ناحية ويد رئيس الملعب من ناحية أخرى ردتا الى الطمأنينة. وأعطيانى كيساً من الفول السودانى ثم أخذانى إلى الفيل فأخذت أتحسس ساقيه الأماميتين الضخمتين ثم رفعنى رئيس الملعب على كتفه حتى ألمس رأس الفيل وأذنيه المروحتين وطلب منى أن أعطيه قليلا من الفول السودانى حتى يرفع إلىّ «أنفه الطويل» أو خرطومه. فدهشت لهذا الطلب وغضبت قليلاً لأنى كنت أحب

الفول السودانى وكنت أرغب فى تناوله وحدى. ولكنى أعطيت كيساً آخر يحتوى على الفول السودانى ثم أذن لى أن أتحسس وألمس جسم هذا الشخص الذى أعطانى هذا الكيس فكان فتاة ضامرة الخصر جميلة القامة من اللواتى يلعبن فى الملعب ولم يكن عليها سوى ملابس اللاعبات المحبوكات على الجسم. وقد ضحكت وارتبكت لفحصى لها ثم قبلتنى .

وذهبت بعد ذلك اتلمس الخيول العربية وراكبيها وتحسست العربات الفخمة التى تجرها وبرك الجمل امامى فتسلقت إلى سنامه الغريب. ولكن ما اشد ما تأثرت من رائحته!

وقد قال بولس الرسول «عندما اكون ضعيفاً اكون قوياً» وهذا خاطر جدير بتعزية الذين اصابت اجسامهم المحن. وتفسير هذا القول واضح وهو ان الشخص المصاب ينكفئ إلى نفسه يفتش عن لذته فى خواطره وافكاره وعندئذ تصير هذه الافكارموضوع اهتمامه العظيم. ومن المعجزات ان حادثة من الحوادث التى لا قيمة لها تخرج من بوتقة الذهن جميلة لامعة وتأخذ الافكار فى الترتيب حين تتسجل الاشخاص والحوادث فتكسب الحياة المحدودة بالنقص سروراً. وتختزن هذه الاشياء فى الذاكرة فتكون من المتع التى يتمتع بها صاحبها فى اوقات الانفراد والوحدة. وهذا هو السبب فى انى لا اشعر بتة بأنى عمياء وصماء فأنى تركت هذه الهوة الفظيعة منذ زمن بعيد جداً.

وقد كانت حياتى وما تزال سعيدة لأنه كان لى أصدقاء كثيرون وأعمال كثيرة يلذ لى عملها. وقلما افكر فى نقص حواسى ولا احزن اذا فكرت فيها وربما يحدث لى فى بعض الاوقات ما يشبه التشوف والتمنى ولكن هذا الشعور غامض كأنه النسيم يتخلل الزهر. ويمر النسيم ويبقى الزهر راضياً».

المراجــع

١- عظماء ومشاهير وعباقرة معاقون   تأليف/ د.محمد قبيسى

٢- عباقرة هزموا اليأس   تأليف / فايز فرح

٣- روايات قتل الشعراء   تأليف / فائدة شريف نزال

٤- كيف ماتوا   تأليف / خليفة اسماعيل

٥- نفسيات المشاهير   تأليف / سمير عبده

٦- التحليل النفسى لغراميات المشاهير   تأليف / سمير عبده

٧- موسوعة الفكر الإنسانى   تأليف / أحمد الشنوانى

٨- للعبقرية أسرارها   تأليف / كريم مرزه الاسدى

٩- معجم اعلام الفكر   تأليف / نخبة من الاساتذة المصريين

١٠- مشاهير القرن العشرين   تأليف / محمد أبو ذينة

١١- مع الخالدين   تأليف / سمير شيخانى

١٢- مجلة الهلال   دار الهلال

١٣- فى موكب العظماء   تأليف / ابراهيم المصرى

١٤- شخصيات تاريخية   تأليف / على أدهم

*****

تكريم الزميل أحمد الشنوانى

أهدت السيدة سوزان مبارك شهادة تقدير والميدالية الذهبية للزميل أحمد الشنوانى الكاتب الصحفى بدار الهلال وذلك تقديرا لمساهمته فى مهرجان القراء للجميع فى مجال الأعمال الفكرية عن موسوعته «كتب غيرت الفكر الإنسانى».

والجدير بالعلم أن الزميل أحمد الشنوانى قد قدم فى موسوعته والتى تقع فى عشرة مجلدات عرضا شاملا لمائة وخمسة وثلاثون من الكتب الرائدة التى كان لها أعظم الأثر وأعمقه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور وإلى يومنا هذا.

المصور

٥ ديسمبر ١٩٩٧

تكريم الشنوانى

أهدت السيدة سوزان مبارك حرم رئيس الجمهورية شهادة تقدير والميدالية الذهبية للزميل أحمد الشنوانى الكاتب الصحفى بدار الهلال وذلك تقديرا لمساهمته فى مهرجان القراءة للجميع فى مجال الأعمال الفكرية عن موسوعته «كتب غيرت الفكر الإنسانى».

الكواكب

ديسمبر ١٩٩٧

جائزة سوزان مبارك للزميل أحمد الشنوانى

الزميل والصديق أحمد الشنوانى حصل على أحلى هدية فى حياته.. وهى هدية يتمنى كل إنسان منا الحصول عليها. الهدية عبارة عن شهادة تقدير وميدالية ذهبية من السيدة سوزان مبارك لمشاركته فى مهرجان القراءة للجميع لمؤلفه «كتب غيرت الفكر الإنسانى» والذى أختيرت شخصياته من بين اكثر من

مائة شخصية فى التاريخ القديم والحديث كان لها أثرها وتأثيرها فى الفكر الإنسانى.

وطبيبك الخاص تهنىء الزميل وتتمنى له دوام التفوق.

طبيبك الخاص يناير ١٩٩٨

السيرة الذاتية للمؤلف

* أحمد محمد الشنوانى

* صحفى بمؤسسة دار الهلال الصحفية.

* عضو بنقابة الصحفيين.

* عضو اتحاد الكتاب والأدباء

* مؤلف موسوعة الفكر الإنسانى فى عشرة مجلدات.. صدرت بالهيئة المصرية العامة للكتاب فى سلسلة «الألف كتاب»

* مؤلف كتاب بعنوان « »فاتنات وأفاعى» عن النساء الشهيرات اللاتى لعبن أدوارا حاسمة فى تاريخ العالم.. وقد صدر الكتاب فى سلسلة كتاب الهلال عن مؤسسة دار الهلال الصحفية. وقد صدرت طبعة جديدة مكتملة للكتاب تحت عنوان «فاتنات الدنيا وأفاعى الزمان» بدار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

* مؤلف كتاب بعنوان «المدينة المنورة ودولة الإسلام الأولى».. تحت الطبع.

* مؤلف كتاب بعنوان «من روائع الفكر الإسلامى»... تحت الطبع.

* مؤلف «موسوعة الخالدين من أعلام الفكر».. (مجلدين) تحت الطبع.

* كتب فى عدة جرائد ومجلات مصرية وعربية منها:

١ ـ مجلة الهلال.	مصر
٢ ـ مجلة المصور.	مصر
٣ ـ مجلة طبيبك الخاص.	مصر
٤ ـ مجلة حواء.	مصر

٥ ـ مجلة الكواكب مصر

٦ ـ مجلة الوعى الإسلامى. الكويت

٧ ـ مجلة الرابطة. السعودية عن رابطة العالم الإسلامى.

٨ ـ جريدة العالم الإسلامى السعودية عن رابطة العالم الإسلامى.

* حصل على جائزة فى مهرجان القراءة للجميع من السيدة سوزان مبارك قرينة رئيس الجمهورية (ميدالية ذهبية وشهادة تقدير) تقديرا لإثرائه المكتبة العربية بمؤلفاته الفكرية.


فهرس الكتاب

المحتــوى